المركز القومي للترجمة



المشروع القومي للترجمة

ميراث الترجمة

هانز كوهن

عصر القومية

ترجمة
عبد الرحمن صدقي

مراجعة
مصطفى حبيب

1313

عصر القومية

المركز القومى للترجمة
إشراف : جابر عصفور

سلسلة ميراث الترجمة
المشرف على السلسلة : طلعت الشايب

- العدد : ١٣١٣
- عصر القومية
- هانز كوهن
- عبد الرحمن صدقى
- مصطفى حبيب
- ٢٠٠٩

هذه ترجمة كتاب :

The Age of Nationalism

by : Hans Kohn

شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ – ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo
E.Mail:egyptcouncil@yahoo.com Tel.: 27354524 - 27354526 Fax: 27354554

عصر القومية

تأليف : هانز كوهن

ترجمة : عبد الرحمن صدقى

مراجعة : مصطفى حبيب

٢٠٠٩

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

كوهن ، هانز
عصر القومية / تأليف: هانز كوهن؛ ترجمة : عبد الرحمن صدقى ؛
مراجعة : مصطفى حبيب .
ط ١ - القاهرة ، المركز القومى للترجمة ٢٠٠٩
١٩٢ص ؛ ٢٤ سم
١- العالم - تاريخ
(أ) صدقى ، عبد الرحمن (مترجم)
(ب) حبيب ، مصطفى (مراجع)
(جـ) العنوان ٩٠٩

رقم الإيداع ٢٠٠٩/٨٣٥٦
الترقيم الدولى I.S.B.N. 978 - 977 - 479 - 159 - 3
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

مقــدمة

لقد أصبح من المسلم به فى العالم الغربى التعبير عن العقود التالية لعام ١٩١٤، وعلى الأخص تلك التى تلت عام ١٩٣٣، بأنها عصر اللهفة المبهمة والتوتر غير العادى. وقد عرفت مثل هذه الفترات على مدى التاريخ البشرى . بيد أن ما يميز هذه الفترة الحالية عما سبقها من فترات ليس اشتداد الخوف وتزايد القلق وإنما هو الطابع العام الذى جعلها تشمل الكوكب الأرضى كله. ذلك أن الوحدات السابقة كانت محدودة الأمد، أما فى منتصف القــرن العشـرين فقــد دخلـت البشــرية أولى مـراحــل تاريخ الكوكب الأرضى.

وهذا الشمول الذى يتميز به هذا العصـر الجديد من التاريخ يجعلنى أتردد فى استعمال اصطلاح تاريخ العالم ذلك أن كلمة العالم قد استخدمت حتى الآن جوا متميزا للدلالة على الكون المخلوق كله أى الدنيا بأسرها من ناحيـة، وعلى الأرض وما يجرى فيها وما يثور فيها من ناحية أخرى على الرغم من أنها فى واقع الأمر لا تمثل إلا جزءاً ضئيلاً من الكون وإن كانت أكثرها اتصالا بالإنسان.

ونحن على أبواب عصر سيكتسب فيـه الإنسان تجارب واهتمامات جـديدة عن الفضـاء، وستكتسب فيه كلمـة «العالم» مـفهومًا جـديداً يتمـيز تميزاً تامًـا عن تاريخ الإنسان وظروفه على أرضنا. ولذلك أفضِّـل تعبير «تاريخ الكوكب الأرضى».

والبحث التالى يتعرض لحوادث من الثلث الثانى من القرن العشرين. وينظر إليها فى ضـوء التـاريخ السـابق، لا على أن المهم فيـهـا هو كـونـهـا عـصـر انقلاب سـيـاسـى واجتماعى كبير مفاجئ، وإنما على أنها عصر تغـيرات فى عقـل النـاس وطـريقتهم

فى التفكير. والآراء التى أبديت هنا تتضمن أيضًا طريقة جديدة فى تقسيم تاريخ العالم أو الكوكب الأرضى إلى مراحل: والتحليل المعروض يقوم على دراسات سابقة. ولكى أدع فرصة لاسترسال البحث فى النطاق الضيق لهذا الكتاب، أشرت فى الهوامش، إلى كتابات أخرى فى الموضوع للرجوع إليها فى تأييد وجهة النظر المعروضة هنا.

والعصر التاريخى الجديد الذى نوشك أن ندخله، يبدأ، كما فعلت كل العصور السابقة عليه، كفترة جهد وقلق كبيرين يثقلان روح الإنسان. ومع ذلك، فمؤرخ اليوم قد ينظر إلى المستقبل بأمل حذر، أمل يدرك عجز الإنسان واستحالة التنبؤ بالتاريخ. والمؤلف الذى يقترب من العام السبعين من عمره، والذى شهد خلال أيام حياته الواعية حربين عالميتين وثورتين عالميتين ليس ممن يلقون المديح جزافا، لقد كانت حياة الغالبية العظمى من الناس قبل سنة ١٩١٤ تكاد تخلو من الحلاوة كحياة الجموع الكبيرة قبل سنة ١٧٨٩ . وقبل سنة ١٩١٤ لم يتمتع بطيب الحياة إلا أقلية صغيرة ممتازة. ومنذ ذلك التاريخ وصل عدد أكبر من الناس إلى حياة أكثر راحة وأكثر استشعاراً للكرامة الإنسانية وللمسئولية الاجتماعية. عما كان يظنه أى إنسان ممكنًا فى سنة ١٩١٤.

ويمكن أن يرى تعقيد التاريخ وتكافؤ متنافضاته فى حقيقة أن هذا التوسع لقاعدة حياة إنسانية أكثر كرامة، حدث فى أوروبا بعد سنة ١٧٨٩ فى ظل الفكرة العامة لعصر القومية، وحدث خارج أوروبا فى القرن العشرين فى هدى نجوم مماثلة. وفى هذا العصر شمل اتجاها مشتركا لأول مرة الشعوب والحضارات فى الكرة الأرضية كلها، وكان هذا تحت شارة القومية. ويمكن، لذلك، أن يسمى هذا العصر عصر الوحدة القومية الشاملة ومع ذلك فإن القومية، فى أوروبا، كغيرها، لم تحمل أملا ووعداً فحسب، بل حملت أيضًا تهديداً خطيرًا للوحدة المتزايدة للجنس البشرى، وللحرية المعقولة للإنسان. وكان رداء القومية يكسو آمال الإنسانية فى المساواة والكرامة من

ناحية، كما يكسو من الناحية الأخرى الرغبة فى السيطرة على الآخرين، وهى أكثر ملامح التاريخ الإنسانى وأقوى عوامله دوامًا وخطرًا وفى عصر القومية، كانت الجنسية وسيلة لكثير من التقدم الداخلى، ولكن إذا استشهدنا بكلام اللورد آكتون.. فإن، «تقدم الحضارة يتوقف على السمو فوق القومية». وسيجد العصر الجديد لتاريخ الكوكب الأرضى، الذى أسميه عصر القومية الشاملة، أبعد تبرير له فى تساميه على عوامل الجنس والقومية بأن يصبح نظامًا دوليًا يشمل الكرة الأرضية كلها، ويحقق بذلك النتائج التى أرسى هو مقدماتها.

نيويورك، يناير سنة ١٩٦٢

هانز كوهن

«إن الماضى القريب يحتوى على مفتاح الوقت الحاضر. وكل أشكال الفكر التى تؤثر فيه تمر علينا كلٌ فى دوره، وعلينا أن نصف التيارات المتحكمة وأن نفسر القوى الحاكمة التى لا تزال تقود العالم وتقسمه... وأنا أفهم التاريخ العالمى على أنه ذلك الذى يتميز عن التاريخ المشترك لجميع الأمم، وهو ليس جبلاً من الرمل، وإنما هو تطور مستمر، وهو ليس عبئًا على الذاكرة، ولكنه إضاءة للروح. وهو يتحرك فى تتابع تشارك فيه كل الأمم كعوامل ثانوية وقد تبرز فيه حينا قصة حيانها لا من أجلها بالذات وإنما تبعًا لتسلسل أسمى، وما يقتضيه الزمان والعمق اللذان ساهمت بهما فى تقرير المصير المشترك للنوع الإنسانى».

لورد آكتون بوصفه ناشرًا لتاريخ كمبريدج الحديث، سنة ١٩١٨.

«هذه الميول... ستهيئ أسلحة جديدة لكل الأجيال التالية التى تكافح فى سبيل حرية الجنس البشرى. فلننظر إذن قدمًا إلى المستقبل بذلك الخوف المحبب الذى يجعل الناس يحافظون على الحرية ويحرصون عليها، لا بذلك الفزع الخائر الفارغ الذى يضعف القلب ويهبط به».

توكڤيل، الديموقراطية فى أمريكا

الجـــزء الأول

عصْر القوميّة

تحــوّل أوروبــا

«لعله (إعلان الاستقلال) أن يكون للعالم، ما أعتقد أنه سيكون - لبعض الأجزاء في القريب ولبعضها الآخر فيما بعد، ولكن للكل فى النهاية - علامة هبوب الناس لتحطيم الأغلال التى دفعهم الجهل والإيمان بالخرافات إلى تقييد أنفسهم بها، والاستمتاع بسعادة الحكم الذاتى وأمنه».

خطاب توماس جيفرسون، ٢٤ يونيو سنة ١٨٢٦

- ١ -

إن الثورة الفرنسية التى وقعت فى سنة ١٧٨٩ تحدد نقطة تحول فى التاريخ الغربى. ولقد بدا فى أول الأمر أن النهضة الجديدة والأكثر عمقا التى كانت أمنية أوروبا كلها فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر، قد أخذت طريقها إلى التحقق فى فرنسا. وقد أيقظ الاتصال بأفكار الثورة الفرنسية الحياة السياسية والفكر السياسى من غفلاته فى القارة الأوروبية، وعلى الخصوص فى ألمانيا وإيطاليا. فحب الحرية، واستهداف تكوين أمة واحدة غير منقسمة، والشوق إلى تضامن قوى جديد وروح قومية جديدة، وفكرة دولة تضرب جذورها فى الرضاء الشعبى وحماسته وتسندها المشاركة الإيجابية للناس - كل هذه المفاهيم قد تعلمناها من ثورة فرنسا.

على أن هذه المفاهيم سرعان ما تحولت فى فرنسا ذاتها بين سنة ١٧٨٩ وبين سنة ١٧٩٣ . فالطاغية الذى تجب محاربته لم يعد المستبد المحلى وإنما العدو الخارجى، ولم يعد التقدير لتحرر الفرد من حكومة استبدادية قوية بقدر ما هو للاستقلال القومى والقوة القومية. ولقد كان تأثير الثورة الفرنسية على القارة الأوروبية بوصفها هذا - قومية ورغبة فى القوة - أكثر من تأثيرها عليها بوصفها إنسانية مستنيرة. وقد انقلبت القومية الجديدة التى أيقظتها الثورة الفرنسية ضد فرنسا. أدرك هذا فنسترو كوكو فى كتابه «Saggio Storico» عن ثورة نابولى فى سنة ١٧٩٩ . «يالها من خاصية غريبة فى كل شعوب هذه الأرض! فالرغبة فى إعطائهم حرية مبالغًا فيها تثير فيهم رغبة قوية للتحرر من محرريهم أنفسهم».

وقد بدأت الثورة الفرنسية من أجل تحقيق الفكرة الجديدة «للحكومة المحدودة» التى جادت بها الثورتان الإنجليزية والأمريكية. وقد عبر «إعلان حقوق الإنسان» فى سنة ١٧٨٩ عن أفكار الحرية والمساواة بإلغاء كافة أنواع التمييز والامتيازات التقليدية. وقد بقيت المساواة مثلا أعلى فى عهد الجمهورية وفى عهد نابليون، أما الحرية فقد

فقدت مباشرة فى فورة الاعتزاز بالانتصار القومى الذى وجد تمثيله الأساسى فى الجيش. فلقد أنقذ الجيش الجمهورية فى سنة ١٧٩٣ . ولكن قادة النظام الجديد لم يسعوا للسلم، حتى بعد أن استعادت فرنسا أمنها ووضعت نهاية للإرهاب. ورغم أن الناس كانوا يتوقون إلى بلهنية من العيش جديدة، فقد كان فى الإمكان الانحراف بهم عن غايتهم بغير صعوبة ليتابعوا الطريق إلى المجد. وقد هيأ «روبسبير» الطريق لنابليون، وعبّد صاحب المذهب الفكرى الطريق للجندى، ومهدت فضائل المتعصب الثورى السبيل للقوة المكيافيللية الباردة. ولقد كانت الحماسة لقومية عسكرية توسعية وما يصاحبها من انتقاص الحرية الدستورية هى الميزة التى تميزت بها الثورة الفرنسية عن ثورات البلاد التى تتكلم الإنجليزية. فهذه الثورات وعلى الخصوص الثورة الأنجلو - أمريكية، وإن حملت رسالة عالمية أيضًا، إلا أن هذه الرسالة لم تلعب إلا دورا ثانويا فقط. وثورات سنة ١٦٤٠ وسنة ١٧٧٦ وقعت فى أطراف العالم المتحضر وكانت مقصورة أساسا على اهتمامات مباشرة وقومية. وثورة سنة ١٧٨٩ حدثت فى بلاد هى قلب الحضارة الأوروبية. وأثارت حماسة شديدة فى كل أرجاء العالم الغربى. وقد اعتبرت - لا فى رأى الفرنسيين فقط - وسيلة لبعث حياة جديدة للجنس البشرى. وأصبحت باريس «أورشليم الجديدة».. «وأثارت الثورة جوا من الحماسة التبشيرية، واتسمت فى الواقع بكل مظاهر النهضة الدينية... وقد عمت هذه الديانة العجيبة العالم الغربى كله بمن فيه من مبشرين وعسكريين وشهداء». وقد تمكنت الثورة الفرنسية من التأثير على العالم الغربى كله لأن أذهان الناس كانت معدة لاستقبال الأفكار الجديدة. والذى كان جديدًا تمامًا فى الموقف هو أن تكون أمم كثيرة «قد بلغت مرحلة من التطور» تمكنها من المبادرة إلى قبول الأفكار الحديثة للثورة.

كان للثورة الفرنسية وجهان من التأثير على العالم الغربى. فقد قوت الديموقراطية فى البلاد التى كانت توجد بها أفكار مستقرة من قديم عن الحرية، وحكومة ذاتية محلية محدودة القوة. وكانت الحال كذلك فى الولايات المتحدة، وبريطانيا، وسويسرا، وعلى العموم فى كل تلك البلاد الأوروبية الصغيرة التى تبعت النموذج الإنجليزى للقومية - اسكانديناوة وهولندة -. وفى الدول الأخرى أثارت الثورة الفرنسية قومية عسكرية.

وقد ضربت روح الجيش الفرنسى المثل لذلك. إذ وضع الجنرال «بونابرت» قائدا للأمة فى سنة ١٧٩٩ ، وتتابعت الدساتير على الورق وقدمت النظم النيابية المحدودة السلطة واجهة ديموقراطية. وهكذا لم ينم لدى الفرنسيين احترام الدساتير والأجهزة البرلمانية الذى يميز البريطانيين والأمريكان. وورثت القومية فى فرنسا وفى القارة على العموم روح الحكم المطلق بما فيها من خوف من الحكومة الذاتية واتجاه نحو المركزية. وقد بيَّن توكفيل فى دراسته «النظام القديم والثورة الفرنسية.. «– وقد تأيد بحثه من كثيرين من الدارسين منذ ذلك الحين – أن الثورة ونابليون تابعا زيادة تدخل الحكومة فى كل حياة فرنسا. «ففى ظل النظام القديم، كما هو الحال الآن، لم يكن فى فرنسا بلدية مهما كانت صغيرة، ولا مستشفى، أو مصنع، أو ملجأ، أو كلية ، لها الحق فى أن تدير شئونها كما تعتقده مناسبًا... وهكذا كانت السلطة المركزية – كما هو الحال الآن – تفرض وصايتها على جميع الفرنسيين». ورغم أن الفرنسيين قد أطاحوا بالملكية فى سنة ١٧٨٩، فإن ماضيهم «جعلهم أقل أهلية ربما من أى أمة أخرى لاستبدالهم بها حكومة مستقرة وحرية صحيحة تحت سلطان القانون». ولم يكن الفرنسيون وبعض الأمم الأوروبية الأخرى، بعد ذلك بمئة وعشرين عامًا قد وصلوا إلى هدف الحرية المستقرة واحترام القانون.

وقد جاوز نابليون الأول الملكية كثيراً فى المركزية وفى مطامحه. لقد فرض ميراث فكرة الإمبراطورية الرومانية على القومية الفرنسية. ووحَّد فرنسا وألمانيا الغربية وإيطاليا والأراضى الواطئة فى إمبراطوريته بوصفه الخلف الحقيقى لشارلمان. وقد ضم الأملاك البابوية فى ١٧ مايو سنة ١٨٠٩ ارتكازا على قوة النظرية التى تقول إن أملاك البابا الدنيوية كانت إقطاعا من شارلمان «إمبراطور فرنسا وسلفنا العظيم». لقد أراد نابليون أن يذهب إلى أبعد من شارلمان وروما. وقد سبق نيتشه الأحداث حين قال «إننا مدينون لنابليون بأن قرونا حربية عديدة، لم يسبق لها نظير فى التاريخ، سوف يأتى الواحد منها تلو الآخر – ومجمل القول إننا قد دخلنا العصر الكلاسيكى للحرب، وهو عصر علمى وشعبى فى نفس الوقت» وإذا كان ما توقعه نيتشه عن مقدم قرون

حربية عديدة بعيداً عن الصواب فإن جانباً آخر من نبوءاته يبدو أكثر صحة، ذلك الذى تمثل فى قوله:

«أوروبا موحدة تكون سيدة العالم». هذا الحلم فى سيادة أوروبا على العالم، وقد تبدد اليوم إلى الأبد، كان يسيطر فى صورة منحرفة - على عقل هتلر. على أن توحيد أوروبا سواء على صورة إمبراطورية رومانية مقدسة جديدة أو غير مقدسة لم يعد فى الإمكان تحقيقه حتى ولو كان الهدف سيادة العالم. فنابليون وهتلر ومن عساه يكون من أمثالهما العالمين لوحدة أوروبا أو العالم من أجل السيادة أو القيادة يثيرون - بالضرورة - مقاومة القومية. فالشعوب الأخرى - حماية لحريتها، وهدوئها، وتعددها، قد اتحدت ضدهم وأسقطت هذا النظام الجديد. للفتح والتوحيد. وفى عصر القومية أصبح مستحيلاً أن تسود العالم أمة واحدة، أو فكرة واحدة، أو قائد واحد.

وقد كشف «بنيامين كونستانت» أحد نقاد نابليون الأحرار فى وضوح السبب فى أن كل إحياء للروح الرومانية مقضى عليه بالفشل فى العصر الحديث حين قال «كانت الحرب هى وسيلة الماضى، والتجارة هى وسيلة المدنية المستنيرة. «التجارة هى محاولة الحصول بالاتفاق على ما لم يعد يمكن الاستيلاء عليه بالقوة. والرجل الذى يمكن أن يكون الأقوى دائماً، لن يفكر مطلقاً فى التجارة. والتجربة - بما تبديه له من أن الحرب، أى استعمال قوته ضد قوة رجل آخر، عرضة لمقاومات وعوائق متعددة - هى التى تقوده إلى اللجوء إلى التجارة أى إلى طريقة أكثر رضا وأمناً لإجبار مصالح الآخرين على قبول ما يناسب مصلحته الخاصة.. وعندما كانت قرطاجنة تحارب روما فى العصر القديم، كان عليها أن تسلم، فقوة الظروف كانت ضدها. ولو وقعت الحرب بينهما اليوم لوقف العالم كله إلى جانب قرطاجنة. ولو جدت روح العالم وأخلاقه الحقيقية حلفاء لها».

حاول مؤتمر فينا، فى نهاية الحرب النابليونية أن يعيد أوروبا إلى حالتها قبل القومية. وكتب «مترنيخ» إلى «ولنجتون» فى سنة ١٨٢٤ «منذ زمن طويل ولأوروبا عندى صفة الأرض الأم».

وقد مرت أوروبا بفترة سلم دولى أكثر من أربعين عامًا حتى استعمل نابليون الثالث وأوتوفون بيسمارك وسيلة القومية العسكرية فى خدمة آمالهما فى القوة فلم يكن ثمة أثر لسباقات التسلح أو المركزية أو التقدم فى الوسائل الفنية الحربية. وكان هذا السلم، على أى حال، منبعثًا من الرضا والاكتفاء الذاتى المبنى على استيفاء الحالة القائمة. ومع ذلك فإن شعور الرهبة الغامض بعض الشىء نحو الملكيات صاحبة الحق المقدس، بدأ يفقد بريقه خلال الحروب النابليونية، رغم أنه ظل باقيًا بعد ذلك بين الطبقات الألمانية العليا والمتوسطة، وربما بين الفلاحين الروس حتى بداية القرن العشرين. وساعد الكونت بيسمارك فى ألمانيا والكونت كافور فى إيطاليا على إضعاف مبدأ شرعية الملكية بهدمهما الملكيات القديمة بشكل مهين. ووراء الواجهة الأرستقراطية للحياة، بدأت الثورة الديموقراطية والاجتماعية، التى عبرت عنها أفكار سنة ١٧٨٩، تنتشر فى سنة ١٨١٥ فى بطء ولكن - فى عمق - بدرجات مختلفة بين الطبقات المثقفة أولا، ثم بين الجماهير فى مختلف دول أوروبا، وأخيرًا حتى فى روسيا والشرق الأدنى.

وفى نهاية فبراير سنة ١٨٤٨ اندلعت الثورة مرة أخرى فى فرنسا، وأقيمت الجمهورية الثانية. وفى هذه المرة أثرت الحوادث فى وسط أوروبا كلها بسرعة لم تكن متوقعة. وحملت الثورة المجددة إلى كل مكان الميراث المزدوج لسنة ١٧٨٩ - التحررية والقومية -. وأثبتت القومية مرة أخرى، كما فعلت من قبل نصف قرن، أنها أقوى من التحررية، فوضعت الأخيرة - طوال مدة بقائها فى أوروبا - نفسها فى خدمة القومية العسكرية. وفى فرنسا ذاتها بهرت أفكار نابليون الأغلبية الساحقة من الشعب. وانتهت الجمهورية الثانية إلى الديكتاتورية العسكرية للإمبراطورية الثانية. وقد كتب إدجار كينيت حينئذ: «ليس ثمة ما هو أقدم فى العالم من الناس الذين يصفقون للنجاح.

ويرحبون فى المساء بما كانوا يلعنونه فى الصباح. والحق أنه لا جدوى من إنشاء كلمة جديدة لتلك – السلطة الديموقراطية – كما لو كانت كل سلطة تحل محل القانون ليست نفيا للديموقراطية وسلبا لها وكثيراً ما رأيت الديموقراطية والحرية تسلبان بوعود رخيصة بتحقيق الحرية فى وقت ما فى المستقبل، بعد أن تكون القوة القومية والاتحاد قد قاما بعملهما. على أنه فى نفس الوقت، لم تعد الجماهير تقبل اعتبارات العدل والحرية على إطلاقها».

وجدت القومية العسكرية، التى رفعت نابليون الثالث إلى السلطة، خطيبها فى «ميشيليه»، مؤرخ فرنسا والثورة الفرنسية، الذى كان يشغل كرسى التاريخ والأخلاق فى كلية فرنسا. وكان كتابه «الشعب» (سنة ١٨٤٦) دعوة لاتحاد فرنسا من أجل القوة اللازمة لحمل رسالتها بوصفها «الملاح الرائع لسفينة البشر». وقد تراءت له الأوقات الحرجة المقبلة، تهديداً لفرنسا وللحضارة من الغرب ومن الشرق، من انجلترا وروسيا. يجب ألا تثق فرنسا إلا فى قوتها التى تقوم على وحدتها وشعورها برسالة تاريخية عظيمة، هى التخلص من طبقتها الحاكمة المتخاذلة المنحلة، البورجوازية. وقد وجد «ميشيليه» أنه لا يزال يحيا فى شعب فرنسا «شعور بالشرف العسكرى الذى تجدده دائمًا قصص البطولة، والروح الخفية لأبطال حروبنا، ورفرفة العلم القديم..... فى يوم المعركة الكبرى بين الحضارة والبربرية (ومن يدرى أنها لن تكون غداً؟) يجب أن يجد الله أن الجنود الشبان (لفرنسا) لا ترقى إليهم شائبة، سيوفهم نظيفة، وسناكيهم لامعة. وفى كل وقت أراهم يمرون، يتأثر قلبى، هنا فقط أجد القوة والفكرة، والشجاعة والحق، التى لا تجتمع فى أى مكان آخر، تسير يداً فى يد. وإذا كان يمكن أن تنقذ الحرب العالم، فأنتم فقط الذين ستنقذونه. ياحراب فرنسا المقدسة احترزوا أن يضعف شىء ذلك النور الذى يلمع فوقكم والذى لا تستطيع احتماله عين.

استغل نابليون الثالث الثقة فى الجيش وفى مصير فرنسا الذى تحدث عنه «ميشيليه» بمثل هذا الاعتزاز كما أساء استغلال هذه الثقة فى الوقت نفسه وسرعان ما تصدى «ميشيليه» وغيره من زعماء المثقفين الفرنسيين لنابليون الثالث بالإنكار.

وكان المثقفون فى أنحاء أوروبا الوسطى أقل شجاعة فى سبيل التحررية. ومن ثم هزمت المطامع المتنازعة للقوميات المختلفة فيما بين سنة ١٨٤٨-١٨٤٩ الأمل فى التحررية وفى السلم الدولى ومكنت للملكيات المحافظة شبه المطلقة أن تتابع الحياة. على أن هذه القومية المتأججة استمرت فى الانتشار فى أوروبا الوسطى بعد سنة ١٩١٨ - سنة سقوط الملكيات - وفى الحقيقة، أظهرت قومية الشعوب أنها أكثر حماسة وهجوماً، وراء واجهة الدساتير الجمهورية أو الديموقراطية منها وراء الملكيات.

فى الفترة بين الحروب النابليونية وسنة ١٨٤٨، وصلت القومية فى بطء إلى سيادة الفكر العام للطبقات المثقفة فى ألمانيا وإيطاليا وبين شعوب أوروبا الوسطى الأخرى. وفى بداية القرن العشرين كانت العالمية وحب السلام لا يزالان سائدين، وعلى الأخص فى ألمانيا. وانضم إليها «كانت» و«جوته» طوال حياتهما. وكان كثير من المثقفين الألمان يؤيدون نابليون، وعندما تخلوا عن تأييده، لم يكن ذلك لأنه أجنبى وإنما لأنه خان الوعد بسلام عالمى. ولكن مع نهاية الحرب النابليونية، كان كثير من المثقفين يجعلون دعاوى الجنس والتاريخ أعلى من دعاوى الحياة العالمية والحرية الفردية.

كتب «جوزيف كوُرس» أكبر رجال الصحافة السياسية الألمان فى «حرب التحرير» ضد نابليون، «كل جنسية هى فى ذاتها كل متكامل ومقفل تماماً. تربط أعضاءه جميعاً علاقة عامة هى رابطة الدم. يجب أن يكونوا جميعاً ذوى فكر واحد، ويجب أن يلتصقوا معاً كرجل واحد. هذا هو الدافع الغريزى الذى يربط جميع الأعضاء فى كل واحد هو قانون الطبيعة الذى يتقدم على كل العقود الصناعية... إن صوت الطبيعة فى نفوسنا ينذرنا ويشير إلى الهوة بيننا وبين الأجنبى». ولكن حتى عندما كان «كوُرس» يعبر عن هذا الرأى لم يكن التاريخ والدم من القوة بحيث يتغلبان على ميول الحاضر والروح المتحررة. واستمر كثيرون يفضلون الحرية على حق الدم المفترض. فالسويسريون الذين يتكلمون الألمانية والألزاس الذين كانوا حتى القرن السابع عشر يكونون جزءاً من الإمبراطورية الألمانية، والذين دعاهم «كوُرس» إلى العودة إلى الوطن فى «الرايخ الألمانى» الجديد، أصروا على حريتهم فى تقرير الانفصال.

وفى الولايات المتحدة ولدت أمة من عديد من المواطنين والدماء بالامتزاج المفيد بين الأفراد والجماعات المختلفة الأجناس. وحتى فى ألمانيا كان «كوُرس» يشكو من أن كثيرين يتوقون إلى عودة الفرنسيين. فقد تركت السنوات من التأثير الأجنبى، فى قلوب بعض الألمان تفضيلا للنظام الفرنسى للأشياء على السعادة التى يجلبها الشرف القومى.

استمر الدارسون الألمان فى أوائل القرن التاسع عشر فى التحذير ضد الاهتمام بالوحدة والقوة. وقد امتدح المؤرخ «أرنولد هيرمان لودفيج هيرن» فى سنة ١٨١٧ ضعف الاتحاد الألمانى - غير المتماسك - بوصفه ضمان السلام لأوروبا. وحذر «هيرن» من أنه لو أصبحت ألمانيا دولة قومية متحدة قائمة فى قلب أوروبا تماماً، ككتلة متماسكة، تملك موارد هائلة من القوة البشرية والمنتجات الطبيعية والصناعية، لكان من الصعب عليها أن تقاوم الإغراء فى استعمال مزاياها الجغرافية والاستراتيجية لتصبح دولة أوروبا المحاربة. لم يرفض «هيرن» الوحدة القومية الألمانية فحسب، ولكنه كان أيضاً أحد أوائل كتاب القارة الذين رأوا أن توازن القوى الأوروبى ليس أساساً ثابتاً للتاريخ، كما افترض السياسيون الأوروبيون حتى سنة ١٩٣٩، وإنما سيخلى مكانه لتوازن قوى عالمية. مع اتساع سريع لمسرح التاريخ سرعان ما يشمل الأرض كلها.

وكان يعتقد أن العصر الجديد للقوة البحرية والنظام العالمى سيعلن قدوم مستقبل أسعد للبشرية. وفى سنة ١٨١٤ اقترح «ميشيل ألكسندر ليبس» وهو مؤرخ ألمانى آخر فى تلك الفترة، تحررى مخلص، معاد لكل بقايا النظام الإقطاعى، تكوين اتحاد أوروبى تحررى. وفى سنة ١٨١٤ نشر الفيلسوف الألمانى «كارل كريستيان فردريك كروس». الذى كان له تأثير كبير على الفكر الإسبانى، مشروع دستور لاتحاد أوروبى كان يعتبره نظاماً جزئياً داخل نطاق اتحاد عالمى مستقل. وقد ظل ثلاثة شهور ينشر صحيفة «Tagblatt des Menschheitlebens» وهى الصحيفة اليومية الأولى التى كُرست لصالح الحكومة العالمية.

ولكن بعد سنة ١٨٣٠ أصبح غالبية التحررين فى أوروبا قوميين أكثر منهم تحرريين والتأكيد على الوحدة والقوة القومية، وعلى توسيع الرقعة القومية إلى أعظم مدى بلغته فى التاريخ، والدعوة إلى الحقوق القائمة على الماضى «السلفى».. كل هذا حطم السلام العالمى واهتمامات الناس الإنسانية بإخوانهم من الجنسيات الأخرى. وكانت الأسباب الاستراتيجية للبقاء القومى أو الأمن، والأسباب المعنوية ذات الأهمية الثقافية، أو الإنتاج الاقتصادى، كانت تقدم لتبرير المطالب الإقليمية أو امتيازات المركز الاجتماعى ضد الجنسيات الأخرى - الألمانى ضد البولنديين، والبولنديون والروس

ضد الأوكرانيين، والمجريون ضد السلوفاكيين، والفرنسيون ضد الجزائريين، والإنجليز ضد الأيرلنديين. هذه أمثلة قليلة نذكرها. وقد كتب «چون ستيوارت ميل» وهو ينظر إلى أوروبا سنة ١٨٤٨ في جريدة «وستمنستر» في أبريل سنة ١٨٤٩، أن القومية تجعل الناس لا يهتمون بحقوق أو مصالح «أي جزء من الجنس البشرى، فيما عدا ذلك الذى يطلق عليه نفس اسمهم ويتكلم نفس اللغة التى يتكلمونها هم أنفسهم». وكان يشكو من أنه «فى الأماكن المتخلفة فى أوروبا، وحتى فى ألمانيا (حيث كانت تتوقع أشياء أحسن) كان شعور الوطنية يغلب على حب الحرية إلى حد أن الناس على استعداد لمعاونة حكامهم فى سحق حرية واستقلال أى شعب آخر ليس من جنسهم أو لغتهم».

لم تتمم القومية كما تحققت فى كل أرجاء أوروبا فى القرن الذى تلا سنة ١٨٤٨ الآمال التى عبر عنها «جيفرسون» فى سنة ١٨٢٦ بوصفه أحد حكماء عصر الاستنارة. وكما تنبأ، ساعد «إعلان الاستقلال» الذى أعد مشروعه قبل ذلك بخمسين عامًا، على إشعال حركات الاستقلال فى كل أركان العالم - بسرعة فى بعضها - وفى غيرها بعد ذلك. ولكن فيها جميعًا فى النهاية - وألهم الشعوب لتسعى للحصول على مزايا الحكومة الذاتية. ولكن القومية الجديدة لم تكن تشبه النموذج الأنجلو - أمريكى. والقومية - ككل المشاعر الجماعية التاريخية كالدين مثلاً - لها مظاهرها الحسنة والسيئة - فالقوميات تختلف فيما بينها وفقًا للأفكار السياسية والتقاليد التى تتضمنها، والذكريات والآمال التى تستحضرها، ولموقفها إزاء جيرانها وإزاء المجتمع الدولى، ولدرجة تركيزها على نفسها ودعاواها فى التفرد. وقد حطمت القومية فى بدايتها أغلال التقاليد (ما سماه چيفرسون الاعتقاد بالخرافات)، كما حطمت نظامًا اجتماعيًا قديمًا مقيداً، وملأت قلوب أتباعها بشعور الكرامة الإنسانية، وبالفخر والرضا بالمشاركة فى صنع التاريخ وإدارة الإنسان شئون نفسه. وكان هذا الشعور بالتحرر يميز أوروبا فى أوائل القرن التاسع عشر بنفس الصورة التى تتميز بها اليوم آسيا وأفريقيا.

وللقومية جوانبها السيئة أيضًا. إنها يمكن أن تصبح مركزة على نفسها ولأنانيتها الجماعية تطبيقات أخطر بشكل لاحد له من الأنانية الفردية عمليًا ومعنويًا. فالقومية مجرد جزء من الإنسانية يميل، مع ذلك، فى عصر القومية، إلى اعتبار نفسه أنه الكل. والدين العالمى الذى يصر على وحدة الجنس البشرى ويضع الفرد فوق كل روابط الجنس والأصل، أو «الإنسانية العقلية» فى عصر الاستنارة الذى عاش فيه «چيفرسون» وبدأت فيه الثورة الفرنسية، يمكن أن تمنع القومية من أن تنحدر إلى مجرد المطالبة المستأثرة التى لا تعلوها مطالبة بولاء الإنسان، ولكن قومية لا يخفف من غلوائها النظر إلى القيم الإنسانية العليا وإلى حقوق الشعوب الأخرى، تصبح عقيمًا من الناحية المعنوية، وخطراً على الحرية المدنية والسلام من الناحية السياسية. ولا يبقى عندئذ

شيء سوى الأمة، التى أصبحت الشيء الوحيد بل وكل شيء، والموجه الأعلى لتصرف الرجل وتفكيره.

ومثل هذه القومية خصوصًا إذا كانت قائمة على وحدة الجنس أو الدين أو التفرد تنتج، إذا ملكت القوة العسكرية والروح العسكرية، تهديدًا خطيرًا لجيرانها، وتكون على كل حال مصدرا للانحلال الروحى لأعضائها ذاتها. والقومية التى تدعى السلطة بإرادة الله أو التاريخ، سواء عن طريق الدين أو أيديولوجية فكرية شبيهة بالدين، تؤدى إلى الافتراض الخطير لوضع الشعب «الفريد» الشعب المختار.

هناك فروق أخرى أبعد من ذلك مدى بين القوميات المختلفة، ففى دول شمال الأطلنطى، فى عصر الاستنارة، كانت القومية تفهم على العموم لا على أنها تقوم على الحتمية البيولوجية وإنما على الإرادة الحرة للأفراد؛ فكانت تميل إلى الاعتراف بالتعدد والتوفيق بين المصالح المختلفة أو المتنازعة، وتقاليد الأديان والأجناس. وكان الحال كذلك أيضا فى سويسرا. كانت القومية السويسرية كالقومية الأمريكية ترفض فكرة الجنس أو الأصل الواحد أساسًا للدولة، وهى تقوم، بدلاً من ذلك، على قرار روحى: على حق وحرية الشخصية الإنسانية للفرد، التى كانت تعتبر أكبر القوى الخلاقة فى المجالين الثقافى والأخلاقى.

والولايات المتحدة – مثل سويسرا ولكن بطريقة مختلفة جدا – لا تقيم قوميتها على الأصل المشترك أو الدين المشترك. كما أنها لا تعترف بالتعلق الرومانسى بالأرض كواحد من الأصول التى تقوم عليها. لقد أظهرت أمريكا الإنجليزية من أول الأمر حرية فريدة وتعددا طبيعيًا فى حياتها الدينية، مختلفة فى ذلك عن كل الدول الغربية الأخرى فى بداية القرن التاسع عشر. ولا يمكن مقارنة دين واحد بأمريكا، ولم يكن دين واحد هو الموصى برغبتها فى الاستقلال. وقد تأثر «جوتة» الشيخ وهو محّب متفان لأمريكا، تأثرًا عميقًا بهذا، كما تأثر بغيره من مظاهر قوة احتمال أمريكا.

وكتب «توجد فى نيويورك تسعون طائفة مسيحية مختلفة، تعبد كل منها إلهها وسيدها بطريقتها الخاصة دون أن تشعر بالانزعاج من هذه الحقيقة.. إننا يجب أن

نتقدم إلى حرية مماثلة فى العلم والبحوث. نحن نتحدث كثيراً عن التحررية، ومع ذلك، فكل منا يريد أن يمنع صاحبه من أن يفكر ويعبر عن نفسه بطريقته الخاصة».

إن الحركة الجغرافية والاجتماعية الفريدة والتجدد الدائم فى آفاق الحياة فى الولايات المتحدة قد حالت بينهم وبين التعلق العميق بالجذور وبالأرض وبتقديس الأسلاف الذى حوَّل القومية فى الأماكن الأخرى تحويلاً كبيراً إلى عقيدة «آلهة العالم السفلى». لقد كانت الدولة الأمريكية عند إنشائها تفتقر حتى إلى اسم يشير إلى إقليمها أو أسلافها. إن «أمريكا» أكثر من اسم لدولة إنه يعبر عن حوالى عشرين أمة من القطب إلى «كاب هورن»، و«الولايات المتحدة» أقل من اسم لدولة، فهو كشبيهه «الأمم المتحدة»، لم يوجد ليحدد أرضا قومية، وإنما ليحدد هدف الاتحاد لدى التعدد، والتوفيق بين المصالح المختلفة والمتنازعة بقوة فكرية.

وكان «الدم» ضئيلاً – كالأرض – فى تقوية رابطة القومية الأمريكية. وقد بدأت بوتقة الصهر عملها حتى قبل إقامة الولايات المتحدة. فقد كتب «جريفكبر» الرجل الفرنسى الذى عاش فى أمريكا الشمالية فى بنسلفانيا من سنة ١٧٥٩ إلى سنة ١٧٩٠ عن «ذلك الخليط من الدم الذى لن تجده فى أية أمة أخرى». ومنذ ذلك الوقت دخلت نسيج الدولة أكثر عوامل الجنس اختلافا، فغيرت من ظاهرها ولكنها لم تغير مادتها: لقد تسلمتها المادة الأم وهضمتها وحولتها.

لم يقم الأمريكان دولتهم على أساس من بعض المميزات الحيوية أو التقليدية الخاصة أو الممتازة وإنما على أساس فكرة عامة. لقد بدأوا بوصفهم ورثة وحماة التقليد الإنجليزى.. الحرية الفردية والحكومة النيابية. وكتب المؤرخ الأمريكى «كارل بيكر» «استوحت الثورة الأمريكية فى النظرية السياسية والعمل السياسى والكفاح البرلمانى الإنجليزى فى القرن السابع عشر. ولم تكن فلسفة الإعلان (إعلان الاستقلال) جديدة..، ولكنها التقليد الإنجليزى القديم الجيد شُكّلَ من جديد لمواجهة حاجة عاجلة فى الحاضر». ولكن الولايات المتحدة، لتصبح دولة بذاتها، كان عليها أن تفعل أكثر من ملاءمة التقليد الإنجليزى للحرية لمواجهة حاجة عاجلة خاصة. لقد عمم «الإعلان» ومن

ثم سما بالتقليد الإنجليزى للحرية الذى تطور من جذوره القديمة فى الثورتين الإنجليزيتين فى القرن السابع عشر.. إن ما كان ذات يوم حق المولد لكل إنجليزى أصبح فى أمريكا، بتأثير حركة الاستنارة فى القرن الثامن عشر. رسالة عالمية. وحقًا بالمولد لكل إنسان.

كان الأحرار الأمريكيون يعتبرون أساسًا أن الحرية التى بدأوا الحرب من أجلها تركة يريدون الحفاظ عليها، كما عبر عنها «چيمس أوتيس».. الدستور البريطانى، أكثر الدساتير حرية على وجه الأرض».. ولكن كفاحهم لم يحافظ عليها فحسب، ولكنه حولها إلى فكرة جديدة وضع مضمونها فى الدستور ووثيقة حقوقه، تلك الوثائق التى أظهرت، خلال قرنين من التغييرات الكبيرة، قوة نادرة على البقاء والحيوية.

والدستور الذى تبنته الأمة الصغيرة فى سنة ١٧٨٩ هو أقدم الدساتير القائمة. وقد ظل طوال هذه المدة كلها الرمز الأسمى والتعبير الواضح للفكرة الأمريكية، التى أصبحت – وهى من جذور إنجليزية – فكرة عالمية من حيث المبدأ. وهذه الفكرة التى وضعت نظريا لكل من يرغب فى قبولها، أثبتت أن لها قوة تمثيل فريدة: كانت الولايات المتحدة هى الأمة الوحيدة التى لعبت فيها الهجرة على مستوى كبير دورا حاسمًا والتى تحول منها باختيارهم ملايين من المهاجرين من أكثر ألوان الماضى وأنواع الولاء القومى تباينًا إلى تقليد وحضارة قومية لم يكن لها فى كثير من الحالات جذور مشتركة مع تقاليدهم.

ويشير الطابع التحررى والعالمى للقومية الأمريكية إلى أنها قد تكون ممثلة لأحد احتمالات التطور الممكنة للقومية. وعنصر آخر كان يميز القومية الأمريكية منذ البداية هو طابعها الاتحادى.

ففى وقت إنشاء الجمهورية وفى العقود الأولى من القرن التاسع عشر كان كثيرًا ما يفترض – بين كثيرين مع روسو – أن الدول الصغيرة وحدها هى التى يمكن أن تكون جمهوريات ديموقراطية. وأن الأقاليم الواسعة بما يصاحبها من تعدد الشعوب لا يمكن أن تتطور بطريقة سليمة إلا بالنظام الملكى أو الأرستقراطى. والاتحادى ،

من البلدية فصاعدا، تشير إلى الطريق للتوفيق بين الحرية والنظام، وبين التعدد والوحدة. ومن ناحية أخرى رأى «توكفيل» فى الدستور الاتحادى خير حارس لتلافى أو تخفيف الطغيان الذى مارسه الأغلبية فى الدول الديموقراطية. وخلال الحكومة الذاتية المحلية التى يتضمنها النظام الاتحادى، يستطيع الناس حتى فى الدول الكبيرة جدا أن يكسبوا الخبرة، وأن يستوحوا الشعور الذى هم فى حاجة إليه لكى يحكموا حكما صالحًا. وفى الولايات المتحدة «لم يهدم الدستور فردية الولايات، وكل المجتمعات - أيا كانت طبيعتها - تدفع بغريزة خفية نحو الاستقلال».

كان الأمر مختلفًا فى الدول المركزية فى أوروبا. ولم يكن «توكفيل» يتوقع منها أن تقلد النظم الأمريكية، «لأننى أدرك جيداً تأثير طبيعة الدولة وسوابقها السياسية على دستورها السياسى، وكنت أعتبره حظًا سيئًا للغاية لو أن الحرية وجدت فى كل أنحاء العالم بنفس الملامح. ولكن الرأى عندى، أننا إذا لم ننجح فى إدخال النظم الديموقراطية تدريجيا فى فرنسا، وإذا يئسنا من أن نعطى كل المواطنين تلك الأفكار التى تهيئهم أولا للحرية ثم تسمح لهم بعد ذلك بالتمتع بها، فلن يكون ثمة استقلال على الإطلاق للطبقة الوسطى أو النبلاء.. للفقراء أو الأغنياء، بل طغيان على الجميع على السواء، وأنا أرى أنه إذا لم تقم بيننا سيادة الأغلبية فى الوقت المناسب «فسنقع إن عاجلا أو آجلا تحت السلطة غير المحددة لرجل واحد». وفى المائة والثلاثين عامًا التى أعقبت كتابة «توكفيل» لهذه السطور، كثيراً ما هددت القومية الفرنسية بالخضوع لهذا الخطر الذى تنبأ به، ولكن الروح التحررية لعام ١٧٨٩ كانت إلى ذلك الحين تعيد تأكيد ذاتها دائمًا؛ ولكن فى الناحية الأخرى كانت تقاليد الحرية فى ألمانيا وروسيا من الضعف بحيث لم تستطع أن تمنع انحلال القومية هناك إلى حكم مطلق أوضح كلمات توكفيل «إذا أعيدت السلطة المطلقة بين الدول الديموقراطية فى أوروبا، فأنا مقتنع بأنها ستتخذ شكلاً جديداً، وستبدو فى ملامح لم يعرفها آباؤنا».

تنظر أشكال أخرى من القومية، فوق كل شيء، إلى الأصل والماضي. وغالبًا ما تقوم هذه القوميات في تقليد «العهد القديم» على دعاوى تاريخية تقدس وتمجد ارتكانا إلى خطط إلهية أو وعود بذلها القدر التاريخي. والاعتقاد بأن شعبًا قد اختاره الله أو التاريخ بلغ أحيانًا، في العصور القديمة ومرة أخرى في العصر الحديث، إلى الاندماج في عقيدة حيوية في قيمة الأصل المشترك ونقاء السلالة، وفي أن العقيدة الحقة والمدنية الحقة تستقر في شعب من «بذرة» واحدة أو «دم» واحد. ومفهوم أن يشكر مثل هذا الشعب الله على اصطفائه بهذه الطريقة، وأن يمثل إلى اعتبار نفسه ممثلا لنوع خاص نبيل. وفي سنة ١٨٥٣ عرف الكونت «أرثر دجينبوا» هذا الجنس النبيل بأنه الألمان أو الآريون، وأعلن أن نقاء السلالة يضمن خلود الشعب، بينما يؤدي التزاوج إلى الانحلال ويحمل معه بذرة الفناء. والحضارة الحقة لا توجد – وفقًا لرأيه – إلا حيث يسود الجنس الآري. ومن ناحية أخرى، عندما ينعدم الدم الآري، يحل الجمود على الفور.

وقد وجدت نظرية «جوبينو» أنصارا قلائل في فرنسا. أما كبار المؤرخين الفرنسيين مثل ميشيليه ورينان فقد أكدوا أن اختلاط الأجناس وتزاوجها هو الأساس الخصب للقومية الفرنسية بل هو الأساس الذي لا يمكن الاستغناء عنه للسياسة التحررية. وفي سنة ١٨٦٣ بعد نشر نظرية جوبينو بعشر سنوات، كتب لويس چولي في «مبادئ القوميات»: «إن الاهتمام بالأسلاف يتعارض مع مبادئ سنة ١٧٨٩».. إن فكرة مجتمع الرجال الذي لا يقوم على المودات والأحقاد الناجمة عن الأصل المشترك أسمى من فكرة المجتمع القائم على الاعتراف بهذه المودات والأحقاد. وامتزاج الأجناس، كما حدث في فرنسا، وبريطانيا والولايات المتحدة من أعظم العوامل نفعًا في التاريخ. والقوى المتقدمة في العالم هي تلك التي اختفت فيها الجنسيات والأجناس المتعددة التي دخلت في تكوينها على قدر الإمكان ولم تترك إلا آثارًا قليلة».

وقد رفض «توكڤيل»، وهو صديق شخصي لجوبينو رفضًا تامًا، نظرية الأجناس بوصفها «قدرية» (الأصل هو الذي يقرر مصير الإنسان) و«مادية» (المصير يتوقف على

عوامل تتعلق بوظائف الأعضاء). ولكن هذا الاعتراض الأساسى كان أدبيًا وتاريخيًا. «ألا ترى أن نظريتك تتضمن كل الشرور الناجمة عن عدم المساواة الدائم: الغرور، العنف، وعدم احترام الآخرين، والاستهتار والاستبداد فى كل صورة من صوره؟.. لقد اخترت بالدقة ما كان يبدو لى دائمًا أنه أخطر رسالة فى عصرنا. (هذا أكثر انطباقا حتى على القرن العشرين منه على القرن التاسع عشر، د. هانز كوهن.)... لقد كان للقرن الماضى (الثامن عشر) ثقة كبيرة فيما كان مفترضا من تحكم الرجال والشعوب فى مصائرهم. لقد كان ذلك هو خطأ تلك الأوقات وهو يعد خطأ نبيلا، ولعله قد أدى إلى حماقات كثيرة، ولكنه أنتج أشياء عظيمة أيضًا، إذا قورنت بما سنبدو عليه من الضآلة فى أعين أعقابنا «إن الإرهاق الذى نتج عن الثورة، وضعف العواطف، وفشل كثير من الأفكار الكريمة وكثير من الآمال، قد قادتنا الآن إلى النهاية المضادة. فبعد أن كنا نشعر بالقدرة على تطوير أنفسنا، أصبحنا نشعر الآن بالعجز عن تثقيف نفوسنا». وكان توكڤيل يعتقد أن تأكيد جوبينو على الأصل والدم، والأشياء الموروثة قد قوى الميول المحافظة وأضعف الجيل الذى تواجهه مهام عظيمة من تعاون الجنس البشرى وتقدمه.

وقد تنبأ توكڤيل بأن أفكار جوبينو ستهبط على أرض خصبة فى ألمانيا «إن للألمان وحدهم فى أوروبا موهبة التأثر بما يأخذونه على أنه حقائق مجردة، دون اعتبار نتائجها العملية؛ وقد تجد فيهم المستمعين المؤيدين بإخلاص الذين ستحدث أفكارهم صداها فى فرنسا إن عاجلاً أو آجلاً، لأن العالم المنقسم قد أصبح اليوم واحدًا». وقد صحت نبوءة توكڤيل عن الألمان. وأصبح ريتشارد فاجنر التابع المعجب لجوبينو. بل إنه بالغ فى اعتقاد جوبينو بالقوة الخلاقة الفردية للجنس الألمانى.

كانت القومية فى العالم الغربى فى بداية أمرها، فى القرن الثامن عشر، ولعل ذلك حتى سنة ١٨٤٨، حركة خلاص.. خلاص من العالم المقفل فى الماضى، والأمل فى مستقبل مفتوح، يوجد فيه التسامح والتحررية.. الجماعات والطبقات والطوائف الدينية والعنصرية المتعددة التى كانت منفصلة فيما قبل. وبعد سنة ١٨٤٨ تركت سياسة التحررية فى أوروبا بشكل كبير. وأوقف الغرور التاريخى والقومية المبالغ فيها الشعوب ضد الشعوب. وكان الاعتزاز القومى لشعب بنفسه يثير ردود فعل مماثلة عند جيرانه.

ومنذ سنة ١٨٤٨، التى احتفى بها على أنها سنة الأمل والسلام، حتى سنة ١٩٤٥ تضاءلت الآمال «الطوبية» فى التعاون السلمى بين الأحرار، إلى تأكيد قومى للنفس «واقعى» على حساب الأمم الأخرى، وإلى استعداد للقتال. ولم تضعف أوروبا الحديثة والحضارة الغربية، لأن الأفكار التى أحيت نهوضها كانت خاطئة، ولكن لأن هذه الأفكار قد تركت أو أنكرت فى الأقوال وأكثر من ذلك فى الأعمال.

كان «چان چوريس» أحد الأوروبيين القلائل الذين قاوموا هذا التطور. وظل وفيا لتقاليد سنة ١٧٨٩، ١٨٤٨ بوصفه فيلسوفا ومؤرخا وصحفيا وزعيما اشتراكيا. ولم يكن ضيق النظرة ولا جامد الفكر. وكان يميزه أنه كان يرى «العالم نزوعا هائلاً غامضًا نحو النظام، والجمال، والحرية» وأنه كان يطلق على الصحيفة اليومية التى أنشأها فى سنة ١٩٠٤ اسم «الإنسانية» كما أنه وقع فريسة العواطف التى قادت أوروبا إلى هاوية الحرب. فقد قتله أحد القومبين فى ٣١ يوليو سنة ١٩١٤ . وقد حطمت حياته وآماله، العقلية التى حذر منها خلال سنى نضجه. ففى فترة الهدوء المؤقت للتوتر الدولى، التى ختمت الأزمة المراكشية الثانية بين ألمانيا وفرنسا فى نهاية سنة ١٩١١ طلب فى خطاب له فى الجمعية النيابية فى ٢٠ ديسمبر أن تتخذ فرنسا سياسة كريمة واسعة لا لصالح المراكشيين فحسب، بل فى صالح كل الأمم التى تقاوم مغريات القومية. «نحن نعيش محوطين بجو من الشك والتحدى، يبدو لى أن سحب الحرب قد تهبط علينا منه فى أية لحظة. ويجب على مدى مسئوليتنا، مسئولية شعب عظيم، أن نبدد هذا الجو من التحدى وأن نحارب أسباب الخطر المتجدد للحرب. إن أول واجباتنا أن نرفض التشاؤمية والقدرية لأولئك الذين يقولون بحتمية الحرب».

ويستطر د. چوريس: «إن جيوش الوقت الحاضر تمثل شعوبًا كاملة، كما كان الحال أيام البربرية الأولى، ولكنها تطلق فى هذه المرة وسط كل تعقيد الحضارة الإنسانية وثروتها فستستعمل كل من هذه الدول آلات الدمار الرهيب التى أوجدها العلم الحديث. لا تتصوروا أنها ستكون حربا قصيرة، تتكون من قليل من هزيم الرعد ولمع البرق... إن هذا المنظر سيهز كل المشاعر الإنسانية». وكان چوريس بوصفه اشتراكيًا، يدعو إلى تطور تدريجى للمجتمع نحو عدالة اجتماعية أكبر، وقد أنذر أن الحرب ستطلق الأحقاد

«التى صاحبت كل الحركات الكبرى للإصلاح الاجتماعى على مجال التاريخ. وفى حمى الحرب تثور عواطف الإصلاح الاجتماعى لتصبح هجومًا وحشيًا عنيفًا». لذلك يجب أن يرغب المحافظون فى السلم، لأنه إذا كسر السلم فى العصر الحديث فستنطلق قوى الفوضى من عقالها.

ويثق چوريس بثلاث قوى نشيطة «تعمل من أجل السلام اليوم». وكان واضحًا أن أولها هو التنظيم الدولى للطبقة العاملة. وكانت الثانية هى تعاون الرأسمالية الصناعية والمالية عبر الحدود القومية. «هذه هى بداية اتحاد الرأسمالية، الذى يمكن أن يكون خطيرًا... إذا لم يحكمه الرأى العام أو الحكومات المستقلة. فإذا حكمته الدول الكبرى الفخورة ونورته وراقبته، أمكن أن يساعد على تحقيق السلام فى العالم فى أوقات عدم الاستقرار».

وهذا التقدير للرأسمالية الدولية من زعيم اشتراكى يثبت استقلال تفكيره واتساع أفقه. والقوة الثالثة التى وجد چوريس أنها تعمل للسلام أكثر إثارة للعجب، «أمريكا الأنجلو - سكسونية، التى ولدت من جديد من المثل العليا التطهرية القديمة. ياسادة، إننا لا نعرف الشعب الأمريكى العظيم أو الضمير الأمريكى. إننا نرى فقط عقليتهم الدولارية، إننا نرى فقط رجالا استحوذت على ذهنهم الملايين، والعمل، والذهب. هناك علامات تشير إلى أن الأمريكيين قد تخطوا أزمتهم... لذلك نجد فى أمريكا إحياء للمثالية ولكنه ليس ظاهرة سطحية فحسب، لأنه يضرب بجذوره تحت أرض عصر الدولار والمرحلة التجارية المادية ليجد روح أمريكا التطهرية التى تنبت جذورها من حماسة الأنبياء الأنجيليين، والتى حلمت، على طريقتها، بمجتمع حر عادل.... فإذا بلغ الحمق بأوروبا أن تنقسم غدًا وتمزق نفسها فستخجلها هذه المثالية الأمريكية المستنيرة بمقترحاتها للتحكيم».

اتجهت القومية الفرنسية، بعد سقوط إمبراطورية نابليون، ضد انجلترا، وطالبت بثأر واترلو. وعندما طاف ميشيليه بانجلترا فى سنة ١٨٣٤، أغضبه غضبًا عميقًا أن يرى أن سقوط انجلترا، الذى تنبأ به ورغب فيه، قد لا يحدث. وأزعجته كل آثار لندن

بإعادتها وأنزلو واترلو دائمًا». وكان ميشيليه مقتنعًا بأن انجلترا «وهى تخفى مصالحها غير الكريمة بمظاهر سياسية تصوغها فى لغة زائفة لا تؤمن بها هى نفسها، كانت تعمل منذ زمن طويل على خراب فرنسا، مستعملة فى القرن الثامن عشر عباقرة فرنسا - فولتير، ومونتسكيو وميرابو - لتخدعها... وكان يتعجب قائلاً «يالها من وقاحة غريبة متقلبة! أن ترغب فى أن تحكم بالإكراه دولة تأسر العالم، رغم حكومتها التافهة، بقوة فكرها!... كنت أحب أن أرى فكرة إنجليزية! فكرة أخلاقية عظيمة مثمرة! لم يكن لدى انجلترا، ولن يكون لها أبدا رجل أخلاق أو مشرع عظيم».

ومع ذلك كان هناك اعتراف ناقد لذاته بالقوة الكبيرة للحرية الإنجليزية والنضج السياسى الإنجليزى. فقد اقترح «سان سيمون»، بعد سقوط إمبراطورية نابليون، فى بحث عن إعادة تنظيم المجتمع الأوروبى» أن تتحد بريطانيا وفرنسا لحفظ السلام وحماية الحرية، ولتكونا نواة الاتحاد الأوروبى بوصفهما الدولتين. البرلمانيتين الحرتين القائدتين. وكان يطالب ببرلمان إنجليزى - فرنسى، ثلث أعضائه من الإنجليز والثلثان من الفرنسيين.. لأن الفرنسيين فى حاجة إلى «القيادة الإنجليزية المجربة». كانت فرنسا فى حاجة إلى العون الإنجليزى، لأنها كانت مقدمة على حكومة برلمانية وتواجه تهديدات محلية بالحكم الاستبدادى من ناحية وبحرية وعناء من ناحية أخرى وبعد أكثر من نصف قرن، دعا «رينان» لاتحاد وثيق بين إنجلترا وفرنسا وألمانيا؛ يمكنه وحده أن يضم روسيا إلى أوروبا ويخفف من عسكرية بروسيا لصالح الألمان. «لتأخذ بروسيا حذرها. إن سياستها الشاذة يمكن أن تشغلها فى سلسلة من التعقيدات لن يسهل عليها تخليص نفسها منها ويمكن للنظرة الثاقبة أن نرى تكوين تجمعات المستقبل؛ وسيقول أصدقاء بروسيا الحكماء لها لا على سبيل التهديد ولكن على سبيل التحذير «الويل للمنتصرين».

بينما كانت القومية الألمانية ضد فرنسا منذ نشأتها فى سنة ١٨٠٦، فإن القومية الفرنسية لم تعاد ألمانيا.. إلا بعد سنة ١٨٧٠ . وكانت مدفوعة بكراهيتها للعنف الذى عامل الألمان به الألزاس استناداً إلى الحقوق التاريخية ومن أجل جمع الألمان جميعا فى الدولة الوطنية الألمانية. وهذا التوتر الفرنسى - الألمانى.. الذى حول أوروبا،

بعد انتصار بيسمارك.. إلى معسكر مسلح، كأن يكون أيضا جزءا من النضال للصدارة في حكم أوروبا، وروسيا تحوم حرة في الصورة الخلفية. وقد خضع الفرنسيون في الثورة وتحت حكم نابليون لاستهتار الزعامة، وأثاروا التجمعات ضدها، وفي سنة ١٨٧١ رأى رينان مستقبلاً مماثلاً لألمانيا. وقد دعا الدولتين للكف عن هذا النضال منذراً بأن الحقوق الإقليمية القائمة على التاريخ القويم، أو روابط الجنس قد تدمر ألمانيا نهائيا «لقد أقمتم في العالم لواء لسياسة الأجناس والحفريات بدلاً من السياسة التحررية؛ وستقضي هذه السياسة عليكم... كيف يمكنكم أن تصدقوا أن السلافيين لن يفعلوا بكم ما تفعلونه بالآخرين؟». إن الدعاوى الألمانية في سنة ١٨٧١، والدعاوى السلافية سنة ١٩٤٥ تهمل حقوق الشعوب القائمة باسم الحقوق التاريخية. وقد حذر رينان الألمان في سنة ١٨٧١ «كم كان أفضل لكم لو أنكم احتفظتم لهذا اليوم (الذي تنبأ بقدومه) بحق الاحتكام إلى العقل، والأخلاق، والصداقات القائمة على المبادىء المشتركة». ومن أجل هذه المبادىء أراد رينان أن يوجد بريطانيا الحرة، وفرنسا الحرة، وألمانيا الحرة. «لننهض معا جميعا ونواجه المشاكل الكبرى، مشاكل إيجاد تنظيم عقلي للجنس البشري يكون عادلا بالقدر الممكن للبشر».

لم تكن القومية المغالية والعسكرية وقفًا على ألمانيا وفرنسا. إنها كانت نعم كل دول أوروبا تقريبًا. ويبدو الأمر غريبًا للمؤرخ حين يسمع الأوروبيين يشكون من «عدم نضج» و«تطرف» القومية فى أفريقيا أو آسيا اليوم. فليس هناك إلا القليل مما يوجد فى القومية أو الآسيوية الأفريقية اليوم، لم يكن له نظير قريب. أو تتجاوزه حالات الأوروبيين فى القرن التاسع عشر أو أوائل القرن العشرين. فالكراهية للبريطانيين فى أيرلندا والأشكال العنيفة للتعبير عنها، أو كراهية الهابسبرج بين التشيك تساوى على الأقل الكراهية المعادية للاستعمار التى توجد فى الأراضى غير الأوروبية. ولم تكن هذه العداوة المرة قاصرة على أمم من أجناس مختلفة الأصل أو تتكلم لغات مختلفة. فالصرب والبلغار - وكلاهما شعب سلافى الأصل. ويونانى أو أورثوذكسى العقيدة، ولها تاريخ طويل مشترك فى الخضوع للحكم التركى - واجه كل منهما الآخر أثناء وجودهما كدولتين مستقلتين حديثتين فى عداوة راسخة ودخلا فى حروب عديدة على الحدود وعلى إقليم مقدونيا الذى يدعى عليه كلاما حقوقًا تاريخية. وكان الروس والبولنديون السلافيون أعداء لمدة ثلاثمائة سنة. ولم يتحدا إلا فى الضغط على شعب سلافى ثالث، هم الأوكرانيون.

وكان التحررى الروسى العظيم، ألكسندرهرزن، يدعو، من منفاه فى لندن مع المنفيين البولنديين، كما دعا مع زملائه الروس، إلى الاعتراف بحق الأوكرانيين فى الحرية. وقد كتب فى سنة ١٨٥٩ يقول «إذا كان الأوكرانيون يستعيدون من ناحية، ذكرى الاستعباد الروسى، ورقّ الأرض، والتجنيد، وانعدام الحقوق، والفساد والجلد؛ وإذا كانوا لا ينسون، من جهة أخرى، كيف كانت تجرى أمورهم تحت حكم بولندا بجنودها. وسادتها وموظفى التاج بها، فماذا إذن، فى أنهم لا يريدون أن يكونوا بولنديين أو روس. وفى رأيى أن هذه المسألة يمكن حلها بسهولة.. يجب الاعتراف بأوكرانيا دولة حرة مستقلة. وفيما بيننا نحن المنفيِين... لا يمكن أن يكون، ويجب ألا يكون أى خلاف حول ملكية أية أرض فيها سكانها. إن فى أوكرانيا بشرا يعيشون... لم تحطمهم تمامًا حكومتهم أو ملاك أرضهم حتى يفقدوا مشاعرهم بعد أن تفك أغلالهم الروسية،

أن يقال لهم يجب أن تتبعوا بولندا؟ دعونا نمد أيدينا إلى أيديهم ونطلق ألسنتهم حتى يكون كلامهم حرا كله، وحتى يقولوا ما فى أذهانهم... وإذا كانوا حكماء فسيقدمون لنا أيديهم إخوة حلفاء، مستقلين عنا جميعا».

كتب هرزن هذا الكلام منذ قرن، وبعد انقضاء نصف قرن، وبعد الحرب العالمية الأولى وسقوط الإمبراطورية الروسية، بقى الأوكرانيون محرومين من حرية تقرير مصيرهم.

وظلوا مقسمين وخاضعين لأمم «أعلى تطورا وأكثر وعيا قوميا» - الروس والألمان فوق كل شيء. والتشيك والرومانيون أيضًا. وقد منحوا شيئًا من الحكم الذاتى داخل الاتحاد الاشتراكى للجمهوريات السوفيتية، الذى تحولت إليه الإمبراطورية الروسية. والذى اتحدوا فيه جميعًا بعد الحرب العالمية الثانية، ولكن البولنديين أنكروا الحكم الذاتى على الأوكرانيين الكثيرين عندهم مع نمو وعيهم القومى بفضل توطنهم السابق فى أوستريا، وهو الحكم الذاتى الذى وعدتهم به القوات المتحالفة المنتصرة فى سنة ١٩١٩، بل إن الإدارة البولندية قد رفضت أن تطبق عليهم أتفه حقوق الأقليات فى أن يستعملوا اللغة الأوكرانية وهو الحق الذى منحه لهم «مجلس الحكم» البولندى فى سنة ١٩٢٤ .

وبدلا من سياسة ملك أوستريا التحررية المتبعة للقانون نسبيًا، تلك السياسة التى كانت تنمو فى الأجزاء غير المجرية من إمبراطورية هابسبرج بعد سنة ١٨٦٧، حلت فى معظم الدول التى انبثقت عن الحرب العالمية الأولى سياسة قومية غير تحررية. وضعت فيها قوة الدولة، باسم القومية فى خدمة جماعية الجنس السائد. وبدلا من الدول المزدوجة القومية أو الدول الدستورية المتعددة الأجناس، أعلن المثل الأعلى للدولة القومية البحتة، فيجب أن تكون بولندا بولندية، ورومانيا رومانية. مثلما كانت فرنسا فرنسية. وهذه المحاولة لتطبيق مفاهيم أوروبا الغربية على وسط أوروبا الشرقية وأوروبا الجنوبية، حيث توجد ظروف خاصة بالأجناس مختلفة، تاريخيًا واجتماعيًا هى التى أضعفت فى كل هذه المنطقة وعد الديمقراطية الذى كان يبدو أن انتصار سنة ١٩١٨ يحمله.

وقد أنقذ انتصار سنة ١٩١٨ الذى كاد ألا يكون متوقعًا والذى أحرزته الجهود المتحدة مؤقتًا وظاهريا لبريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة، نظام لينين فى روسيا من فرض معاهدة برست - ليتوفسك ومن امتداد الانتصارات الألمانية شرقا، لقد وعد هذا النصر أوروبا الوسطى - الشرقية والجنوبية - من ألمانيا إلى بلغاريا، ومن لاتفيا إلى رومانيا، ومن البرتغال وإسبانيا إلى اليونان، بعصر الديمقراطية، واحترام حرية الناس وكرامتهم من كل الطبقات، والجماعات المختلفة الجنس والدين، وبعصر القانون فى ظل حكومات نيابية، وقد بدا صلح سنة ١٩١٨، بهذا المعنى، انعكاسًا لصلح فينا سنة ١٨١٥ .

وكان المأمول أنه بمرور قرن تكون المواقف الأساسية لحضارة أوروبا الغربية قد طبقت ومدت جذورها فى أوروبا كلها. ولكن الحال لم تكن كذلك فكثيرا ما انتبذت باستعلاء تركة الإصلاحات الإنسانية وما أوصى به القرن الثامن عشر وصدر فى القرن التاسع عشر.

وبعد أقل من عشرين عامًا من نهاية الحرب العالمية الأولى، عمت الديكتاتوريات المستبدة أوروبا الجنوبية والوسطى والشرقية، ضد «الأستاد الجديد» فى ١٩ مارس سنة ١٩٣٢ تحت حكم أنطونيو دى أوليفيرا سالازار فى البرتغال، و«اليونان الثالثة» فى ٤ أغسطس ١٩٣٦ تحت حكم الجنرال جوان متاكساس إلى حكم كارليس أولمانيس الذى قام فى لاتفيا فى ١٦ مايو سنة ١٩٣٤ .

وانتصرت الفاشية فى كل مكان تقريبًا بوصفها نوعا من القومية المركزة على نفسها بشكل مبالغ فيه، وإن كانت تستخفى أحيانا فى أشكال أخرى. على أنه حتى إذا لم تحل الفاشية محل النظم الديمقراطية فقد حطمت الديمقراطية تصرف الحكومات على أنها ممثلة لجماعة الجنس المفضل أو لجماعة دينية أو لطبقة من أجل الإضرار بالآخرين وغالبًا تحقيرهم. وكانت القومية فى أوروبا الشمالية والغربية وفى أمريكا تعنى، نظريا على الأقل، تحرر كل الشعوب والجماعات بوصفهم شركاء متساوين فى دولة مشتركة ولكنها فى انتشارها فى الأجزاء الأخرى من أوروبا كثيرًا ما امتهنت إلى

وسيلة لسيادة جنسية واحدة على الجنسيات الأخرى، التى كانت تعتبر من غير الجنسية التى تملك الدولة. وحين كانوا هم أنفسهم «محكومين» حكما قهريا، كانوا جميعا يدعون إلى الحق «الطبيعى» للقومية فى حرية تقرير المصير. وكانوا يعلنون أنهم بعد حصولهم على أهدافهم القومية لن يفعلوا بالآخرين ما كانوا يرفضونه بشدة مريرة عند وقوعه عليهم. وثبت أن الحقيقة تكون دائمًا تقريبًا مختلفة. فالمغلوبون على أمرهم أصبحوا فى بعض الأحيان أسوأ فى الحكم، لا لمن سبق أن حكموهم، بل لشعب ثالث برىء. وكان من السهل إيجاد عذر تاريخى لهم يؤيده المدرسون ويمجدهم الشعراء. والاعتراف بالسمو بين كل الأحياء وحقهم فى الحرية، الذى وعدت به الثورة الديمقراطية فى دول الأطلنطى فى نهاية القرن الثامن عشر، كان رفضه فى العمل أكثر من رفضه فى القول وأصبحت القومية مطلبا مركزا على نفسه لتحرير النفس، لا وعدا بالتحرير الشامل.

ولم يظهر بوضوح هذا التغيير الأساسى فى مزاج القومية حتى فى بداية القرن العشرين. وكان تيودور روزفلت يعتقد اعتقاداً جازما بأن «أوروبا يجب إعادة بنائها على أساس مبدأ الجنسيات». وكان يتوقع من ذلك قدوم عصر من السلام. «يجب تصفية إمبراطورية أوستريا – هنجاريا والإمبراطورية التركية – إذا انتوينا أن نجعل العالم آمنا، ولو بشكل متوسط للديمقراطية»، هذه كلمات كتبها ولعل كثيراً من القراء يرجح نسبتها إلى ويدرو ويلسون على نسبتها إلى خلفه ومعارضه العظيم. «يجب أن تعود بولندا إلى الحياة. لتضم إليها جميع البولنديين فى أوستريا وبروسيا وروسيا؛ وأن تعود بوهيميا أكبر، لتضم إليهم مورافيا والسلوفاك، وأن توجد أمة من اليوجوسلافيين تشمل صربيا وكرواتيا والبوسنة والهرسك، بينما يصبح الرومانيون فى المجر جزءا من رومانيا، والإيطاليون فى أوستريا جزءا من إيطاليا. ويجب طرد تركيا من أوروبا ونحرر المسيحيين والعرب. هكذا فقط نستطيع أن نحقق العدالة للشعوب التى تعرضت لطغيان الألمان والمجريين والأتراك. وهكذا فقط نستطيع أن نزيل تهديد العدوان الألمانى الذى أصبح الكابوس الذى يطارد كل الحضارات، وعلى الخصوص فى حالة الشعوب الصغيرة الحسنة السلوك المحبة للحرية».

كان روزفلت المتفائل النموذجى فى القرن التاسع عشر الماضى، يرى جانبا واحدا من الصورة. إنه لم يدرك أنه سيكون من الصعب التوفيق بين أمانى الإيطاليين واليوجوسلافيين، وأن أراضى العرب الذين تحرروا من الأتراك ستقسم بين بريطانيا وفرنسا واليهود؛ وأن الشعوب الصغيرة تحب الحرية لنفسها أكثر منها لجيرانها، وأن المؤكد أنهم لم يكونوا حسنى السلوك. ولم يزل تهديد العدوان الألمانى (والروسى) بل زاد نتيجة تصفية أوستريا وإنشاء دول جديدة كثيرة متحاسدة ومركزة على نفسها بين الدولتين العملاقتين. وبعد خمسة عشر عاما عاد العدوان الألمانى (والروسى) بصورة أضخم، كما كان فى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين الكابوس المطارد. ولم تجلب حرب سنة ١٩١٤ . ولا حتى انتصار الديمقراطية الغربية، السلام، ولم تحقق بقاء الحضارة الغربية. بل على العكس، قللت الحرب وما نتج عنها الثقة فى مستقبل الديمقراطية وحطمتها، لا فى الدول المهزومة والدول الجديدة فحسب، بل حتى بين صفوف الأمم المنتصرة نفسها. والديمقراطية التى كانت آخذة فى النمو منذ القرن الثامن عشر والتى بدا أنها بلغت ذروة موجتها فى سنة ١٩١٨، وجدت نفسها بعد ذلك بعشرين سنة تنحدر بسرعة إلى الوراء. ومن ثم فإن أسئلة كثيرة أخذت تراود الناس عما إذا كانت الحضارة الغربية ستستطيع الاستمرار فى البقاء.

الجـــزء الثـــانى

دور الحـضـارة الـغـربـيـة

حـلـف شـمـال الأطـلـنـطـى

«أنا نفسي بحكم ميلي باحث وراء الحقيقة، وأحس بتعطش شديد للمعرفة وحماسة لا تستقر للتقدم فيها، كما أشعر بالرضا عن كل خطوة إلى الأمام. وجاء وقت كنت أعتقد فيه أن هذا وحده هو شرف الإنسان، وكنت أحتقر الرجل العادى الذى لا يعرف شيئًا. ثم أعادنى روسو إلى صوابى. وانتهى هذا التسليم الأعمى، وتعلمت أن أحترم الطبيعة البشرية، ويجب أن أعتبر نفسى أقل نفعًا بكثير من الرجل العامل، إذا لم أعتقد أن هذا الرأى سيعطى قيمة لجميع الآخرين لتأكيد حقوق الإنسان».

إيمانويل كانت

- ١ -

تختلف الحضارة الغربية الحديثة عن طرق الحياة الدجماطيقية والتحكمية القديمة والمعاصرة - بالمعنى الواسع للكلمة الذى يشمل الأديان، والفكر والمنشآت الاجتماعية السياسية - فى طريقة تناولها النقدية والعملية. فكل الحضارات الأخرى كانت تضغط لتحقيق التماثل، وتدعو أتباعها أو تجبرهم على اتباع طريق واحدة للحياة لا ثانى له، هو الطريق الوحيد للخلاص. أما الحضارة الغربية، فهى فى الناحية الأخرى، تؤكد التعدد، أو لننقل نص (تاريخ حياة جون ستيوارت ميل)، «الأهمية بالنسبة للإنسان وللمجتمع... فى إعطاء الحرية الكاملة للطبيعة البشرية لتمتد فى اتجاهات مختلفة ولا حصر لها».

والحضارة الغربية الحديثة لا تشبه تماماً الحضارة اليونانية - الرومانية، ولا التقليد الأوروبى أو الشرقى. وقد نشأت الحضارة الغربية الحديثة فى أوروبا الشمالية الغربية فى القرنين السابع عشر والثامن عشر. وكانت حضارة جديدة وثورية، تقوم على الاعتقاد بالحقوق المتساوية للجميع، دون النظر إلى الدين، أو الأصل أو الطبقة؛ وعلى احترام كرامة وإنسانية كل فرد؛ وعلى الحق فى المعارضة والنقد الفكرى والسياسى. ومثل هذه الظروف لم تكن موجودة فى اليونان أو روما، فى اليهودية أو المسيحية. أو فى أية دولة أوروبية قبل القرن الثامن عشر.

وعلى الرغم من أن الحضارة الحديثة نشأت فى أوروبا الشمالية - الغربية. فلا يمكن تعريفها بطريقة جغرافية. إن (أوروبا) اصطلاح جغرافى، وليست وحدة ثقافية. وعلى مجال التاريخ، من العصور القديمة إلى الوقت الحاضر كان التناسق الثقافى يتغير. وبعض نواحى أوروبا لم تقبل الحضارة الغربية الحديثة، أو هى لا تقبلها فى الوقت الحاضر. وفى باكورة ربيع سنة ١٩٤١، كان الجزء الأكبر من أوروبا تحت حكم الديكتاتوريات. التى كان تحالفها الوثيق واضحا، لستالين وهتلر وموسولينى وفرانكو، يجرى الحرب

سراً على الحضارة الغربية الحديثة وأفكارها الأساسية، كما أن الحضارة الغربية الحديثة لا تشبه التراث اليونانى والرومانى. فخلال قرون كثيرة كانت بيزنطة والإسلام تحتفظان بهذا التراث وتطورانه أكثر من الغرب. كما لا يمكن أيضا تشبيه الحضارة الحديثة بالمسيحية التى هى دين عالمى لكل الناس وكل الحضارات. وهناك مجتمعات مسيحية قديمة الأصل جدا كالأثيوبيين، لا تكون جزءا من الحضارة الحديثة، تلك الحضارة التى ترفضها بشدة روسيا المسيحية العميقة الأرثوذكسية وإسبانيا المسيحية العميقة الكاثوليكية.

وأعداء الحضارة الغربية فى العصور الحديثة يعتبرونها «قديمة» أو «منقرضة» وقد اتفق فى ذلك الروس السلافيون والروس والماركسيون. وأوزوالد شبنجلرو الفاشستى: ولكننا إذا نظرنا إلى الحضارة الغربية نظرة تاريخية محققة، بالاصطلاح المستعمل هنا، فلن نجد أنها شابة فحسب، بل تتمتع أيضا بحيوية وديناميكية ليست لأية حضارة سابقة.

والحضارة الشرقية للمسيحية الرومانية فى العصور الوسطى، كانت تتصل تاريخيا بالحضارة اليونانية - الرومانية القديمة، وكانت مع ذلك تختلف عنها اختلافا أساسيا وبنفس الطريقة فإن الحضارة الحديثة، وهى التى نشأت ونمت من تلك الحضارة التى تطورت من وقت شارلمان إلى القرن السابع عشر تختلف عن تلك الحضارة مثلما كانت تختلف هذه الحضارة الأخيرة عن أثينا بريكليس أو روما أوغسطين. والحضارتان القديمتان.. اليونانية - والرومانية والمسيحية الغربية أو اللاتينية، كانت كلتاهما تقومان على البحر الأبيض المتوسط. وانتقل مركز الثقل فى بطء بين القرنين الخامس عشر والسابع عشر من هناك إلى شمال الأطلنطى، وفى الفترة من سنة ١٤٧٠ إلى سنة ١٥٠٠ طبع حوالى ١٠,٠٠٠ كتاب فى أوروبا. طبع حوالى نصفها فى إيطاليا، ٢٨٣٥ - فى فينا وحدها - بينما طبع فى نفس الثلاثين عامًا ١٣٠ كتابا فى لندن و٧ فى أكسفورد، وحوالى سنة ١٥٠٠ اكتشف الأوروبيون الأرض، الخطوة الأولى نحو العصر العالمى الحاضر. وأخذ البرتغاليون والإسبان القيادة فى هذا المشروع العظيم. وبدا لفترة قصيرة كما لو كان الأطلنطى الجنوبى سيأخذ مكانا حاسما فى مرحلة جديدة من الحضارة المسيحية فى العصور الوسطى. ولكن البرتغال وإسبانيا انتهتا بسرعة.

ونظراً لعمق اتصالهما بالماضى، فقد فقدا الاتصال بعالم الفكر والعمل الجديد الذى نشأ بعد قرن من الزمان حول شمال الأطلنطى. وقد ظلت إسبانيا والبرتغال حتى اليوم دولتين «متخلفتين»، وهو مفهوم حديث لم يصبح صحيحًا إلا بديناميكية وثورية الابتداع الذى أدخلته حضارة شمال الأطلنطى.

فى سنة ١٥١٩ أصبح شارل ملك إسبانيا، إمبراطوراً رومانيا وفى خدمته خرج فرديناند ماجلان فى أول رحلة بحرية حول الأرض. وفى سنة ١٥٧١ هزم الأسطول الإسبانى الأسطول العربى الذى ظلت أوروبا المسيحية لأكثر من تسعمائة سنة تنازعه حكم البحر الأبيض المتوسط. وكانت إسبانيا فى ذلك القرن، قرنها الذهبى، بطلة وحدة الكنيسة فى العصور الوسطى، وفكرة الإمبراطورية الرومانية. ولكن فى عشرات السنين التالية، أصبحت إنجلترا التى كانت كإسبانيا دولة على حدود أوروبا، وحتى أشد فقرا وتأخرا منها، هى وهولندا مقر الثورات الفكرية والسياسية التى بدأت بها الحضارة الحديثة. ومن هناك سعت إلى أمريكا الشمالية وإلى أوروبا وتحددت صحوة إنجلترا فجر عصر شمال الأطلنطى. وبدأت مرحلة جديدة فى التاريخ أصبحت خلال قرنين أول عصر عالمى يوحد البشرية كلها فى حياة اجتماعية وخصوبة متبادلة.

تمثل الحضارة الحديثة التى نشأت فى إنجلترا وهولندا فى القرن السابع عشر أعظم ثورة عامة فى ظروف الحياة البشرية والمجتمع. وخيوطها المتعـددة شـديدة التشابك ولا يمكن فصلها. وعندما تفصل بعضـها وحيدة فى السطور التالية، يجب ألا ينسى اتصالها. وقد استمرت الأحوال الجديدة. وحولت تركة الماضى فى نفسى الوقت. وقد ساعد حب الاستطلاع اليونانى، ومحاولته أن يستبدل بالسحر العقل، على إنشاء الروح العلمية الجديدة. لقد أصبحت قاعدة لصورة كاملة التخالط للعالم كله. وضغطت الأوضا ع الجديدة لتطبيق العلم من أجل تخفيف آلام الإنسان وأعماله الشاقة. واكتسب العالم معنى اجتماعيًا، وأصبح أقوى وسيلة لرفع الكرامة وتحقيق المساواة بين كل الأفراد. لقد انبثق عنه اعتقاد متفائل بإمكانيات الإنسان الخفية وحقه، بناء على ذلك، فى أن يعامل باحترام.

يعتقد فرانسيس بيكون أنه أول من دل على طريقة جديدة لاستعمال العلم. فكان هدفه - وفقًا لرأيه - هو صالح المجتمع «تيسير مركز الإنسان». لقد احتج على أرسطو لأنه «كان عاجزًا عن أن يصنع شيئًا لرفاهية البشرية.، وتلتقى فى نظرة بيكون واقعية عملية نفعية وتجريبية، وإيمان بالعموم، وأخلاق عقلية، ترفع كرامة الإنسان، ورغبة فى السيطرة على الطبيعة مع الإعجاب بارتياد الحدود المجهولة، وقد كتب فى «أتلانتس الجديدة» سنة ١٦٢٦، «إن غاية وجود ناهى معرفة الأسباب، والحركات الخفية للأشياء، وتوسيع مملكة الإنسان إلى التأثير الممكن فى كل الأشياء وبعد حوالى عشرة أعوام أصر «ديكارت» فى «أحاديث عن الوسيلة» على أن مكان الفلسفة المدرسية يجب أن تأخذه «فلسفة عملية، يمكننا عن طريقها، بفهم القوة والعمل (للظواهر الطبيعية)، كما نفهم صناعاتنا المختلفة أن نستعملها بطريقة مماثلة للوصول إلى كل أغراضها الصحيحة، وعندئذ نصبح سادة الطبيعة ومالكيها». ولتقدم المعرفة بالطبيعة، اعترف «بجمعية لندن الملكية» مركزًا للبحث التجريبى فى أوروبا الغربية. وأصبح فولتير فى فرنسا، وبنيامين فرانكلين فى أمريكا الشمالية رسلا لهذه الروح الجديدة للكشف التكنيكى، الذى أعلن

فيما بعد قدوم الثورات الصناعية الديناميكية من الآلة البخارية إلى الآلات الإلكترونية الدقيقة، ومكنت لمستويات معيشية جديدة للناس في كل مكان، وهذا تطور ليس يونانيًا تمامًا خرج من جذور يونانية.

وقد استمد موقف جديد آخر من التقليد القانوني الروماني، دون قبول روحه الاستبدادية، أو قسوته إزاء حياة الإنسان وألمه. وبينما أصرت الحضارة الحديثة على حكم القانون وجلاله المحايد – القانون العقلي القابل للتطبيق في العالم كله الذي يتساوى أمامه الجميع – ملأت تقليد القانون باهتمام إنساني جديد من أجل حماية الحرية الفردية ضد سلطة الحكومة وبنية هذه الحماية. وحل ذلك في البلاد الغربية محل حب القوة، الذي. بقي، مع ذلك يميز أوروبا الوسطى والشرقية حتى في العصر الحديث، مع عدم الثقة بما يحتمل وقوعه من سوء استعمال القوة والسلطة، وجعل الاحتراس ضد مثل هذا الاستعمال السيئ أحد ملامح نظمه وتقاليده الحكومية. كان هذا هو العمل العظيم الذي قام به الشعب الإنجليزي في القرن السابع عشر. وفي نفس الفترة الثورية دعا «مثليون» و«لوك» إلى حرية التسامح، وحرية الفكر والتعبير، الأمر الذي لم يكن معروفا من قبل في التاريخ الغربي. وهذا الروح الجديدة جعلت نمو مجتمع جمعي مفتوح أمرًا ممكنا؛ وسرعان ما قنن حق الحرية والتعدد في وثائق الحقوق المختلفة. وأنشأت الروح الجديدة النقدية المغامرة مجتمعا مفتوحا لكل شيء إنساني، ولكل الأفكار الجديدة، له طابع عالمي أساسًا على الرغم من تنظيمه القومي. هذا المجتمع المفتوح سمح لأول مرة بالحركة الاجتماعية والجغرافية وزادها وفتح إمكانيات جديدة لتطور الناس جميعًا.

ومع التكتيك الجديد، نمت الحاجة إلى تنظيم للتوحيد. وكان الميل للمركزية ضروريا إزاء انكماش المسافات ونمو السكان السريع، ولكنه يحتوي على مضامين خطيرة تجب مواجهتها لمصلحة الفردية والتعدد، بتأكيد شديد القوة بالحق في حكومة ذاتية محلية حتى توازن المركزية المتزايدة للسلطة في أيدي الدولة أو في الجماعات المتحدة القوية.

وقد جرى التقليد حتى فى العصر الحديث على قبول مثل هذا التركيز للسلطة والقيادة فى الدولة، على حساب المبادرة الفردية والجمعيات الاختيارية، فى أوروبا الوسطى والشرقية، وحديثا شهدت منطقة الأطلنطى أيضًا اتجاها مشابها إلى مد السلطات الإدارية للدولة إلى كل قطاعات المجتمع، «يتجه إلى درجة واسعة من سياسة الحياة الاجتماعية، والاقتصادية، والثقافية، لا باسم السلطة وإنما باسم التقدم، والرفاهية والحب للرجل العادى». وقد حذر رالف والدو إميرسون وجون ستيوارت ميل، ضد هذه الاتجاهات فى منتصف القرن التاسع عشر، وأعادا القول بأن الحضارة الحديثة تعنى أكثر من تقدم التكتيك والرفاهية، إنها تعنى اعتبارا أساسيا للحرية الفردية وللتعدد. إن الدولة الحديثة الحرة، وهى تطور من القرنين السابع عشر والثامن عشر، يجب أن تبقى لها صفتها الأساسية وهى المجتمع المفتوح والجمعى «ستكون قوتها محدودة بجمعيات يكون تعدد واجبات أعضائها نحوها هو مقياس تحررهم من أى احتكار للقوة فى المجتمع». وتزايد الحاجة فى المجتمعات الحديثة المتقدمة، إلى الإصرار على حرية الفرد والجماعات، وعلى ضوابط وموازنات للحكومة، وعلى الاتحاد والحكم الذاتى فى الإدارة المحلية، كلما زاد اتجاه التكتيك والتنظيم إلى تركيز السلطة.

وقد نبذت الحضارة الحديثة كل المواقف السابقة، باحترامها للعمل اليدوى، وبكرامة الرجل الذى يقوم بالناحية العملية. وقد كتب أفلاطون فى «الجمهورية» «هناك تناقض جذرى بين مباشرة مهنة يدوية، وحقوق المواطنة». وقد بقى هذا الموقف حيًا فى التقليد الأرستقراطى الأوروبى ولم ينقض إلا فى الحضارة الحديثة. فقد اتخذت الحضارة الحديثة وعمقت احتجاج أنبياء الإنجيل ضد الطغيان على الفقير والمحروم، وهو الاحتجاج الذى كان حيا فى المجتمع المسيحى الباكر، والشعور بالمسئولية الاجتماعية فى الحضارة الحديثة؛ له جذوره التاريخية فى الاحترام النبوى لكرامة كل فرد، ولكن الضمير الاجتماعى الحديث فقط هو الذى اعتبر فى المائتى سنة الأخيرة أن التحسين التقدمى المتئد لظروف المعيشة واجب على عاتق المجتمع. ولم يهتم هذا الضمير الاجتماعى بالتحسينات المادية فقط، بل أوجد رقة لا سابقة لها فى الأخلاق، وتخفيفًا سريعًا فى القوانين الجنائية البربرية وفى العقوبات التى كانت شائعة منذ

أنبياء الإنجيل حتى القرن الثامن عشر، وأعلن بداية كفاح ضد الرق وكل أشكال امتهان الإنسانية. وكان الناس، حتى القرن الثامن عشر قد عودوا على الوحشية فى كل مكان - فى أوروبا وآسيا وأفريقيا - وكانوا فى أيام الرومان يستمتعون بفظائع السيرك. وفى العصور الوسطى كانوا يتزاحمون على كل مناظر التنفيذ الوحشية، كالجلد والتعذيب. وكان العطف على آلام الآخرين يبدو غريبًا عند الكثرة الغالبة من الناس فى كل مكان شأنه شأن الاهتمام بحسن أحوال الآخرين وكرامتهم وحتى فى قرون «النهضة» و«الإصلاح» كان الأوروبيون ميالين للاعتقاد بصحة الأساطير والخرافات، ووجود المشعوذين والسحرة، وكانوا. مثل بقية الشعوب والحضارات، يهتمون فوق كل شيء بالعلاقة الأساسية التى لا تتغير بين الإنسان وبين الله أو بالقوى المقدسة أو الشيطانية الموجودة فى الطبيعة. وفى الحضارة الغربية الحديثة فقط. دخل فى هذه العلاقات القديمة عنصر عقلى نقدى، وانتقل الاهتمام أكثر فأكثر إلى علاقات الأشخاص فيما بينهم وإلى الاهتمام بالآخرين وهو تطور أدى إلى تقدم العلوم الاجتماعية على اختلافها.

وهكذا بدأت روح الحرية والعقلية واحترام الفرد تنفذ فى عصر الاستنارة إلى كل مجالات الحياة والفكر وأوجدت شعورًا لا سابقة له بالأمن القانونى، ومن ثم أوجدت جوًا صالحًا للنشاط الاقتصادى والمبادأة الاجتماعية، وأدت الحرية إلى الرفاهية لا إلى العكس كما أعتقد بعض الناس حديثًا. لقد حررت العقل لاكتشافات جديدة وزادت سرعة التطور على العموم. وحطمت الجمود القديم وأصبحت، بهذه الحركة التحريرية، أعظم قوة ثورية فى ظروف الإنسان.

إن فكرة رجل حر وعقل حر فى مجتمع مفتوح، وهى روح الحضارة الحديثة، تمثل مغامرة جريئة وظاهرة جديدة فى التاريخ. ويحدد قبول هذه الفكرة أحد التحولات الحاسمة فى كل الحياة الإنسانية. التى أطلق عليها كارل جاسبرز اسم الأوقات المحورية، والقرن السادس قبل الميلاد كان مثلا لهذا الوقت المحورى، عندما وصل الإنسان، فى كونفوشيوس ولاونسو، وبوذا وأنبياء اليهود، والفلسفة والتراجيديا اليونانية، إلى شعور جديد بنفسه ويقظة ذاتية عميقة. وتنشأ مثل هذه الأوقات المحورية فى مساحات جغرافية محدودة ولكنها تميل لأن تصبح ذات معنى تاريخى عام. كذلك نشأت الحضارة الحديثة فى منطقة شمال الأطلنطى المحدودة جغرافيا، ولكن تأثيرها انتشر منذ ذلك الوقت فى كل أنحاء الأرض. وهى بما تتصف به من عنصر الحرية. تعرض أعظم المصاعب فى تنظيم المجتمع وتوجيه الإنسان. وهى وحدها التى قبلت مبدأ المساواة بين الناس جميعا وقبلت مشروعية حق المعارضة بوصفه اشتراكا بناء فى كل من التصرفات السياسية ونمو الفكر. وهى لا تصر على التماثل، بل على العكس تعتبر المجتمع أعلى تطوراً كلما تضمن بفاعلية، وعلى قاعدة من المساواة والحرية، طبقات اجتماعية، وتقاليد ثقافية، وعقائد دينية أو جماعات أجناس متعددة «وكلما زادت مبادرته زاد الترحيب بأكبر عدد من التجارب الفردية».

ولم يعد للروابط القديمة التى كانت تساعد على تماسك المجتمعات القديمة والتى وجد دستويفسكي فى قصة «المحاسب الأعظم» أنها تنطبق على ألوان الإغراء التى يقدمها الشيطان - هى المعجزة، والغموض، والسلطة - مركزها السائد السابق. ملك واحد، وقانون واحد، ومرة واحدة، كانت طابع الحكم المطلق والعظمة لفرنسا فى حكم لويس الرابع عشر كما كانت الأرستقراطية. والأرثوذكسية والقومية طابع روسيا فى حكم كونت سيرجي أوفارف وكونستانتين بيوسعدو نوستسيف. وقد أحيت حديثا الشيوعية، والفاشية، وبعض الدول القومية هذه القاعدة القديمة للمجتمع المنظم وأعلنت أنها شىء جديد «تقدمى». ولكن الحضارة الحديثة ترفض وحدة الدم أو العقيدة

أساساً لحياتها السياسية والثقافية، والاعتقاد بأن المجتمع – القائم على الجنس، أو على الدين، أو على الفكر – مركبة للخلاص.

والولايات المتحدة بأخطائها الإنسانية بل الإنسانية إلى حد كبير تمثل من حيث المبدأ أكثر المجتمعات الغربية الحديثة نموذجية. وقد جاءت إلى الوجود كنتيجة للثورات الإنجليزية فى القرن السابع عشر ولعصر الاستنارة وفى القرن الثامن عشر قدمت أمريكا الإنجليزية للأوروبيين والأمريكيين على السواء عصر الحرية والعقلية مناقضة للطغيان والاعتقاد بالخرافات التى كانت لا تزال منتشرة إذ ذاك فى أوروبا. وقد تفكه إدوارد جيبون فى كتابه «ملاحظات عامة على سقوط الإمبراطورية الرومانية فى الغرب» على إمكان وجود فاتحين متوحشين جدد يكتسحون أوروبا حاملين العبودية والشقاء حتى المحيط الأطلنطى. ولكن عندئذ «ستحمل عشرة آلاف سفينة؛ بعيداً عن متناول مطاردتهم (الفاتحين)، بقايا المجتمع المتحضر، وتحيا أوروبا وتزدهر من جديد فى العالم الأمريكى، الذى امتلأ فعلا بمستعمراتها ومؤسساتها».

وقد عبر القس الفيلسوف جورج بيركلى فى سنة ١٧٢٦ – حتى دون فتح بربرى – عن الشعور بأن أوروبا العجوز لن تعيش لتحقق الآمال النبيلة للعصر، وأنها كانت تتعفن ورأى فى أمريكا الإنجليزية مركز التجديد الروحى، ونمو الإمبراطورية والفنون. وبعد ذلك بنصف قرن رسم القس رانيال، الذى كانت دائرة قرائه واسعة جدا فى ذلك الوقت، صورة براقة لأمريكا وأنها قيضت لإيجاد عصر جديد للإنسانية تضعه مثالا أمام أوروبا وقد بدا كما لو كان هواء أمريكا قادراً على أن يغير الإنسان لأنه ملىء بالحرية. ولم يكن هذا التقدير الحبيب لأمريكا قاصرا على إنجلترا وفرنسا فقد شغف جوتة الشيخ بالتسامح والحرية فى الولايات المتحدة وبروحها التكنيكة الرائدة. ومن السهل فهم مشاركة الأمريكان – الإنجليز فى هذا الإعجاب. وكتب توماس جيفرسون من باريس التى كانت مركز الحضارة إذا ذاك فى سنة ١٧٨٧، «إذا وضع ملوك أوروبا جميعا أنفسهم للعمل على تحرير عقول رعاياهم من جهلها ومسلماتها الحاليين فلن تضعهم ألف سنة على تلك الأرض العالية التى يقف عليها الآن شعبنا العادى». وبدا أن أقوى

الآمال والأماني للثورة الديمقراطية التي عمت أوروبا في نهاية القرن الثامن عشر قد قيض لها أن تتحقق في أمريكا الشمالية.

وقد رأى ألكسيس توكفيل بعد ذلك بنصف قرن في الولايات المتحدة منزل الديمقراطية ومركزها. وكان يعتقد أن هذه الديموقراطية تمثل، بالنسبة للحضارة الغربية على الأقل، حركة عامة لا تقاوم تستهدف تحقيق «تكافؤ الظروف». وكانت هذه المساواة في الظروف عنده النتيجة التي لا مفر منها لتحول الكيان الاجتماعي الذي تم خلال الثورة الديمقراطية التي كان يعتقد أنها ستنتشر على الأرض دون مقاومة. ولم يقلل توكفيل من قدر الصعوبات التي يواجهها المجتمع الديمقراطي ويعني هذه الحضارة الحديثة. ولم تكن تصوراته عن طبيعة الإنسان سهلة. فقد كتب في خطاب له في ٣ يناير سنة ١٨٤٣ . «الناس على العموم ليسوا طيبين جدا ولا سيئين جدا، إنهم أوساط. ويوجد في كل رجل رجلان، فإذا كان من الطفولة أن نرى واحداً فقط، فمن المحزن تماماً ومن الظلم ألا ننظر إلا للآخر... فالإنسان، بعيوبه، ونواحي ضعفه، وفضائله، ومزيجه من الخير والشر، ومن الوضيع والسامي، والأمانة والخسة، لا يزال على العموم أعظم ما يستحق البحث، والاهتمام، والعطف، والحب، والإعجاب الذي يمكن أن يوجد على الأرض... مادمنا لا نجد ملائكة، فلا يمكننا أن نربط أنفسنا بأي شيء أنبل أو أكثر استحقاقا لحبنا من رفاقنا في الإنسانية».

وفي كتاب اللورد أكتون «محاضرات عن الثورة الفرنسية» وصف توكفيل بأنه أوسع الكتاب جميعاً قبولا وأصعبهم في أن نجد له خطأ. ففي الوقت الذي كانت الامتيازات السياسية والاجتماعية. لا تزال موجودة في أوروبا كلها وكانت مقبولة عند أغلب الناس على أنها «طبيعية» ولا يمكننا الاستغناء عنها، تنبأ توكفيل بأن أوروبا ستصبح ديموقراطية أو بالأحرى أمريكية، فكتب يقول «يجب على الحكومة الديموقراطية أن توصل فكرة الحقوق السياسية إلى جميع المواطنين كما يجعل تقسيم الأموال فكرة حق الملكية على العموم في متناول كل الناس. وهذا في نظري أحد حسناتها الكبرى... ويستحيل أن نفهم كيف تفشل المساواة في أن تخترق دنيا السياسة كما فعلت في كل شيء آخر.

لا يمكن أن يتصور الإنسان أن يظل الناس إلى الأبد غير متساوين فيما بينهم فى نقطة واحدة ومتساوين فى غيرها من النقط. وهكذا سيصلون أخيراً إلى وضع من المساواة الكاملة».

كان توكفيل يرى أن هذه العملية حتمية، وكان يعتقد أن السؤال هو فقط ما إذا كانت هذه المساواة فى الحضارة الحديثة ستتحقق بطريقة سلمية أم بالعنف، وما إذا كانت ستزيد الحرية أم ستحقق الاستبداد. والأمر الأول حدث فى بريطانيا والولايات المتحدة.. والأمر الثانى حدث فى الدول الكبرى فى أوروبا. وفى أرض الذين يتكلمون الإنجليزية فى حضارة شمال الأطلنطى، كانت الأفكار الديمقراطية عميقة الجذور تسندها تقاليد الحكم الذاتى واللامركزية. ولم تكن الحال كذلك فى فرنسا أو إيطاليا. وفى ألمانيا أو روسيا. فكثيراً ما تحدث هناك قوى المجتمع القديم وحب عظمة الماضى والسلطة المركزية، أوضاع الحضارة الحديثة. وكان هذا فى فرنسا أقل بطبيعة الحال منه فى روسيا، على أنه فى كل مكان فى القارة قامت حركات ترفض، فى صراحة واضحة، مبادئ المجتمع الحر المفتوح التى ولدت فى القرن الثامن عشر والتى ذهب توكفيل إلى الولايات المتحدة لدراستها.

وكان توكفيل يفهم بوضوح الفرق بين دول شمال الأطلنطى. ودول أوروبا. وكتب يقول «كان الإنجليز الذين هاجروا منذ ثلاثمائة سنة لينشئوا مجتمعا ديمقراطيا على شواطئ العالم الجديد قد تعلموا أن يشتركوا فى الشئون العامة فى وطنهم الأم، وعرفوا المحاكمة بالمحلفين، وتعودوا حرية الكلام والصحافة، والحرية الشخصية، ومعرفة الحقوق وممارسة الدفاع عنها. وقد حملوا معهم إلى أمريكا عادت الرجولة وهذه النظم الحرة، وقد حمتهم هذه النظم ضد تعديات الحكومة. وهكذا فإن الحرية هى القديمة بين الأمريكان كما هى بين البريطانيين، والمساواة هى الأحدث نسبيًا. والعكس يحدث فى دول القارة، حيث كانت المساواة، التى أدخلتها السلطة المطلقة تحت حكم الملوك، قد امتزجت فعلاً بعادات الأمم قبل أن تدخل الحرية تفكيرهم بزمن طويل».

وكان توكفيل يشعر بالتهديدات التى تعرضت لها المساواة فى المجتمع الحر. ولكن ثقته فى الحرية بوصفها القيمة العليا لم تهتز على الإطلاق. وكان يمكن أن يعيد ما قاله مونتسيكو فى «حوار بين سيلا وأبو قراط». «إن الآلهة التى منحت أغلب الناس طموحا فضفاضا، قد ربطت بالحرية منغصات تكاد تساوى منغضات العبودية، ولكن ثمن هذه الحرية النبيلة، يجب دفعه أيا كان». وكان الأمريكان بالنسبة للحرية فريدين فى نظر توكفيل: «لقد حصلوا من الأرستقراطية الإنجليزية على معرفة الحقوق الخاصة، وطعم الحرية المحلية وأمكنهم الاحتفاظ بها معًا لعدم وجود أرستقراطية يحاربونها».

ورأى توكفيل «الخوف الجنونى من الاشتراكية» بوصفها تهديداً لحريات الحضارة الحديثة. فهى كما كتب فى سنة ١٨٥٢، قد ألقت بالطبقة الوسطى الفرنسية على رأسها بين ذراعى الحكم المطلق لنابليون، وكان تحقير أولئك الذين يرحبون بحكومة استبدادية لأنهم يعتقدون أنها ستقوى الدين والأخلاق. وكان الخطر من مثل هذا الترحيب موجوداً دائمًا فى فرنسا وفى أوروبا، ولكنه اليوم أصبح معروفا حتى فى الولايات المتحدة، حيث يبدو أن البعض يرغبون - لمساعدة «الأخلاق» و«الدين» - فى محالفة أو معاونة مع أنواع من الحكم واضح «أنها دينية استبدادية مماثلة للحكم الذى أقامه نابليون الثالث أو أسوأ منه. وكان توكفيل يعتقد أن مثل هذه المحاولات خاطئة لا من الناحية الأخلاقية فحسب، بل من الناحية العملية أيضًا، فهو يعتقد أن مجتمع عدم المساواة التقليدى مقضى عليه بالزوال، وأنه لم يبق على الرجال فى وقتنا، إلا أن ينظموا - فى تقدمية وحكمه - المجتمع الديمقراطى الحديث على أنقاضه، وكان جازم الاعتقاد بالحرية والمساواة الحتمية لجميع الرجال. وقد كتب يعبر عن شعور له معناه فى العصر الأول من التاريخ العالمى «إن الشعور الذى يسودنى، عند ما أجد نفسى فى حضرة إنسان آخر، بصرف النظر عن مدى صغر شأنه، هو ذلك الشعور بالمساواة الأصيلة لهذا الجنس، ومن تلك اللحظة قد يكون اهتمامى بألا أجرح كرامتــه أكثر من أن أسره وأن أخدمه».

وكان توكفيل فى تفكيره وكتاباته تحرريًا ومسيحيًا فى نفس الوقت. وقد وجد أن الروح الدينية وروح الحرية، اللتين كانتا تسيران فى فرنسا (كباقى دول أوروبا) فى

اتجاهين متضادين، تتحدان فى أمريكا اتحادا وثيقًا. وفى خطاباته إلى الكونت جوبنيو فى يناير سنة ١٨٥٧ كان يرى أن المسيحية لا تتفق مع قواعد الجنس. وكان يتساءل ألم يكن الطابع المميز الفريد للمسيحية، «هو أنها قد محت فروق الجنس التى لا تزال اليهودية تحتفظ بها، وأنها من ثم قد ثقفت جنسًا بشريًا واحدًا، يستطيع كل أعضائه أن يتقدموا وأن يتحدوا؟». وكان يرفض تشاؤم جوبنيو العميق بالنسبة للحضارة الحديثة، ذلك التشاؤم الذى ينطوى على التنبؤ بنزعة التشاؤم بمصير الحضارة الغربية التى جاءت بعد ذلك «إن عدم ثقتك بالجنس البشرى عميق، جنسنا على الأقل، أنت تعتقد أنه لا ينحدر فحسب بل إنه لن يستطيع أن يرفع نفسه مرة أخرى... وعندى أن المجتمع الإنسانى، كالأشخاص لا يستطيع أن يصبح شيئًا له قيمة إلا من خلال استعماله للحرية.... لا، لن أستطيع الاعتقاد بأن هذا الجنس البشرى قد أصبح ذلك القطيع المضيع من الغنم كما تقول، وأنه لم يبق شىء إلا أن نسلمه إلى عدد قليل من الرعاة، الذين هم، بعد كل شىء، حيوانات ليست أفضل منا نحن الغنم، بل غالبًا، فى الحقيقة، ما يكونون أسوأ».

وفى السنة الأخيرة من حياته (١٨٥٧)، عندما كان يبدو رد الفعل السياسى والدينى منتصرًا فى أوروبا، عبر توكفيل عن مشاعر لا تزال صحيحة اليوم. «أعتقد أننى كنت سأحب الحرية فى كل الأوقات، ولكن فى الوقت الذى نعيش فيها أقدسها». لم تكن الحرية عنده تنفصل عن كرامة كل فرد وكل جنس، وعن «تكافؤ الظروف» التى كان يرى أنها هدف الحضارة الحديثة. وكان يريد أن يدخل الاهتمام الذى وجده فى الولايات المتحدة بالرفاهية العامة وبتحسين ظروف كل الناس، إلى كل مكان ليزيد من أمانى الحرية وكان يمتدح الثورة الفرنسية لأنها ساوت عبء الضرائب، وحطمت الامتيازات التى كانت فى صالح تركيز الثروة فى أيد قليلة، وضاعفت إلى غير نهاية الفرص التى تمكن الناس من الانتقال من الفقر إلى «حالة مريحة» أو حتى إلى «الغنى». وقد تحقق هذا التحرك الاجتماعى فى انجلترا أولا ثم آتى ثماره فى الولايات المتحدة.

كان توكفيل يشارك صديقه جون ستيوارت ميل.. الثقة فى التحسين الممكن والضرورى لحالة الناس، وهى ثقة متفائلة. كانت تميز نظرة شعب الولايات المتحدة. وكتب فى «المنفعية»، «معظم شرور الدنيا الأكيدة الكبيرة ممكنة الإزالة فى ذاتها، ويمكن حصرها فى النهاية، إذا استمرت أحوال البشرية فى التحسن، فى أضيق الحدود. والفقر، بأى معنى يسبب الألم، يمكن إزالته كلية بحكمة المجتمع متعاونة مع حسن تصرف الأفراد وعنايتهم بالمستقبل. وبالاختصار، كل المصادر الكبيرة لآلام البشرية، يمكن التحكم فيها إلى حد ما والتحكم فى كثير منها تماماً؛ بعناية البشر ومجهودهم».

ولكن تحسين الأحوال الإنسانية ليس كافياً لتأمين امتداد الحرية. وكان «ميل» يعتقد.. أن الحرية والقانون أقل تهدداً بين الإنجليز لأنه «فى كل المسائل بين حكومة وفرد، كان الافتراض فى ذهن كل إنجليزى أن الحكومة على خطأ». والتسامح مع الآخرين وأفكارهم. وعدم الثقة بالقوة وإمكانية سوء استعمالها، وكراهية الصنف، جعلت جذور الحرية فى إنجلترا أعمق منها فى البلاد الأخرى ولكن السعى للحرية كان قد انتشر فى القرن العشرين بعيداً بعد الجزيرة الإنجليزية، وأصبح يرى فى إطاره الاجتماعى العالمى. وقد وضع ميل المسألة قبل الحضارة الحديثة فى كلمات مبينة «كيف يمكن توحيد أعظم حرية تصرف للفرد مع الملكية العامة لمواد الأرض الخام، ومشاركة متساوية فى مكاسب العمل المشترك».

وكان نفس الاهتمام بالحرية الفردية ورفاهية البشرية الذى ميز جون ستيوارت ميل يميز اللورد أكتون أيضاً. فقد كان، وهو أصغر من توكفيل وميل بجيل، يشارك الأول أرستقراطية المولد والعقدية الكاثوليكية ويشارك الثانى التكرس للحرية الفردية، والحضارة الحديثة، وكان هو أيضا، يرى فى الولايات المتحدة أقوى أسس لهذه الحضارة ونموذجها فى المستقبل. ومحاضراته «محاضرات عن التاريخ الحديث» التى ألقاها فى جامعة كمبردج فى نهاية القرن ذكرت القصة وهى، كيف أنه خلال ثلاثة قرون من وقت «النهضة» و«الإصلاح»، إلى الثورة الأمريكية، «بالمجهودات المشتركة للضعفاء،

الذين جعلوا تحت الاضطرار، يقاومون حكم القوة والخطأ الدائم، أمكن الاحتفاظ بالحرية، وتأمينها، وتوسيعها وأخيراً مهمتها». وبهذه العملية من نمو التسامح، بلغت حقوق الناس، والحكومة الذاتية للأمم، التى بدأت فى الأراضى الشمالية وفى المجتمع (البيورتيانى) التطهرى ذروتها فى أمريكا – الإنجليزية. وكان أكتون يعرف الصلة الوثيقة بين الحرية والرفاهية. ونحن نقرأ فى إحدى مذكراته الخطية «لا توجد الحرية حيث يوجد الفقر، إن نظرية الحرية تتطلب جهوداً قوية لمساعدة الفقراء، لا مجرد الأمان، والإنسانية، والدين، وإنما للحرية». وكان أكتون، وهو نفسه عضو فى المجتمع العالى، يعارض كل أشكال الحكومات الطبقية. وكتب يقول «ليس الخطر أن طبقة معينة غير صالحة للحكم، إن كل الطبقات غير صالحة للحكم» وقد أصر على أن «الطبقة الفقيرة.... مصالحها هى الأكثر قداسة».

لم يعبر مؤرخ بوضوح أكثر مما فعل أكتون عن عدم الثقة بالقوة التى هى أحد الطوابع البارزة للحضارة الغربية الحديثة. وقد حذر فى «محاضرة جادة عن دراسة التاريخ» «لنشك فى القوة أكثر من شكنا فى الرذيلة». ورفض فى «محاضرات عن التاريخ الحديث» حب النجاح والداروينية الاجتماعية التى ميزت نهاية القرن التاسع عشر إلى هذ الحد. واتخذ موقفه إلى جانب الضعيف ضد القوى. وكان يقدر الحضارة التى تحمى ضعفاءها ضد الأقوياء، ضد كل جدل حيوى ومنفعى. وقد فرض تقدم الحضارة تضحيات متزايدة على المجتمع، لحساب أولئك الذين لا يستطيعون دفع مقابل، ولا يتحصل من رفاهيتهم على مكسب مكافىء. لأن الحضارة «تعتمد على الاحتفاظ بما يعتبر خسارة لا حد لها، بثمن لا حد له، الطفل الأعرج وضحية الحادث، والغبى والمجنون، والمعدم والمجرم، والشيخ والعاجز، والذى يرجى شفاؤه ومن لا شفاء له. وهذه السيادة النامية للدافع الخالى من المصلحة، وهذا الكرم حيال الضعيف، فى الحياة الاجتماعية، يقابل فى الحياة السياسية ذلك الاحترام للأقلية الذى هو روح الحرية». وكان عدم ثقة أكتون بعظماء الرجال أكثر من عدم ثقته بالأصاغر. ولم تكن عنده – بوصفه دارساً للتاريخ – أوهام عن الإنسان وعن السياسة، وإنما كانت لديه ثقة بحرية الإنسانية وكرامته التى تميز الحضارة الحديثة عن كل الحضارات الأخرى. وقد كتب

فى مذكرة خطية «ليس التاريخ نسيجًا نسجته أيد بريئة، والقوة، بين أسباب انحطاط الناس وانحلالهم، هى أكثر هذه الأسباب ثباتًا وأكثرها نشاطًا».

والذى سهل تحطيم الحضارة الغربية الحديثة فى نوفمبر سنة ١٩١٧ فى روسيا، وفى يناير سنة ١٩٢٣ فى ألمانيا، هو جو احترام القوة الذى كان واضحًا فى تلك الدول. والانتقال من القيصر إلى القوميسار، لا يكاد يكون قد غير التقليد الأرستقراطى الروسى، وسيادة الفكر الأرثوذكسى والقيادة القومية من أعلى، بل لعله قد زادها. ويرجع مؤرخو ألمانيا، من هيجيل ورانك فصاعداً، إغراءات القوة الشديدة إلى الإعجاب بفلسفة سيجلونها من أجل فهمها العميق لقوى التاريخ والطبيعة. وكانوا يعجبون «بقيادة القوة الشاملة وبحيوية الدول الكبرى»، وكان تنازع المصالح ونشوب الحرب بين الأمم يبدو لهم حتميًا بوصفه من قوانين الطبيعة. وفى مفهوم الحضارة الغربية الحديثة، يخطئ الإنسان بإساءة استعمال القوة، وقد كتب مؤرخ ألمانى معاصر فى سنة ١٩٥١ «يخطئ الإنسان فى المفهوم الروسى والألمانى «بالثورة ضد القوة» ولعله يكون أصح إذا وضعنا كلمة «السلطة» فى مكان «القوة».

وعدم الثقة بالقوة الذى ارتفع به صوت آكتون يشكل معياراً دائمًا فى تقويم الحكومة. وقد جعل نمو الأسلوب الغنى الصناعى واتساع التنظيم وتعقيده فى الوقت الحاضر، مهمة الحفاظ على الحرية ضد قوة البيروقراطية فى الحكومة والمشروعات والعمل، وأكثر صعوبة وأكثر استعجالا، وعلى كل حال، قد يتغالى فى تقدير الخطر على الديمقراطية، الذى تنطوى عليه «الثورات الإدارية» أو المنتخبات الجديدة للقوة، إذا لم يؤخذ فى الحساب بقدر كاف، الوسط الذى تنمو فيه. عندئذ يعطى لأوجه شبه ذات طبيعة ظاهرية وزنا أكثر مما لها، ويهمل الفرق الأساسى بين قلب أراضى الحضارة الغربية الحديثة وأراضى الحكم المستبد الصناعى - البيروقراطى وهذه النظم الجديدة للحكم المستبد تميل - تحت قناع طاعة سير التاريخ أو تحقيق رفاهة الشعب - إلى رفض أسس الحضارة الحديثة، وهى حق المعارضة والنقد، والشعور نحو المتوسط وشرط التصرف.

وللحرية -حيث تكون عميقة الجذور- قوة على حماية نفسها ضد كل تمجيد السلطة، ولا يخلو من المعنى أن دويت. د. أيزنهاور - وهو بحكم تربيته وما وصل إليه أحد رجال الغرب العسكريين البارزين - قد أعاد فى خطاب الوداع بوصفه رئيسًا للولايات المتحدة فى ١٧ يناير سنة ١٩٦١ عدم ثقة أكتون بالقوة - فقال «هذا الارتباط بين جهاز عسكرى ضخم وصناعة أسلحة هائلة، جديد فى تجربة أمريكا ويجرى الشعور بمجموع التأثير - الاقتصادى والسياسى، وحتى الروحى - فى كل مدينة، وكل ولاية، وكل مكتب فى حكومة الاتحاد. نحن نعرف الحاجة الآمرة لهذا التطور. ويجب مع ذلك، ألا نفشل فى إدراك جسامة ما ينطوى عليه. إن الأمر يتعلق بعملنا الشاق، وبمواردنا ووسائل عيشنا، وكذلك نفس بناء مجتمعنا، يجب فى مجالس الحكومة، أن نحترس من حصول مركب الصناعيين - العسكريين على النفوذ بغير حق سواء بقصد أو بغير قصد. إن الفرصة لكارثة قيام القوة الموضوعة فى غير موضعها موجودة وستبقى. ويجب ألا ندع ثقل هذا الارتباط يهدد حرياتنا أو أعمالنا الديمقراطية. يجب ألا نأخذ شيئًا على علاته. إن المواطنة اليقظة العارفة هى فقط التى تفرض الاتصال المناسب بين جهاز الدفاع الصناعى والعسكرى وبين وسائلنا وأهدافنا السلمية حتى ينجح الأمن والحرية معًا...

«إذا احترمنا البحث العلمى والاختراع - كما يجب أن نفعل - فيجب أيضًا أن نكون يقظين للخطر المساوى والمضاد من أن السياسة العامة قد تصبح هى نفسها أسيرة لخاصة التكنولوجيين من العلميين. إن مهمة رجل الدولة هى تشكيل وموازنة. وتوحيد هذه القوى وغيرها، جديدة كانت أو قديمة، داخل مبادىء نظامنا الديموقراطى. الذى يتجه دائمًا إلى الأهداف العليا لمجتمعنا الحر... وعلى المسار الطويل للتاريخ الذى لم يكتب بعد، تعرف أمريكا أن عالمنا هذا، الذى يزداد صغرا باستمرار، يجب أن يتحاشى أن يصبح مجتمعًا من الخوف الهائل والكراهية، وأن يكون، بدلا من ذلك، اتحادا فخورا من الثقة والاحترام المتبادلين. مثل هذا الاتحاد يجب أن يكون اتحادا من المتساوين. يجب أن يأتى الضعيف إلى مائدة المؤتمر بنفس الثقة التى نأتى بها

ونحن فى حماية أخلاقنا وقوتنا الاقتصادية والعسكرية. ولا يمكن مغادرة هذه المائدة رغم الندوب التى تعلوها من أثر الفشل المتعدد فى الماضى إلى ميدان المعركة وهو الكارثة المحققة». وهكذا، فى وقت حرج بالنسبة للحضارة الغربية الحديثة، أعيد ذكر مبادئها لمجتمع عالمى أساساً، مدنى، تحررى ويدين بالمساواة.

إن الحضارة الحديثة باعتمادها على الفرد وإرادته الذاتية، وببحثها الذى لا يهدأ عن الحقيقة وسعيها المتواصل لتحسين الأحوال، تثقل الرجل حتما بمشاعر مقلقة من الوحدة وعدم الأمان. وهو عندئذ يبحث عن أمن المجتمع المغلق والتطابق كما كانا موجودين فى الحضارات السابقة، أو يهتم بامتياز وأفضلية الفرد القوى الذى يجرؤ على الوقوف وحيدا .

والتوافق صفة ملازمة لكل المجتمعات البدائية، حيث يكون حساب الجماعة أكبر من حساب الفرد، الذى يقبل دون سؤال سلطتها، وقيمها ومستوياتها . والحضارات السابقة تعتبر المروق العدو الأكبر، ومكمن الشر. والرجل الذى يفكر تفكيراً مختلفاً عن الجماعة يواجه المجتمع الدوجمانى، المغلق أو المطلق بتحد لا يستطيع قبوله، ويجيب عليه بالعنف أو بوسائل الإكراه. ولم يعترف نحو الفرد فى أن يفكر لنفسه إلا فى العصر الحديث. والحاجة الأساسية للرجل، وواجبه كما يرى إيمرسون، هو أن يوجه حياته الخاصة ولا يأخذها مصنوعة له، والأمة الحقة يجب أن تتكون من مثل هؤلاء الأفراد المستقلين لا التوافقيين. وكان أمل إيمرسون، أن تصبح الولايات المتحدة مثل هذه الأمة. لقد كان يعمق انعدام الثقة فى القوة، والثروة، والكبر من كل نوع، الذى قد يهدد استقلال الفرد. وكتب يقول «إن أصدق اختبار للحضارة، ليس التعداد، وليس حجم المدن، ولا المحاصيل – ولكنه نوع الرجل الذى تخرجه.. وأنا حين أنظر إلى هذه المجموعة من المدن التى تحيى الأرض وتزينها، وأرى صغر ما يجب أن تفعله الحكومة فى حياتها اليومية، وكيف أن كل العائلات ترعى أمور نفسها وتوجه نفسها ... الرجل يؤثر على الرجل بوزن الفكرة، والنشاط الأطول أو الأحسن توجيها، والتأثير الرقيق للنساء؛ والدعوة التى تفتحها التجربة والأهداف الثابتة للشباب والعمل، وعندما أرى إلى أى حد يعيش كل شخص خبير وموهوب، يقدره كل الناس حياة حبيبة مع عشرات من الناس الممتازين الذين لا يعرفهم أحد بعيداً عن بيوتهم، ولعله لسبب عظيم، يظن أن هؤلاء الناس أفضل منه فى الفضيلة وفى التماثل وفى قوة صفاتهم – أرى أى قيم

مجسمة لدى أمريكا، وفى هذه القيم شهادة للحضارة أحسن من المدن العظيمة والثروة الضخمة.

وفى نفس الوقت كان إيمرسون يتألم لإدراكه أن الحياة الأمريكية ليست فى مستوى فكرته عنها. وقد شكا فى إعلانه «الشباب الأمريكى فى سنة ١٨٤٤ «خارج المنازل يبدو كل شىء سوقا، وفى الداخل فرن خانق من رعاية التقاليد إنهم يزكون الفضائل المتفق عليها، كل ما يكسب الملك أو يحفظه... كل ما يؤدى إلى تأمينه، وزينته، وزيادته فهو خير، وكل ما يهدد شيئًا من ذلك فهو شر». ولم تكن المعارضة أفضل من ذلك. «إنهم يهاجمون الرأسماليين الكبار، ولكن هدفهم من ذلك هو أن يجعلوا من الرجل الفقير رأسماليًا. فالمعارضة ضد أولئك الذين يملكون مالا من أولئك الذين يرغبون فى امتلاك المال. من الذى يعلن لنا فى صحيفة، أو فى الكنيسة، أو فى الشارع، سر البطولة؟.. زيادة الحاجة إلى أن ينسحب الشجاع من الجمع، وأن تلوذ بنا ثورة الحق. إن مرضنا هو جبن الرأى العام أو أقول عموم الرأى، وعدم وجود رأى خاص». والبطولة التى كان بعنيها إيمرسون لا تعنى حماية النفس القومية، ولكن قوة الفرد المستقل فى الوقوف ضد أفكار الجماعة وافتراضاتها. وقد كتب فى صحيفة «الجورنال» كثيرا ما تتسم القومية بالغباء. فكل أمة تعتقد أن العناية الإلهية تحابيها بالعطف عليها. «وكان إيمرسون يعجب بالروح الأمريكية»، لا لأنها كانت أمريكية ولكن لأنها كانت ثقة معتمدة على نفسها، بالحاضر والمستقبل.

على أن الاعتماد على النفس يمكن أن يقود إلى ادعاء للقوة يطالب للفرد أو للجماعة بحقوق أعلى مما للرجل العادى. وقد رأى أوزوالد سينجلر فى فاوست الممثل النموذجى للحضارة الغربية الحديثة. ومذهب فاوست فى الثورية (titanism) هو أحد الأخطاء التى تلازم الحضارة الغربية، وهى كالتوافق لا تمت إلى روحها إلا بالقليل. وفاوست رجل «نهضة» أكثر منه رجل عصرى. إنه ينتمى إلى جو عصر بدأ فيه الفنانون يحمون امتيازاتهم وانفصالهم بوصفهم رجالا غير عاديين. وقد كتب چيوفان باتيستا أرمنينى سنة ١٥٨٦ فى Dei veri precetti della pittura.

«نمت عادة سيئة بين الناس العاديين، وحتى بين المثقفين الذين كان يبدو لهم الأمر طبيعيًا، أن الرسامين البارزين يجب أن يبدوا بعض علامات الرذيلة الفظيعة غير المشروعة مع المزاج الشاذ المتقلب. والأسوأ هو أن كثيرا من الفنانين الجهلاء يعتقدون أنهم ممتازون جدا باصطناع الحزن والشذوذ».

ويميل الرجل العصرى، فى شعوره الفخور بحريته؛ وفى تعطشه للمعرفة، وللتوسع البناء، ولامتلاء الحياة. إلى أن يخطو خارج حدود الإنسانية العادية. وكان بروميثيوس يبدو لجوته الشاب - كان فى الرابعة والعشرين من عمره - الممثل للفردية النهائية، والنموذج للفنان، الذى هو شبيه الإله فى قوته الخلاقة، ليس فى حاجة إلى الله أو إلى غيره من الناس.

ألم تصنع نفسك كلها، أيها القلب المتوهج المقدس؟ وبروميثيوس بهذا التفسير هو نموذج الادعاء وشجاعة السلوك. للرجل الذكى؛ الفرد الذى يرجع كل شىء إلى نفسه، وإلى جرأته وقوته - ليكن نابليون أو فنانا خلاقا والذى يموج لذلك عاليًا فوق سائر البشر العاديين.

ودكتور فاوست لكريستوفر مارلو.. صنو قديم للسوبرمان (للإنسان الأعلى) الحديث. وكانت نهايته مأساة، انتصارًا للدين على السحر، وللجحيم على الإنسان. وينظر جوته أعظم كتاب العصر الحديث إلى فاوست نظرة مختلفة. لقد كان فاوست الذى صوره «جوته» يسعى هو أيضًا إلى ما ليس فى وسعه، فلم يطلب المعرفة والسيطرة وحدهما، ولكنه طلب أيضًا تعميق الحياة والتجربة البشرية كلها.

«إن الحياة التى خلقت للبشرية كلها، سأختبرها فى أغوار وجودى. ستسعى روحى إلى أعلى أشكالها وأدناها، وستهيل روحى على نفسها كل أفراح الحياة وآلامها، وهكذا تمتد روحى إلى أرواحهم جميعًا، وسأكون آخر المطاف أنا أيضًا، معهم متروكين بلا حول ولا قوة».

إن عدم الصبر والتكبر المتعمدين. وهما خطر يحوم فوق رأس الرجل الحديث دائمًا، أو حيا لجوته بذلك المنظر فى المكتبة، الذى نبذ فيه فاوست وهو نفسه رجل علم

وثقافة. «الكلمة» وفضل عليها (الفعل). وفي هذا التأله يرفض فاوست أن يقبل الحياة كما هى. فهو يصب اللعنة على الأمل، وعلى الصبر فوق كل شىء آخر، ولهذا السبب اتهمته الأرواح بأنه قد حطم العالم الجميل.

وعندما حذره (مفستو) من أن الإنسان لا يمكن أن يكون جامعًا وكلا ومطلقًا، أجابه فاوست «آه. ولكنى سأفعل!» ويمثل فاوست، فى قلقه المتأله، الرجل الحديث الذى لم يعد له مأوى، وقد فتحت هوة الظلام، كهف بودلير، فاهها لتبتلعه، وهو راغب فى المخاطرة القاتلة:

«أنا الهارب الهائم على وجهه دون مأوى، الوحش الذى لا هدف له، والذى لا يستريح، ينحدر كالطوفان، يرغى ويزبد بين الصخور والأخاديد، ويلقى بنفسه، وقد جن جنونه، إلى أعماق الهوة المظلمة». بيد أن فاوست هذا، النموذج الأسمى للرجل، كما صورته انفعالات شباب جوته، وكما خلقته المدنية الحديثة فى عواطف شبابها الجامح. إن فاوست هذا لا يمثل جوته ولا المدنية الحديثة. إن عظمة جوته وعظمة المدنية الحديثة، هى القدرة على التغلب على الإغراء الذى يمثله فاوست. إن جوته الناضج كان يعرف أن للإنسان حدوداً، ولكنه وثق فى طبيعة الإنسان وعظمته.

(إن الإنسان وحده هو الذى يستطيع أن يفعل المستحيل. إنه يميز، ويختار، ويحكم).

إنه يستطيع أن يضفى على اللحظة أبدية وخلوداً. إنه وحده الذى يستطيع أن يشفى، وينقذ، ويجمع بين كل الأخطاء والهفوات، ليخرج منها بنتيجة مفيدة).

وفى قصيدة أخرى، «الإهداء»، التى استهل بها الطبعة الأولى من مجموعة أعماله، تخاطبه سيدة قلبه التى كانت – بعد إعصار شبابه – مصدر قوته المعنوية وصحوته الذهنية فتقول:

(ما إن تحس بأنك قد سيطرت على إرادتك المراهقة، حتى تظن أنك مخلوق آدمى فريد، (سوبرمان) فتنسى واجبك كرجل. اعرف نفسك وعش مع الدنيا فى سلام).

وتعتبر هذه القصيدة عن مفهوم رسالة الشاعر عند «جوته»، وهى كرسائل غيره من الناس، أن ندفع الإنسانية وحبها إلى الأمام. وهذا معناه للفرد حرية تقرير المصير عن طريق سيادة النفس، وللمجتمع، التعاون فى المعين، إن مهمة الشاعر أن ينقل (لإخوته) خلال الشعر طريق الحقيقة والحياة. والشعر بعمله هذا يرفع عن البشرية عبء الحياة الثقيل. (يصبح النهار جميلا والليل وضيئًا).

وجاءت إنسانية جوته الناضجة بعد (ثورية) شبابه هذه كما جاءت (القيثارة السحرية) لموزارت بعد دون جيوفانى أن (فاوست) و(دون جيوفانى) من أشخاص عصر النهضة، على حين أن الرسالة التى تعبر عنها إنسانية جوته، والقيثارة السحرية، والسيمفونية التاسعة لبيتهوفن، وناتان الحكيم لليسنج، والعالمية الأخلاقية لكانت، كلها - من القرن الثامن عشر من صميم سادة الحضارة الحديثة - وهذه الرسالة منطوية أساسًا على أمل فى الإنسان وفى الإنسانية، على أن تفاؤلها كان يمازجه وعى بتعقد الكفاح والحياة الإنسانية كلها وبعثراتهما. وقد كتب جوته (لعله لم يحدث قط أن عزل الأفراد أنفسهم وتفرق كل منهم عن الآخر أكثر مما يفعلون فى الوقت الحاضر، فكل منهم يود لو تقمص العالم مثله من داخل نفسه) ولكنه كان يعرف (أن الإنسانية فى مجموعها فقط هى الإنسان حقيقة وأن الفرد لا يمكن أن يكون مسرورًا أو سعيدًا إلا إذا كانت لديه الشجاعة ليشعر بأنه جزء من المجموع). - المجموع الذى هو الإنسانية وليس أى جماعة قومية أو أبرشية. وكان جوته مقتنعًا بأن كل إمكانية فردية لها أهميتها ويجب تنميتها. «إن الناس جميعًا هم الذين يكونون الإنسانية، وكل القوى مجتمعة هى فقط التى تكون العالم». إن ثقة جوته بصحة الإنسانية العالمية تجد أجمل تعبير لها فى (أيفيجينى).

ونفس رسالة الإنسانية وأملها تفتح وتختم الجزء الثانى من مأساة فاوست. وإيمان جوته بإنسانيته المتفاعلة لم يدعه ينهى «فاوست» كمأساة لم تنته الرواية باللعنة والجحيم كما فعلت مثيلتها العظيمة فى عصر النهضة. وفى المشهد الافتتاحى للفصل الثانى، يرحب فاوست - وقد استفاق من مأساة كريتشين المحطمة - بالصباح الهادىء، ويحمد بعرفان وفاء الأرض التى تحوطه بالبهجة. وفى تمجيده للحياة والطبيعة،

لم تصدر عنه صيحة ألم، ولم يفرق فى الندم على نفسه أو الرثاء لها وفيما بعد، فى إحدى مرات استعادته الرائعة الشعرية للشباب، عندما فرح «يوفوريون» ابنه من هيلينا بقصف العاصفة وجرأتها، حذره أبوه من الجرأة وثورة العاطفة، وأوصاه بدلاً من ذلك بالرقة والاعتدال. وعلى الرغم من أن ذوق «يوفوريون» يفوق فى جماله وروعته ذوق فاوست فى الفصل الأول، فإن فاوست فى الفصل الثانى يرفض هذا المنظر من الحيوية والقوة الديونيسية ويبتهل لإنهائه. ودعوة «يوفوريون» إلى الحياة الخطرة، وللحرب والنصر، تجعل الكورس يخرج ذلك الجواب الحزين من أن كل من يعيش فى سلام ويرغب فى مجىء الحرب فقد حرم نفسه من الأمل والسعادة - وهى كلمات المفتاح للحضارة الحديثة.

وظل جوته الناضج على اهتمامه بالرجل العادى وعلى ثقته بقوة الاعتدال الإنسانى وكان يعرف أن الحماسة الزائدة والتشاؤم الزائد يعرضان بالتساوى نسيج الحضارة الحديثة الرقيق للخطر. ويشيع فى الفصل الثانى من فاوست شعور جوته العميق بعدم الثقة - وهو يتفق فى ذلك مع رجال مثل «ميل» أو «أكتون» - بقوة الدولة وبالإنسان العالى. وفاوست جوته رخص لتصوير «سينجلر» المتشائم لفاوست فى تجاوزه بأنه المثل الحقيقى للحضارة الحديثة. وفاوست سينجلر (إنسان عال superman) من عصر النهضة ألمانى رومانتيكى لا يهتم بالحدود التى وضعها الشعور العادى والإنسانية العادية لكى تجعل الوجود المحتمل ممكنا فى العالم المعقد الجمعى فى العصر الحديث. وقد كتب جوته محذراً «ليس أبعث على الحزن من رؤية السعى الشاق المفاجىء وراء غير المشروط فى هذه الدنيا الكاملة الشرطية؛ ولعله يبدو فى سنة ١٨٣٠ أقل تناسبا من أى وقت مضى».

وقد تعلم «جوته» مثل «كانت» أن يحترم الطبيعة البشرية وعمل كل فرد. وهو بوصفه شاعرا وقارئا للقلب البشرى ، قد عرف أن الطوائف الفردية والجماعية والأمانى المستحيلة المنال موجودة دائمًا لتهدد الحضارة وتفسد نظامها. وكان ينظر إليها على أنها ميراث ومخلفات باقية لماض بدائى ترجع فى الأغلب إلى وثنية قبلية أو بطولية.

ولكنه لم يكن يعتقد أن تأثير الماضى هذا أمر حتمى لا مناص منه. وكتب فى سنة ١٨٠٧ «لست أحب إبداء العواطف الثائرة. وإن كان يسعدنى أن أوافق حيثما يلمع قبس إنسانى صغير» وكان «جوته» طوال حياته الناضجة يؤيد الحرية الشاملة للعقل، وحكمة الاعتدال والتسامح وهى القيم الأساسية للحضارة الحديثة.

لم تعش أى حضارة ملتزمة الوفاء لقيمها، ولم تكن ثمة حضارة مثل الحضارة الحديثة فى جدتها وصعوبتها، وتعقدها ومن ثم فما من حضارة أخرى ووجهت مثل ما تواجه به من الشكوك الدائمة التجدد، والإنكار، والضياع، من العودة الدائمة التكرار للماضى القبلى والقومى، والأساطير والإيمان بالخرافات التاريخية. وفى كل الحضارات التى فوق المستوى البدائى. كان يوجد الشواذ والدخلاء. ولكن الإنسان حتى عهد قريب كان يشعر بالأمان فى الإطار الصارم للطائفة أو القبيلة، فى الدين أو الطقوس ومن ثم كان يلتزم بإخلاص حدود التقاليد المرعية ويخضع للتطورات فى مجتمعه الخاص. كان التطابق هو الاتجاه العادى المقبول فى العالم، ولم يكن يمثل مشكلة ما. وفى القرنين التاسع عشر والعشرين كان التوحيد فى العالم الغربى أقل منه فى أى مكان من قبل. ولكن منذ أن بدأت الحضارة الحديثة فى تحرير الفرد والمطالبة بحقه فى تقرير مصيره وباستقلاله من ربقة التقاليد والسلطة - وكان أول صوت نادى بتحقيق هذا الهدف هو صوت ميلتون - أصبح التطابق مشكلة. وحذر إميرسون وميل وإبسن ونيتشه، الرجل العصرى ليحتاط من خطره. ولقد يعتبر الرائد الفريد أو رجل الحدود الذى تخلى عن أمن الجماعة والعرف واجترأ على تحدى التقاليد والمحظورات على أنه الصورة التى تمثل الحضارة الحديثة.

والتحرر من القواعد الاجتماعية والموانع التقليدية الذى جعل التوحيد مشكلة، وموضوعا أثار أشجان كثير من الكتاب والدعاة القدريين فى السنين الأخيرة، هو نفسه الذى سهل أيضا ظهور رجال وحركات ادعوا لأنفسهم حقوقا خاصة وفرضوا علوهم على غيرهم أو امتيازاتهم الممنوحة لهم بحق من الله أو الطبيعة أو التاريخ. وكانت مثل هذه الاتجاهات أيضا «عادية» قبل نشوء الحضارة الحديثة. وأفكار الشعب المختار وأرض الميعاد لها أصل موغلٌ فى القدم أيدته ورحبت به بعض الاتجاهات الدينية ولذلك كانت امتيازات العائلات أو الطبقات التى تدعى أن الفضل الإلهى هو المبرر لمركزهم الممتاز العالى فوق الرجل العادى أو فوق الطبقات الأخرى. وقد أعطى عصر التحرير

العظيم الذى بدأ مع «الاستنارة» الفرصة للرجال والطبقات التى لم تكن لها امتيازات من قبل، ليتفوقوا على الطبقات والأجناس والرجال العالين الذين كان اختيارهم مقدسا من قبل. وهذه الفرصة، كأى فرصة أخرى، يمكن أن يساء استعمالها. وقد جاء الإسكندر وقيصر من بين الأرستقراطيين القدامى، والظاهرة الجديدة فى بونابرت لم تكن طلبه السيادة أو مده ذراعيه لأهداف إمبراطورية عالمية، بل كانت بسبب مجيئه من الطبقة الدنيا فى المجتمع، رجل من لا أين، ارتفع إلى النجوم بجرأته الخاصة، وثقته بنفسه وبقوته، دون مساعدة من عرف أو امتياز لأسلافه. وقد رفع كارل ماركس بنفس الطريقة طبقة من أعماق المجتمع حيث كانوا مضيعين ينسلون من قاطعى أخشاب وحاملى مياه لا يدرى عنهم أحد شيئًا، إلى السادة المنتَظَرين للبشرية ومنقذيها. وقابلية الحضارة الحديثة للحركة هى التى جعلت فى الإمكان قيام جماعات جديدة من – السوبر مان –.والجماعات الممتازة. ولكن طريقتها النقدية والعقلية، واهتمامها بالمساواة بن جميع الرجال بصرف النظر عن الأصل أو المركز، مالت فى نفس الوقت إلى نظرة أكثر موضوعية لحقوق الأفراد والشعوب، ونزعت عنهم التبرير الدينى.. أو الدينى المزيف لامتيازاتهم.

والحضارة الحديثة، بقابليتها للحركة الاجتماعية وتقريبها للمسافات بالطرق الفنية، قد زادت التوتر واحتمالات النزا ع. إنها تشجع على بذل العمل الشاق من أجل التحسين أو التفوق فى الكيف وفى الأهداف. ويكمن عنصر المنافسة الشديدة فى محاولة البحث التى لا تتوقف، وفى التقدم المتصف دائمًا بعدم الاستقرار فى الحياة الحديثة. ولكن يخفف هذه الميول، الاهتمامات بالرفاهية العامة، والحقوق المتساوية، وزيادة السعادة والأمل مادامت تتوقف على التدابير الاجتماعية أو الإرادة العامة.

وعلى الرغم من أن الأفراد، والجماعات، وفوق كل ذلك، الأجناس والأمم، كثيرًا ما تجرم فى حق هذه الاهتمامات، إلا أنها تتجه فى النهاية إلى فرض نفسها، حيث تكون الحضارة الحديثة – وهى حضارة حديثة العهد جداً وتجريبية – قد مدت جذورها. وهى تفهم – رغم حركتها – القوة البناءة للتفكير بعيد المدى وللصبر. وبين الشعوب التى لم تثبت فيها جذور الحضارة الحديثة، يجدون أخيرًا العمل البات و«الحيوية المندفعة» ضد

التردد الضعيف والإنسانية «العاطفية» التى كثيراً ما اتهمت بها الحضارة الحديثة. وفى وقت حدوث تغيرات لم يسبق لها مثيل - والحضارة الحديثة تقدم بالمقارنة بالحضارات الأخرى تغيراً دائماً، ومتزايد السرعة باستمرار - يكون خطر توقع الكثير جدا مثل خطر المطالبة بالقليل جدا. والإنسان لا يستطيع أن يحل كل المشاكل أبدا، ولكنه يجب أن يحاول دائمًا أن يحل - ولو بشكل غير كامل - أكثر ما يستطيع منها. والقدرية غريبة عن الحضارة الحديثة مثل مذهب المسيح المنتظر والطوبية والعدل المطلق أو الحرية الشاملة لا يمكن إقامتها على هذه الأرض ولكن الرجال الأحرار يمكنهم دائمًا وفى كل مكان أن يكافحوا ضد الظلم والاستبداد، ويجب فوق كل شىء أن يفعلوا ذلك فى مجتمعهم الذى يعيشون فيه. إنهم يستطيعون أن يفكوا بعض الأغلال، وأن يخففوا بعض الأعباء. وأن يسعدوا بعض القلوب، إن الحضارة الحديثة لا تحمل رسالة الخلاص بل رسالة الأمل، لهذا الجيل وللأجيال القادمة، على هذه الأرض وحيثما يبلغ امتدادها.

إن الاهتمام بالمستقبل وبالأمل يميز الحضارة الغربية، ولا علاقة للمستقبل فى معناه هنا «بمستقبلية» مارينتى أو ما ياكوفسكى، تلك الحركة الفنية التى كانت فى أوائل القرن العشرين تقدم كاريكاتيرا للعصر الحديث مضاداً للغرب. وقد بدأت فى إيطاليا «قبل الفاشية» وازدهرت لفترة قصيرة وقت مولد البلشفية الروسية، وقد كانت إحدى علامات معاناة الشعوب التى قاست من الاندفـاع المفاجىء لحركة التصنيع الحديثة فى مجتمع لم يتحضر بعد.

وكان الاهتمام بالأمل وبالمستقبل أقوى ما يكون فى الولايات المتحدة. وكان والت وينمان أهم شعرائه. وقد كتب توكڤيل فى ملاحظاته الختامية فى «الديموقراطية» فى أمريكا، عن المجتمع الحديث المنبثق: « على الرغم من أن الثورة القائمة فى الوضع الاجتماعى، وفى القوانين، والأفكار، ومشاعر الناس لا تزال بعيدة عن نهايتها، فإن نتائجها لم تعد تسمح بأى مقارنة بأى شى شهده العالم من قبل. إنى أعود القهقرى عصراً بعد عصر حتى أبعد أعماق التاريخ، ولكنى لا أجد مثيلا لما هو حادث أمام عينى...».

لم يحدث أن وجهت حضارة سابقة كما توجه الحضارة الأمريكية الحديثة نحو المستقبل، ولا كانت هناك حضارة تحدوها مثل معرفة أن الإنسان يمكنه بمجهوده أن يغير، وسيغير كثيراً من المفاسد والشرور التى ظل يحتمل آلامها بصبر على مر العصور. وكان مفهوما أن هذا التوقع كثيرًا ما تحلل إلى عقيدة جامدة من التقدم السريع الحتمى الذى قد ينتج فى مستقبل غير بعيد ظروفا مثالية على الأرض. إن الإيمان الطوبى بعودة المسيح لينشىء عالما مثاليا، وذلك الإيمان الذى عرفته جيداً الحضارات السابقة على الحضارات الحديثة، وعرفته الحركات الدينية، يعرض الحضارة الحديثة للخطر أيضًا. ولكن لما واجهت هذه الحضارة صعوبات ناجمة عن طبيعة الإنسان أو الأشياء، أو عن صمود الاتجاهات والأساطير التقليدية القديمة، بدأ الخطر المضاد، الذى عرفه الماضى تمام المعرفة، طبعًا، فى تهديد الحضارة الحديثة،

وتحول الناس من تلك الثقة بالنفس والمغالاة فى التفاؤل التى اتسم بها القرن التاسع عشر إلى رؤى متشائمة لعصر تحكمه الغيبيات وتفنى فيه الحضارة الحديثة وحرياتها.

ومثل هذه الندبة قديمة قدم الأسى على فساد العصر وشروره، وعلى غارات الأساليب الفنية الحديثة والمادية، وعلى الحرب والهمجية. ولقد أقلق التقدم الفنى واللعنة التى تصاحبه هوراس فى عصر أوغسطين. (النشيد ١ و٣).

إن الرجال وهم يتحدون كل الأهداف لينتصروا يطأون الأرض المحرمة ويندفعون فى الخطيئة «إذ لم يعد شىء يعلو فوق مثال الإنسان. وتنطلق نزواتنا الماجنة فترقى بنا إلى ما فوق السموات».

وقد جعل فزع الحرب هوراس يتنبأ بخراب روما (النشيد ١٦):

« بين شوارعها ومعابدها

سيرقد الذئب الجبلى ...

وسيطأ البرابرة رمادها البارد بخيولهم » .

ودعا الرومان إلى الهروب إلى الجزيرة الغربية المباركة وأن يقسموا ألا يعودوا مرة أخرى. وبالمثل فى الحروب الدينية فى القرن السادس عشر كتب «إيتين» فى قصيدته إلى صديقه مونتان: «أى قدر كتب علينا أن نولد فى أوقات كهذه! إن بلادى تموت أمام عينى ولا أجد سبيلاً إلا أن أهاجر، وأن أترك بيتى، وأذهب إلى حيث يحملنى القدر.. وعندما ظهرت دنيا جديدة من المحيط فى نهاية قرننا، فقد حدث ذلك لأن الآلهة أرادت أن تنشىء ملجأ يستطيع فيه الرجال أن يفلحوا حقولهم تحت سماء أفضل، بينما يحكم السيف القاسى والطاعون المخجل (الحرب) على أوروبا بالفناء»

والشعور بعدم الأمان المرعب والرهبة من الأهوال التى لا توصف، طاردت البشرية عدة مرات. ولكن الوحشية والطغيان كانا فيما سبق يقبلان على أنهما أمر عادى، ورفعت الحضارة إحساسنا المعنوى حتى احتجبنا ورفضنا سلوكا وعلاقات كانت

الأجيال السابقة والحضارات الأخرى تعتبرها «طبيعية». وثورة الاحتمالات الناشئة، التى بدأت فى أمريكا - الإنجليزية فى القرن الثامن عشر وتكتسح الأرض اليوم، تعنى أكثر من تقدم اقتصادى وفنى. إنها تتميز بمطالب جديدة وعالية من الخلق العام والمسئولية المدنية وبالأمل فى كرامة أعظم للحياة الإنسانية. لقد كانت ثورة الاحتمالات الجديدة هذه هى التى أقامت أفضلية الغرب الحديث على الحضارات الأخرى. وتميل اليوم هذه الأفضلية إلى النقصان والاختفاء لأن الثورة أصبحت عالمية.

ولم يكن الغرب حتى وقت قريب أفضل من الحضارات الأخرى على أى وجه، فمن حيث جمال المعيشة وما حققته الثقافة، كان الشرقى فى وقت الحروب الصليبية يتفوق كثيراً على الغربى. وكان أحد أسباب الحروب الصليبية هو زيادة عدد السكان والمجاعة فى أوروبا المتخلفة، آنذاك، والبربرية بالمقارنة للشرق، وقد أثرت الثقافة الإسلامية والعربية على النمو الثقافى للغرب. وفى إسبانيا القرن الحادى عشر ترجمت كثير من المؤلفات العربية إلى اللاتينية وجاء كثير من الأوروبيين «ليستقوا من معين الثقافة الإسلامية» وكان الإمبراطور فردريك الثانى أذكى أباطرة هوهنز توفن فى النصف الأول من القرن الثالث عشر، يعجب بالحضارة العربية لسعة أفكارها وزيادة حرية جوها الثقافى. وبعد ذلك بنصف قرن قص ماركوبولو أعظم الرحالة المسيحيين فى القرون الوسطى عجائب المدن الكبيرة التى وجدها فى آسيا. وفى القرن السابع عشر فقط حقق الغرب تفوقه الذى أقامه على أساس من وعيه بضرورة التحلل من التقاليد القديمة وعلى روحه الجريئة. وفى منتصف القرن التاسع عشر كان الغرب يعتقد بدوام تفوقه المؤقت، وقد كتب رانك فى سنة ١٨٧٩ «إن روح الغرب قد أخضعت العالم» وهذا النجاح ذاته، على أى حال، يحدد بداية النهاية للتفوق الغربى.

إن عمى الحضارة الغربية عن التغير فى العلاقة الذى تتضمنه حركة التاريخ يزيد غرابة، حين نذكر أن الحضارة الغربية كانت أول من فهم الطبيعة التاريخية للإنسان ولكل فكره وأوجه نشاطه، وقد كانت هناك كتابات تاريخية عظيمة فى الماضى قبل نشوء الحضارة الحديثة، وعلى الخصوص بين الإغريق. وكانت هناك شعوب كالشعب الصينى مثلا يشعرون بعمق بماضيهم وبتأثيره على الحاضر. وكان هناك إصرار على حياد التاريخ، وموضوعيته تذهب إلى المدى الذى يمكن أن يتطلبه فى أى وقت عالم من علماء الوقت الحاضر. وقد أعطى لوسيان - وهو مؤرخ يونانى متشكك عاش فى القرن الثانى من عصرنا - الوصف التالى للمؤرخ المثالى: «لا يعرف الخوف، غير قابل للفساد، حر، صديق للتعبير الحر والحقيقة، مصر... على تسمية الجوافة. جوافة والإناء إناء، لا يتأثر بالكراهية أو الصداقة. لا يفضى عن أى شخص، لا يظهر رثاء ولا خجلاً ولا خضوعًا، قاض محايد، حسن السلوك مع كل الرجال إلى الحد الذى لا يعطى فيه جانبًا أكثر مما يستحق، غريب فى كتبه ورجل لا ينتمى إلى بلد من البلاد، مستقل، لا يخضع لأى سلطان. غير عابىء بما يظنه هذا الرجل أو ذاك، ولكنه يقرر الحقائق». وكتب بيير بايل من روتردام فى أول القرن الثامن عشر أن «المؤرخ بوصفه مؤرخا هو كأنه بلا أب، ولا أم، ولا أجداد. ويجب حين يسأل من أين جاء: أنا لست فرنسيًا ولا ألمانيًا، ولا إنجليزيًا ولا إسبانيًا. أنا مواطن عالمى. أنا لا أخدم الإمبراطور أو ملك فرنسا، وإنما أخدم الحقيقة وحدها: إنها مليكتى الوحيدة التى أقسمت على طاعتها».

وقد اعتبر عصر «الاستنارة» فى بعض الأحيان عصر العقل دون فهم للتاريخ. ولكنها لم تكن مصادفة أن تصبح الحضارة الحديثة، ولها جذورها فى «الاستنارة» أعظم الحضارات وعيًا للتاريخ: امتد حب استطلاع الاستنارة وحسها النقدى إلى التاريخ أيضًا. ومنذ القرن الثامن عشر فقط نجح التاريخ، بوصفه علمًا، ببحثه فى المصادر وتحليله النقدى لكل التقاليد. وقد فتح علم التاريخ منذ ذلك الوقت مسالك فكرية جديدة تمامًا ليست أدنى عندئذ من العلوم الطبيعية. لقد كشف مواطن بعيدة مجهولة،

وطبق وسائل جديدة، وجعل علم أصل الإنسان وعلم النفس والعلوم الاجتماعية تترك أثرها على فهمنا لماضينا الخاص وعلى اكتشافنا لكل الحضارات الأخرى. لقد أعاد إلى الشعوب غير الغربية الوعى لتاريخهم الخاص وجرهم إلى الإدراك المتزايد لوحدة التاريخ والبشرية، وكذلك كانت الحضارة الحديثة فى نفس الوقت أكثر الحضارات ثورية تدفع إلى حدود دائمة التجدد، وأكثر الحضارات وعيًا للتاريخ، وكما اكتشفت القياس المكانى للكرة الأرضية، فقد وسعت القياس الزمنى للتاريخ. وقد تضمنت هذه المكاسب أخطارًا على الحضارة الغربية. وقد جعلت منها حركة روحها التجديدية فرنسية سهلة للتمنيات الطوبية والغرور، وجعلت منها تاريختها فريسة سهلة لطغيان الماضى. ولعل التعلق بالماضى كان أقل خطرًا فى الولايات المتحدة، الدولة التى ولدت فى عصر الاستنارة» والتى امتدحها جوته فى قصيدة مشهورة له كتبها فى سنة ١٨٢٧ بأنها أحسن حظًا من أوروبا لأنها لا تملك قلاعًا مهدمة، ولا أحجارًا موقرة، ولا ذكريات لا جدوى منها، ولا خصومات من الماضى، تمنع الأمريكيين من أن يعيشوا فى الحاضر.

وقد زادت القومية الحديثة فى الأمم الأخرى من تأثير التعلق بالماضى على الأجيال الحاضرة. وقد اعتبرت الدولة، وهى نتاج تاريخ طويل، المنشئة لكل القيم الثقافية. وكتب إرنست موريتز آرندت فى أول القرن التاسع عشر، «كل الأشياء العظيمة التى يفعلها الرجل، ويكونها، ويفكر فيها، ويكتشفها بوصفه بطلاً، أو فنانا، أو مشرعا، أو مخترعا، كل هذا يأتيه من الدولة فقط». كان المعتقد أن الدولة تحدد الرجل، فكره ومشاعره، وكان المفترض أن هذه الدولة تعود بمادتها دون أن تتغير إلى ألفى سنة وأكثر. ويلجأ آرندت ككثير من القوميين الألمان، إلى تأسيس الكاتب الرومانى، كشاهد على استمرار الطابع الألمانى، وقد لاحظ آرندت بفخر أن تاسيتس تنبأ بمستقبل الألمان الباهر المبنى على خلقهم ونقاء جنسهم. وكتب آرندت «ولكنه كان يدرك كيف كان مهما، دون كل الأشياء، لعظمتهم ومجدهم القادم، أنهم احتفظوا بنقاء دمهم وأنهم لا يشبهون إلا أنفسهم»، وأنهم كانوا يعيشون حياة ألمانية حقة بكل معنى الكلمة دون تأثيرات غريبة. ولجأ بالمثل ما تزينى وموسولينى إلى عظمة روما منذ ألفى

سنة بوصفها مرشدا للإيطاليين العصريين. ويؤيد الإعجاب بالماضى قومية مركزة على نفسها، ويرفض التحرر العالمى الذى كان يصاحب نشوء الحضارة الغربية الحديثة. وبين أن القوى التاريخية فى الجزء الأول من القرن العشرين كانت القومية أول ما أضعف الحضارة الغربية إلى درجة أنها ضاعفت أسسها الخاصة للحرية الفردية والتبادل العالمى الحر.

لقد أشعلت القومية الحرب الأوروبية فى سنة ١٩١٤ . والأمانى والمنازعات القومية التى كانت كالطاعون فى وسط أوروبا، والتى لم تحل جعلت النار تلتهب ولم تظل محصورة فى وسط أوروبا. لقد انتشرت نتيجة لمحاولة ألمانيا تحقيق زعامتها لأوروبا التى كانت قد وضعت أسسها فى حكم بسمارك. وهذا التحدى للتوازن الأوروبى أثار معارضة إنجلترا. وسرعان ما تحللت الحرب إلى حرب أهلية فكرية داخل نطاق الحضارة الغربية. وقد تخلت روسيا وألمانيا عن الحضارة الغربية، وانقلبتا ضدها، وإن اختلفت طريقتهما وفقًا لتقاليدهما الخاصة. ورفضت الديموقراطيات الغربية، بعد أن كسبت الحرب، أن تتخذ المبادأة التاريخية الجزئية اللازمة لبناء نظام جديد لإعادة الحيوية إلى الحضارة التى كانوا يزعمون الوقوف إلى جانبها.. إنها تدرك الجروح العميقة التى أصابت بها الحرب ونتائجها العقل الأوروبى، ولا ما نشأ عن الحرب من تحول علاقات القوة على مستوى عالمى.

وقد عبر بول فاليرى فى «الأزمة الروحية» فى سنة ١٩١٩ عن خوفه من أن تفقد أوروبا زعامتها العالمية، نتيجة للحرب، وتصبح ما كانت عليه حقيقة، رأسا صغيرة لقارة أسيا. وعندما ألقى بنظره للخلف على الحرب، علق فى محاضرته «الأوروبى» (١٩٢٢) على عدم الاستقرار العام وعدم اليقين الذى كان يميز السنين التالية للحرب مباشرة، كأنما العاصفة التى انتهت على وشك الهبوب «ليس ثمة رجل مفكر، مهما يكن ذكاؤه وثقافته، يستطيع أن يأمل فى التغلب على هذا القلق، والهروب من هذا التأثير المظلم، وقياس المدة التى يحتمل أن تبقى فيها هذه الفترة، عندما يكون اضطراب علاقات الإنسانية الحيوية عميقا. يمكن القول بأن كل ما هو أساسى فى عالمنا قد تأثر بالحرب، أو على وجه أدق، بظروف الحرب؛ لقد ضاع شىء أعمق من الأجزاء التى يمكن تجديدها من الآلة. أنتم تعرفون كيف كان اضطراب الموقف الاقتصادى العام كبيراً، وسياسة الدول، وذات حياة الفرد... ولكن بين هذه الأشياء المصابة الذهن. لقد جرح الذهن بوحشية حقًا... إنه يقضى على نفسه بحكم محزن. إنه يشك فى نفسه بعمق».

إن حرب سنة ١٩١٤ ببقائها فترة طويلة لم تكن متوقعة، وبمذابحها وآلامها فى الخنادق، ومتعتها وانتهازيتها فى داخل البلاد، قد أضعفت وهدمت الثقة فى صحة الحضارة الغربية. وقد بدت الكارثة من قبل فى تصورات وتنبؤات فنانى القرن التاسع عشر ومثقفيه، الذين أصبحت رغباتهم حقيقة قوية فى القرن العشرين. وقد اكتسبت الكارثة عزما فى العقد السابق على الحرب بازدياد ضغط طريقة دوستويفسكى المحمومة على الغرب، وبالمذهب التعبيرى الألمانى، وبالاتجاهات الجديدة فى الفنون البصرية وفى الموسيقى. ولكن الحرب فقط - وكان الهبوط فى الولايات المتحدة بعد ذلك بعشر سنوات - هى التى كشفت عمق كارثة الحضارة الغربية. ورغم أنها كانت تبدو منتصرة فى الحرب، فقد خرجت الديموقراطية أو الحضارة الغربية ضعيفة فى الحقيقة. ولم يكن نشوء الفاشية والشيوعية وتقدمها راجعًا إلى قيمتهما الحقيقية أو إلى عيوب معاهدة السلام - وبعد فلم تكن روسيا وإيطاليا واليابان بين فرائس معاهدة فرساى - بل إلى الافتقار إلى القوة البناءة والرأى الشجاع فى زعيمتى الدول الغربية، الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى.. ولم يكن الركود راجعًا إلى عوامل اقتصادية. لأن الولايات المتحدة، على الأقل، كان يعلن عنها لمواطنيها وللأوروبيين المبهورين بوصفها من معجزات الثراء. كانت جذور الركود ترقد فى التعب الروحى، والاستهلاك الواضح لمنابع إلهام الحضارة الغربية، الذى عبر عن نفسه فى الإيمان بالشر وفى خليط عجيب من اليأس وحب الذات. ونافست الأنانية الشخصية الأنانية القومية التى أدت إلى سياسة العزلة وتبادل اللوم بين الأمم الغربية.

وكان دليل الكارثة هو انهيار السلام الذى بدأ - وهو صحيح كنموذج خلقى للحياة، وكشاهد على التضحية والاستشهاد. وكالملح للأرض ومذكر بالحقائق - فى إذكاء الأنانية وزعامة الشعوب، يعدهم بالسلام والسعادة إذا لم يحاربوا من أجل إخوانهم. وفى سنة ١٩٣٠ كانت النتيجة العكسية أن أنصار السلام ساعدوا أكبر قوة معادية للسلام على الأرض. ولم تبق بعد ذلك إلا خطوة ليؤكد نصير السلام أن الفاشية تعنى السلام حقا، قابلا بطريقة مقنعة كثيرًا من مزاعمها واتهاماتها ومبررًا فى آخر الأمر للمعتدين ومخطئًا لضحاياهم. وتحولت فكرة عدم مقاومة الشر إلى إنكار وجود الشر،

وإلى اللجوء إلى قبول الشر وتجاهل الظلم. وهكذا أصبحت السلم، وهى المذكر والشاهد على الحقائق، فى العشرينات والثلاثينات أحد العناصر التى يمكن للفاشية أن تستعملها وتسىء استعمالها لهدم الحقائق.

وقد فهم قليل من الفكرين فى سنة ١٩١٧ – السنة الحاسمة فى تلك الفترة – أن الحضارة الحديثة وحرياتها لا تستطيع أن تعيش بعد الحرب إلا بأن تستوعب القومية المركزة على نفسها والاستعمار.. وكتب نودمان آنجيل حينذاك فى كتابه «الظروف السياسية لنجاح الخلفاء»: «إن بقاء الديمقراطيات الغربية، فى خصوص استعمالها لقوتها بشكل فعال، يتوقف على قدرتها على استعمالها موحدة فى الحرب وبعدها، ونحن لم نتوصل إلى هذه الوحدة، حتى لأغراض الحرب. لأننا رفضنا أن نتبين ظروفها اللازمة – نوع ودرجة من الدولية الديمقراطية التى تعاديها المشاعر والأفكار السياسية الجارية، دولية ليست لازمة للعدو وإنما لازمة لنا. إنه يستطيع تجاهلها بشكل ما، ولا نستطيع نحن ذلك. إن وحدته فى خصوص قيامها على عوامل معنوية، يمكن أن تقوم على مفاهيم قومية قديمة، وتعتمد وحدتنا على مراجعة هذه العوامل، على توسيعها إلى دولية. إن أكبر العقبات فى سبيل جمعية دائمة للأمم يكون بها أمن كل دولة قائمًا على قوة المجموع هو عدم اعتقادنا بإمكانها وخضوعنا لتقاليد السيادة القومية والاستقلال. ولو كنا نعتقد فيها، ونرغبها، لما كانت ممكنة فقط بل حتمية. والعودة إلى العلاقات القديمة بعد الحرب سيضطر الأمم لديموقراطية، إن عاجلا أو آجلا، مهما تكن كل منها قوية على انفراد، إلى الخضوع إلى مجموعة، أقل فى القوة ولكن أكبر فى الوحدة المادية – تلك الوحدة التى تحققها الأوتوقراطية على حساب الحريات والقيم الإنسانية». وهذا التحليل لسنة ١٩١٧ حققته حوادث سنة ١٩٤٠ .

وقد أبدى تورستن فيلبين فهما مماثلا للقوى التى تحدد سير ألمانيا واليابان فى الحرب العالمية الأولى فكتب فى يناير سنة ١٩١٧ «بحث فى السلم وشروط دوامه» وهو عمل مدين لعمنوائيل كانت: «إن الخطط الاستعمارية لألمانيا واليابان من بين أهم الملابسات فى الموقف الراهن. وهاتان الأمتان تتشابهان شبهًا كبيرًا ... فكلتاهما فى الواقع تتجه بشكل لا يمكن إصلاحه إلى شبه حربية. ولن يسمح بأى حال لاعتبارات العدل،

أو الإنسانية، أو الحقيقة، أو الصالح العام أن تعرقل السعى إلى السيطرة». وقد واجه فيبلين مسألة كيفية إقامة تحالف سامى مع هاتين القوتين اللتين كان يسميهما دولا ملكية نظراً لطابعهما شبه الإقطاعى. وقد توقع فيبلين فى سنة ١٩١٧ سير الحوادث فى العقود الثلاثة التالية، محذراً من أن أى معاهدة سلام مع ألمانيا واليابان «ستكون بالضرورة مساوية لترتيب فترة نقاهة لهجوم جديد للخطة الملكية... وأعلى نهاية لكل محاولاتها هى السيادة الاستعمارية، ومتابعتها لا تعفى أنصارها من ملاحظة أى التزامات صغيرة تجرى مضادة لاحتياجاتها فحسب، ولكنها أيضًا تفرض التزاما خلقيا بالاستفادة إلى أقصى حد من أى فرصة تعرض للغش الانتهازى والخداع. وبالاختصار، فإن رجل الدولة الملكى يكون تحت وصاية نظام أخلاقى فوقه، يربطه بخدمة طموح بلاده الذى يجب عليه أن يكرس له كل قدراته على القوة والخداع. وقد يجد الأشخاص ذوو العقول الديموقراطية بعض الصعوبة فى تقدير الصلابة الخلقية لهذه الروح من التكريس، وفى رؤية كيف أن حرجها العظيم سينحى جانبا الاهتمامات الصغيرة للوفاء والأمانة الشخصية، بوصفها موانع غير كريمة من الخدمة الواجبة. ولعل الولاء بهذه الطريقة يمكن أن يفهم إذا تذكرنا ما يماثله من هبة النفس عند المجذوب الدينى».

وكان فيبلين أحد القليلين الذين طالبوا الولايات المتحدة فى سنة ١٩١٦ بأن تدخل الحرب لمصلحتها الخاصة. وقد كتب: «تقع أمريكا فى موقع بالغ الخطورة بين بحرين على جانب كل منهما القوتان الاستعماريتان اللتان مكانهما فى الاقتصاد الحديث للدول هو تعكير السلام بالسعى المستمر للسيطرة، ولم يعد يمكن الدفاع عن هذا الموقف بالعزلة، فى ظل الحالة الأخيرة للفنون الصناعية، ولذلك أصبحت سياسة العزلة التى كانت تقود السياسة القومية حتى ذلك الوقت سياسة قديمة... ولم تعتبر البحار الفاصلة حماية كاملة، والذى كان صحيحًا بحق منذ خمسة عشر عامًا، أمر مشكوك فيه اليوم، وهو غير صحيح، فى كل توقع معقول للموقف بعد خمسة عشر عامًا. وقد تكون الشعوب الأخرى المحايدة الاتجاه فى حاجة ماسة لمساعدة أمريكا فى محاولاتها لحفظ السلام، ولكن حاجة أمريكا للتعاون أمس، لأن الجمهورية مقبلة على موقف أكثر خطورة من أى منها».

ولاقت كلمات فيبلن من قلة العناية مثلما لاقته كلمات نورمان أنجيل. حقيقة، أدخلت معاهدات السلام سنة ١٩١٩ فى إنشاء عصبة الأمم ومكتب العمل الدولى (الجزء الأول والجزء الثالث عشر من معاهدة فرساى) أكثر الخطوات التقدمية، جرأة وبعثًا للأمل فى العلاقات الدولية. وكانت النية أن تصبح عصبة الأمم أداة للسيادة العالمية للحق برضاء الشعوب الحرة الذى سيجلب السلام والأمن لكل الأمم ويجعل العالم نفسه حرًا فى آخر الأمر». وأعلن أن العناية بالعدالة الاجتماعية، وبحسن حال الأجزاء فى كل مكان، بدنيًا وخلقيًا وثقافيًا، أمر ذو أهمية دولية عالية، ولكن هذه النيات الحسنة لم تؤخذ جديًا. وأنكرت الحضارة الغربية نفسها، ولم تستمر القومية، والاستعمار، والفوارق الاجتماعية فحسب، بل زادت مرارتها بالنزاع القومى والطبقى، خصوصًا بين الدول المقامة حديثًا فى أوروبا الوسطى الشرقية. والمثل الذى قدمته الولايات المتحدة، وبريطانيا، وفرنسا لا يكاد يكون خيرًا منها. وقد حذر ودرو ويلسون فى سنة ١٩١٩ «إذا لم تقم الولايات المتحدة بالجزء القيادى فى خطة القوة الجماعية، فسيمر العالم بإحدى تجارب انعكاس العاطفة، وإحدى الرعدات النفاذة لرد الفعل، التى قد تؤدى إلى أن يعم العالم الشر». وقد حدث هذا. وقد أصبح شعور «الجيل الضائع» مميزًا فى كل العالم الغربى وساعد الحركات المضادة للغرب على تحقيق نجاحها لأنها تعد بملء الفراغ. وبدأت فترة من «Debunking» وكشف القناع عن الحضارة الغربية بوصفها ادعاء أجوف للأنانية والمصالح الاقتصادية القومية.

وقد سار سحق الحضارة الغربية مع سحق السلام يدًا فى يد. وقد تنبأ ويدرو ويلسون – بوضوح – بذلك. فقال فى كولوميس بأوهايو فى سبتمبر سنة ١٩١٩ «لم تكن ألمانيا لتدخل هذه الحرب لو أنها اعتقدت أن بريطانيا العظمى ستدخلها، ومن المؤكد أنها لم تكن لتدخلها لو أنها حلمت أن أمريكا ستدخلها، وإذا لم يوجد هذا التأكيد بالعمل المشترك قبل وقوع الخطأ، فستقع محاولة الخطأ، بمجرد أن تستطيع أكثر الدول طموحًا التخلص من الطائفة المالية لهذه الحرب» ولو حققت أمريكا أعز رغبات ألمانيا ولم تتحالف مع أولئك الذين حاربت إلى جانبهم، لكان من المحقق فى رأى ويلسون أن أمريكا كانت ستضطر خلال خمسة وعشرين عامًا إلى محاربة ألمانيا مرة أخرى إلى جانب نفس الحلفاء وعلى نفس ميدان المعركة، وقد حدث هذا بعد خمسة وعشرين عامًا

تماماً بعد أن تنبأ به ويلسون. لقد تنبأ بأن ألمانيا ستبدأ الحرب الجديدة بالتحرك شرقاً ضد الأمم الصغيرة الحديثة الاستقلال. وقد أعلن أن الطريق إلى الشرق هو طريق ألمانيا للسيطرة العالمية وأصر على أنه «إذا لم تقفلوا هذا الطريق فلن يكون لنا الخيار فى أن ندخل فى يوم أو آخر نفس الحرب التى انتهينا منها بالكاد».

وفى سنة ١٩٣٠ كانت القومية المركزة على نفسها والأنانية الطبقية فى الدول الغربية قد أضعفت الحضارة الغربية إلى درجة جعلت ألمانيا واليابان بعد عشرين عاما من الحرب الأولى تستطيعان بدء حروب زعامة جديدة، محتقرة الحضارة الحديثة، وبدا أنها فقدت هدفها فى سنة ١٩٤١ عندما وقف بوضوح الديكتاتوريون الشيوعيون والفاشيون، ستالين وهتلر وموسولينى وفرانكو متحدين فى معارضتهم للتحررية الغربية. وفقدت أوروبا كلها حريتها باستثناء الدولتين الصغيرتين سويسرا والسويد. ووقفت إنجلترا وحدها جزيرة منعزلة محاصرة. وفى ربيع سنة ١٩٤١ قام «يوزوك ماتزوكا» وزير خارجية اليابان برحلة طويلة إلى برلين وروما وجعل بلاده أوثق اتباطا بالمحوور الفاشى الأوروبى.

وفى طريق عودته توقف فى موسكو حيث قوبل بحفاوة وحرارة خاصة من الحكومة السوفيتية التى وقع معها معاهدة صداقة وعدم اعتداء فى ١٣ أبريل مدتها خمسة أعوام. وبعد شهور قلائل أضعف هتلر بنقضه تحالفه مع ستالين – كما فض ستالين تحالفه مع اليابان فيما بعد – التهديد القاتل للحضارة الغربية ممثلا فى أعدائها المتحدين. وقد اضطر الهجوم الذى شنته اليابان فى نهاية سنة ١٩٤١ ضد الولايات المتحدة، وهى تعرف أن مؤخرتها مؤمنة بمعاهدة الصداقة مع روسيا السوفيتية كما عرف هتلر أن مؤخرته مؤمنة بمعاهدة مماثلة عندما هاجم الغرب فى العام السابق، اضطر هذا الهجوم الولايات المتحدة الأمريكية أن تهب لمواجهة هذا التهديد الذى تعرضت له الحرية.

وقد هزمت الجهود المشتركة لبريطانيا وأمريكا بعد كفاح طويل الفاشية، وحررت كثيراً من أجزاء أوروبا، بالرغم من أنها لم تحرر شبه جزيرة أيبيريا وأوروبا الشرقية، وبذلك هيأت فرصة جديدة للحضارة الغربية.

وقد خرجت الحضارة الغربية، التى وصلت إلى غاية ضعفها فى سنة ١٩٤٠، قوية من الحرب العالمية الثانية. وعاد إلى الغرب الجزء الأكبر من ألمانيا التى أشعل انفصالها عن الغرب الحربين العالميتين. ولم تعد ريخًا بروسيا أو رومانيا، وأصبحت جمهورية اتحادية، وانتقل مركز ثقلها من أراضى حدودها الشمالية الشرقية إلى مناطقها الغربية التى كانت فى الأغلب ذات تاريخ ألمانى وربط الدول الغربية شعور جديد بالاتحاد والتشاور والتعاون، قوى روحها المعنوية، وساعد على استعادة درجة من الرخاء لا سابقة لها، بعد الخسائر المدمرة للحرب، وهو رخاء شارك. فيه لأول مرة كل طبقات الشعب. والحروب الفرانكو ألمانية التى كانت لعدة قرون ظاهرة تكاد تكون «طبيعية» فى التاريخ الأوروبى. أصبحت أمرًا بعيدًا عن التفكير فيه. وعلى الرغم من استمرار العواطف والمنافسات القومية القديمة بين دول شمال الأطلنطى، فقد كانت أقل كثيرًا من مرارتها السابقة ولم تمتنع من التعاون الذى لو أنه كان موجودًا قبل سنة ١٩٣٩ لحال دون الانتصارات الفاشية فى أوروبا. والذى نجح الآن فى حصر التيار الشيوعى عن الأطلنطى والبحر الأبيض المتوسط. وتعاونت أمريكا الشمالية مع أوروبا الغربية، وأصبح المحيط حلقة اتصال، وولت أيام مبدأ العزلة التى كانت على درجة كثيرة من الاهتمام بالذات فى سنة ١٩٢٠ و ١٩٣٠ .

ولدت منظمة حلف شمال الأطلنطى فى واشنطن، فى ٥ أبريل سنة ١٩٤٩ . وأعلن الرئيس ترومان عند التوقيع على الحلف: «إن الشعوب الممثلة هنا ترتبط معًا بروابط الوقوف معًا أمدًا طويلا. إننا يربطنا ميراث مشترك من الديمقراطية، والحرية الفردية، وحكم القانون».

وأكد هنرى سباك ممثل بلجيكا «أن حلف شمال الأطلنطى عمل ينطوى على الثقة بمصير الحضارة الغربية».

وأبرز إرنست بيفان وهو يتغنى باسم بريطانيا العظمى: «أخيرًا لم تعد الديمقراطية مجموعة من الوحدات المنعزلة. لقد أصبحت تنظيما متماسكا، مصرا على تحقيق هدفه العظيم». وكان التفكير فى منظمة حلف شمال الأطلنطى أصلا على أنه تحالف دفاعى

عسكرى للديمقراطية ضد الشيوعية. ولكنه، ليحقق غرضه، عليه أن يتجاوز هذا الهدف الضيق وهو أن يكون أداة ضد الشيوعية مهيأة للأغراض العسكرية.

ولن يستطيع البقاء إلا بقيادة كفاح إيجابى من أجل حضارة للحرية وبالارتفاع إلى «مستوى لا تكون فيه الحرب بالسلاح فقط، بل ولا بالسلاح أساسًا، وإنما بالنظر الذكى النافذ فى احتياجات تنظيم العالم، منظورًا إليه بالتجسيم التاريخى لنمو الحضارة الغربية».

وتمثل منظمة حلف شمال الأطلنطى.. واحدا من كثير من الحدود فى العلاقات الدولية التى بدأت منذ الحرب العالمية الثانية - مبدأ ترومان فى مارس سنة ١٩٤٧، مشروع مارشال للمساعدة، الوحدة الأوروبية، السوق المشتركة، برنامج النقطة الرابعة - وكلها مخاطرات جريئة رائدة لم يكن أحد قبل سنة ١٩٤٠ ليتصور تحققها حتى فى شكلها الحالى البعيد عن الكمال. والأمر الذى كان له نفس الأهمية هو التطور فى داخل الحضارة الحديثة ذاتها، وانتباهها للحرية والمساواة، والكرامة الإنسانية، التى وإن كانت تتضمنها الحضارة الحديثة أملا مرجوا، غير أنها لم تتحرك إلا حديثًا نحو تحقيق أوسع، ولأول مرة فى التاريخ أصبحت النظم التى قدسها طول الزمن، كرقيق الأرض. والاستغلال القاسى للطبقات الأضعف اقتصاديًا أو اجتماعيًا وخضوع شعب لآخر، غير مقبولة من الضمير الإنسانى ومن الرأى العام.

وفى سنة ١٨٨٩، فى الاحتفال المئوى للثورة الفرنسية عندما أنشئت الدولية الاشتراكية الثانية فى باريس، بدت مشكلة العمل فى المجتمع الصناعى الحديث غير قابلة للحل. وكانت البروليتاريا تعتبر نفسها دخيلة. وتشترك فى حرب طبقية ضد الرأسماليين الذين لم يبدوا من جانبهم أى ميل لقبول العامل شريكا فى الحياة السياسية والاقتصادية. ولم تكن مهمة الدولة الحديثة، التى انبثقت فى عصر الاستنارة، لتحرير وتقوية كل الطبقات، والطوائف، والجماعات الدينية والجنسية على قدم المساواة، وزيادة تجانسها والإسراع فيه فى مجتمع مفتوح سيال، لم تكن هذه المهمة قد أديت حتى فى دول الغرب الأكثر تطورًا قبل سنة ١٩١٤ . وقد كتب الدكتور ضيات سن،

بعد زيارته الولايات المتحدة، وإنجلترا وفرنسا فى سنة ١٩٠٥ أنه «بالرغم من أن الدول الغربية قوية، فإن شعوبها فى بؤس. وبالحكم من كثرة الإضرابات العامة، ونمو الفوضوية والاشتراكية، فإن ثـورة اجتماعية ليست على مبعـــدة»، وكـان لينين فى سنــة ١٩١٨ لا يزال يأمل فى قيام ثورات بروليتارية فى المجتمعات المتقدمة صناعيًا كما تنبأ ماركس بثقة. ولكن فى منتصف القرن العشرين كان المجتمع الغربى الحديث قد وضع نهاية لتوقع ثورة عمالية. والبروليتاريا المحرومة التى كانت فيما قبل مستغلة وغير آمنة فى طريقها إلى أن تصبح شريكا كاملا ومساويا فى المجتمع الغربى الحديث، ولم يحدث فى التاريخ تغير أثر فى حالة الكثيرين ورخائهم بمثل السرعة التى حققها الانتقال من ظروف عمال الغرب حول سنة ١٩٠٠ إلى تلك التى ظهرت فى سنة ١٩٦٠ .

وبعد تحقيق تحرير البروليتاريا الغربية ومنحها المساواة والكرامة، تواجه الحضارة الغربية المهمة الكبرى والصعبة وهى تحرير شعوب البلاد الأقل تطورًا (المتخلفة)، التى كان يعيش كثير منها إلى وقت قريب فى حالة شعوب خاضعة، ومنحها شعورًا مماثلاً بالمساواة والكرامة وهذا التحرير، وهو نقطة تحول فى تاريخ الإنسانية، يفتتح عصرًا جديداً فى العلاقات بين الشعوب والجنسيات والأجناس. لأن الشعوب، فى كل مكان، وخلال التاريخ كله، أخضعت وحطمت شعوبا أخرى. فعل ذلك الأوروبيون فى أوروبا كما فعلوه فى قارات أخرى، كما فعله الآسيويون والأفريقيون. وفى الوقت الأخير فقط أعلنت الحضارة الغربية الرغبة فى تحرير ومساواة كل الشعوب، وفى العقود الأخيرة تحررت الشعوب التى كانت خاضعة للحكم الأوروبى أو الأمريكى بطريقة لم يكن أحد يظن قبل نصف قرن أنها ممكنة. ولم تكن الإمبريالية والاستعمار من مخترعات الغرب: لقد كانا معروفين لكل الأجناس فى جميع الأوقات. ولكن الحضارة الغربية الحديثة فقط هى التى أنهتهما بإعلان رفضهما. وفى الإمبراطوريات التى لاتزال موجودة للدول الغربية الحديثة يتقدم التحرير والمساواة بخطى حثيثة. وعلى الرغم من بقاء مخلفات كئيبة من روح السيطرة القديمة فإن سرعة التحول وتأثيره يستشعران فى كل مكان، وهذا التحول هو ثمرة الحضارة الغربية الحديثة.

ذلك أن هذه الحضارة الغربية لم تكن من أول الأمر غربية بأى معنى مغلق. وكلمة «غربية» تعنى فقط أن هذه الحضارة ووسائلها ونظمها قد نشأت أصلا فى الغرب. فى أوروبا الشمالية الغربية وفى أمريكا الشمالية؛ ومن ثم فالدول التى تقع فى الغرب جغرافيا ليست وحدها التى تكون جزءاً من الحضارة الغربية الحديثة. والدول الفاشية والشيوعية تحتقر روح الحرية الغربية، وترفض وسائلها ونظمها. ومن الناحية الأخرى، انتشرت وسائل الحضارة الغربية الحديثة ونظمها بعيداً عن المنطقة الجغرافية التى يمكن أن تسمى الغرب أو شمال الأطلنطى.

وقد نشر الغرب رسالته، وكثيراً ما كان ذلك بغير ذكاء، بوجوده وقدرته، بالرغم من أنه يعرف جيداً أنه هو ذاته لم يعش ملتزماً رسالته الخاصة ولكن عيوبه يعوضها إلى درجة ما، ميل إلى النقد الذاتى الحر غير المعوق الذى قد يذهب أحيانا إلى حد المغالاة، ولكنه يمثل درعا ضد الجمود والركود، والمحافظة والدوجماتية من ناحية، وضد (الطوبية) الخطيرة والكمالية من ناحية أخرى. واعتناق النقد الذاتى يعنى إدراك حقيقة أن أى مجتمع إنسانى لا يمكن أن يصل إلى الكمال والتنبه فى نفس الوقت إلى إمكان التحسين المستمر وضرورته.

وقد كان ستالين وهتلر وموسيلينى، على الأقل طوال مدة سلطانهم، يعتبرون فى نظر شعوبهم وأتباعهم مضامين للكمال بل العصمة من الخطأ. والحضارة الغربية لا تعرف أى كمال. إنها تعرف هدفها فقط، هدفها الذى تقترب منه بمجهود كبير ومع ذلك فقد حققت نحوه أخيراً تقدما أعظم مما كان يستطيع أى فرد أن يعتقد فى سنة ١٧٤٠ أو سنة ١٩٤٠ . إنها تعارض حكم رجل لآخر، أو طبقة لأخرى أو شعب لآخر، أو دين لآخر، أيا كانت الطبقة أو الشعب أو الدين. إنها ترفض كل أشكال الانغلاق، وترفض بحماسة بالغة تلك الأشكال التى تمارسها الشعوب أو الحكومات التى تدعى المشاركة فى مبادىء الحضارة الغربية الحديثة ونظمها، إن مبادئها ونظمها، كما سبق أن أوضحنا، حديثة الأصل. إنها لم تجعل جذورها ثابتة بعد حتى فى كثير من الدول الأوروبية، وقد بدأت فى القرن العشرين فقط فى النفاذ إلى الشعوب غير الغربية وفى أن تمارس هناك أيضاً تأثيرها التحررى.

الجــزء الــثــالث

عصر القومية الكلية

اليقظة العالمية للشعوب

«فى مكان العزلة المحلية والقومية، والاكتفاء الذاتى، نجد تعاملا فى كل اتجاه، واتصالا عالميا لكل الأمم، فى الإنتاج الثقافى كما فى الإنتاج المادى أيضا. فالابتكارات الثقافية للأمم منفردة أصبحت ملكًا عامًا.

وقد سحبت البورجوازية، بالتحسين السريع لكل أدوات الإنتاج وبطرق المواصلات التى سهلت إلى درجة هائلة، كل الأمم، حتى أكثرها بربرية إلى الحضارة...، واضطرت كل الأمم... إلى إدخال ماتسميه بالحضارة فى داخلها... وفى كلمة، إنها أنشأت عالمًا على صورتها».

ماركس وإنجيلز، المنشور الشيوعى سنة ١٨٤٨

«لقد مرت روحى بعطف وإصدار حول الأرض كلها، كنت أبحث عن الأنداد والمحسبين فوجدتهم فى استقبالى فى كل مكان. إنى أعتقد أن علاقة مقدسة ما قد ساوتنى بهم.. إليكم جميعًا، باسم أمريكا، أرفع يدى عاليا، وأعطى الإشارة...».

والت ويتمان، فى «تحية للعالم»

- ١ -

بدأ تقدم اختراق الأمم الأوروبية للأمم غير الأوروبية فى القرن الخامس عشر وأدى إلى كشف الكرة الأرضية. وقد جعلته ممكنًا الروح المتحركة الحديثة اليقظة لأوروبا الغربية، وهكذا كونت الخطوة الأولى نحو إقامة الزعامة الأوروبية. ومع ذلك ففى الوقت الذى كان يحكم فيه شارل الخامس الأمير الهابسبرجى إمبراطورية واسعة فى العالم الجديد، كان التقدم المعاصر للأتراك المسلمين فى قلب أوروبا الوسطى وأملاك هابسبرج يثبت الضعف النسبى للعالم الغربى، وقد حدث حصار الأتراك لفينيا فى سنة ١٥٢٩ ورفض السلطان عرض فرديناند الأول، شقيق شارل الخامس، أن يدفع جزية عن هنجاريا فى مقابل اعتراف الأتراك بحقوق أسرة هابسبرج فيها. وظل مواطنو هابسبرج أوستريا يدفعون الجزية لمدة قرن للأتراك من أجل شريط المجر الصغير الذى ترك تحت إدارتهم.

بعد ذلك بثلاثة قرون، فى سنة ١٨٥٥ كتب توكفيل إلى جوبينو الذى كان عندئذ فى خدمة دبلوماسية فى فارس يقول: «إنى شديد اللهفة لمعرفة ما يرجع إليه التدهور السريع الذى يبدو حتميًا للأجناس التى رأيتها: التدهور الذى أسلم بعضهم، وقد يسلمهم جميعًا لسيطرة قارتنا الصغيرة أوروبا التى كثيرًا ما ارتعدت أمامهم فى الماضى. أين الحشرة التى تأكل هذا الجسم الآسيوى الكبير؟ لقد أصبح الأتراك جنودًا سيئين ويبدو الآن أنه قد قدر عليهم أن يخدعوا وأن يهزموا من كل إنسان. ومع ذلك فأنت تعيش الآن فى الأمة الإسلامية التى تتصف - إذا صدقت تقارير الرحالة - بالذكاء وحتى بالألمعية، ما هو هذا الفساد الذى لا علاج له والذى يجرها إلى أسفل خلال القرون؟ هل يمكن أن نكون قد ارتفعنا بينما ظلوا هم ساكنين؟ أنا لا أظن ذلك. أنا أظن بالأحرى أن الحركة المزدوجة قد حدثت فى اتجاهين متضادين. أنت تقول إننا سنشبه يومًا ما جموع الشرقيين: ربما، ولكننا قبل أن يحدث ذلك - سنكون سادتهم - إن ملايين قليلة

من الرجال، كانوا منذ قرون قليلة، يكادون يعيشون بغير مأوى فى غابات أوروبا ومستنقعاتها، سيكونون خلال مائة عام قد غيروا وجه الأرض وسيطروا على الأجناس الأخرى. ونادراً ما أبدت لنا القدرة الإلهية منظر المستقبل بمثل هذا الوضوح. إن الأجناس الأوروبية كثيراً ما تكون أكثر الأجناس شراً. ولكنهم على الأقل أشرار منحهم الله إرادة وقوة ويبدو أنه قد قدر لهم أن يكونوا - لوقت ما - على رأس الجنس البشرى. ولا شىء على وجه الأرض كلها سيقاوم تأثيرهم».

فى هذه الكلمات كشف توكفيل شعوره غير العادى بالقيم النسبية للأشياء.. لقد عرف أن أفضلية الأوروبيين كانت مؤقتة. وتنبأ بأن الحضارة الغربية ستغير شكل الأرض. وقد بدأ التوسع الحقيقى لأوروبا والتأثير الأوروبى بعد أن كتب توكفيل هذه الكلمات. وعندما كتب ماركس وإنجيلز فى سنة ١٨٤٨ أن الحضارة الغربية كانت تعيد تشكيل كل الأمم وفقاً لصورتها وعندما تنبأ توكفيل بعد ذلك بسبع سنوات بأن شيئاً على وجه الأرض لن يقاوم التأثير الغربى. لم تكن العملية تكاد تبدأ. كان داخل أفريقيا وداخل آسيا مجهولين إلى حد كبير فى ذلك الوقت. وكان قلب هذه القارات أرضاً مقفلة دون الأوروبيين. وفى سنة ١٨٥٠ فقط عبر دافيد ليفنجستون قارة أفريقيا لأول مرة. وفى نفس العقد أصبحت الهند مستعمرة للتاج البريطانى. واخترق الروس آسيا الوسطى فى سنة ١٨٦٠ ، وفى سنة ١٨٧٠ فقط اتخذت الخطوات الأولى لفتح حوض الكونغو. وبعد حوالى عشر سنوات أقام الفرنسيون حكمهم الفعال على الهند الصينية. وقد بقيت فترة سيطرة أوروبا على أفريقيا وآسيا، فى كثير من أجزائها أقل من قرن. وقصر فترة الإمبريالية الأوروبية هذا لا يدرك دائماً. ومع ذلك فقد كان تغير أفريقيا وآسيا خلال هذه العقود القصيرة أتم وأعمق من كل ماحدث فى التاريخ السابق عليها.

كانت الصين فى نهاية القرن الثامن عشر أقوى إمبراطوريات آسيا وأقدمها. وفى عامى ١٧٩٤، ١٧٩٥ زارت بعثة للشركة الهولندية الهندية الشرقية بلاط إمبراطور الصين. وكتب أحد قادتها أ.ى. فان برام هوكجيست، فى تقريره عن الرحلة: «يدل كل شىء فى الصين على جهل سكانها التام بأوروبا وهم يسمعون الحديث عنها بنفس عدم

الاهتمام. ويعتقد الإمبراطور، وكل أولئك الذين يضعهم الرأى العام بعده مباشرة، أن لهم المكانة الأولى بين كل المخلوقات الكائنة فى هذا العالم الكبير، وأنهم على رأس الأمة الأولى التى وجدت فى الأرجاء الفسيحة للمكان. ويجب إحداث نوع من المعجزة قبل أن تدخل فى رأس صينى فكرة إرسال صينى مبعوثًا لأمم أخرى» وفى السنة السابقة، أرسلت بعثة بريطانية تحت رئاسة إيرل ماكارتنى، الذى كان حاكما لمدراس وأصبح بعد ذلك حاكما لرأس الرجاء الصالح، إلى بكين لمحاولة تحسين التجارة مع الصين ولإقامة علاقات ديبلوماسية. ورفض الإمبراطور كلا الأمرين. وقال فى رسالته «بالنسبة لطلبكم إرسال أحد مواطنيكم ليكون محل ثقة فى بلاطنا المقدس، وليدير تجارة بلادكم مع الصين، ويتعارض هذا الطلب مع كل ما جرت عليه العادة فى مملكتى ولا يمكن قبوله.... ورسولكم المقترح إلى بلاطنا لا يمكن أن يسمح له بحرية الحركة وبامتياز للتراسل مع بلاده، ولذلك فلن تكسبوا شيئًا بإقامته بيننا وكما يمكن لسفيركم أن يرى لنفسه، نحن نملك كل شىء. ولا قيمة عندنا للأشياء الغريبة أو غير المجربة ولا حاجة بنا لمصنوعات بلادكم.... وجدير بك أيها الملك أن نحترم مشاعرى بل أن تظهر مزيداً من الحب والولاء فى المستقبل، حتى تضمن، بالخضوع الدائم لعرشنا، السلام والرخاء لبلادكم بعد ذلك».

وفى بيان ثان كان أكثر صراحة فى رفضه لكل المقترحات الحقيقية المقدمة من البريطانيين: «استمرت كل الممالك الأوروبية حتى الآن، بما فيها تجار بلاكم البرابرة، فى تجارتهم فى إمبراطوريتنا المقدسة فى كانتون... وعلى الرغم من أن لدينا كل الأشياء بكثرة وفيرة... وبما أن الشاى، والحرير والخزف التى تنتجها إمبراطوريتنا المقدسة، هى من الضروريات المطلقة للممالك الأوروبية. فقد سمحنا، علامة على الرضا، أن تقام مصانع أجنبية فى كانتون، حتى تكفى حاجتكم، وهكذا تشارك بلادكم فى خيراتنا.... إن مملكتنا، وهى تحرك أجناس الأرض العديدة تمد نفس المعروف إلى الجميع... وإذا تبعت أمم أخرى مثلكم السيئ، وأخطأت بالإلحاح على أسماعنا بطلبات جديدة مستحيلة. فكيف يمكننى أن أرضى رغباتهم بسهولة؟ ومع ذلك فلست أنسى وحدة جزيرتكم النائية، وقد قطعتها عن العالم مجاهل البحر المعترضة، كما أننا سنقدر عذركم فى الجهل

بعادات إمبراطوريتنا المقدسة. وقد أمرنا وزراءنا بناء على ذلك بتنوير سفيركم فى الموضوع، كما أمرنا بسفر البعثة».

وفى سنة ١٨٤٢ فقط، بعد الحرب البريطانية - الصينية الأولى، قبلت بعض الطلبات التى قدمتها بعثة اللورد ماكارتنى وبدأت عملية فتح الصين للتعامل مع الغرب، بالرغم من أن ذلك كان فى بطء، شديد وبمقاومة كبيرة مستمرة من جانب الصينيين. ودخلت اليابان فى التعامل مع الغرب. بعد ذلك بعقدين، ولكن رد الفعل اليابانى لفتح البلاد الذى فرض عليها كان مختلفًا تمام الاختلاف عن الصين. فبدرجة عالية من الواقعية نصح رجال الدولة بقطع الصلة بالماضى «كى تستمد القوة من الجديد». ومن الطريف بقدر كاف. أن اليابان قد استعملت، بعد عقد واحد فقط من بدء صبغها بالصبغة الغربية، أداة لفتح الاتصال بمملكة كوريا المنعزلة (فى سنة ١٨٧٦)، بعد أن هزمت محاولة أمريكية مماثلة بإرساء السفن، قبل ذلك بخمس سنين. وفى نهاية القرن التاسع عشر، كانت العملية التى تنبأ بها ماركس وتوكفيل قد أخذت طريقها. كان تأثير الحضارة الغربية يبدأ فى النفاذ إلى أقصى نهايات الأرض. وفى سنة ١٩٠٠ كان معظم آسيا وأفريقيا تحت حكم أوروبا المباشر أو غير المباشر. وأصبح تقسيم الصين قريب الوقوع، وكان على الإمبراطورية المتعالية أن تقبل الشروط المهينة لاتفاقية البكسرز سنة ١٩٠١، واليابان فقط هى التى استطاعت عن طريق الإصلاح القومى الغربى، أن تشارك فى تيار الإمبريالية وأن تعد لإخضاع كوريا.

كان للنفوذ الأوروبى فى شعوب الأرض فى نهاية القرن تأثير ذو ثلاث شعب. لقد أيقظهم من سباتهم وأخرجهم من التزام التقاليد إلى تأثير الحضارة الحديثة التى أصبحت منذ ذلك الوقت أو حضارة عالمية. وفى سنة ١٩٦٠ كان كثير من مجالاتها – التعليم الشعبى العام والحركة الاقتصادية والاجتماعية وتحرير المرأة والتصنيع والرخاء العام – قد أصبح مقبولا ومرغوبا فيه فى كل مكان. وفى نفس الوقت أعطيت لهم هذه الحضارة تحت شكل القومية والإمبريالية، التى أصبحت فى نهاية القرن العناصر السائدة فى الفكر الغربى العام وقد كتب جيلبرت موراى فى سنة ١٩٠٠ فى جريدة الأخلاق الدولية، «فى كل دول أوروبا، من إنجلترا وفرنسا إلى روسيا وتركيا، ويكاد يكون فى كل أمم الأرض. من الأمريكيين إلى الصينيين إلى الفنلنديين، كانت نفس الهمسة ترن فى آذان الناس من تحت الأعتاب: نحن نخبة الأمم وزهرتها، الأمة الوحيدة الكريمة والشجاعة والعادلة حقا، نحن فوق كل شىء مؤهلون لحكم الآخرين، نحن نعرف كيف نضعهم فى مكانهم بالضبط دون ضعف أو قسوة»، وهذا الانتشار للحضارة الغربية فى شكل القومية، كان، بعد فترة قصيرة، هو أداة إنهاء الزعامة والإمبريالية الأوروبية والقومية التى كانت، حتى ذلك الوقت، محصورة فى الدول الغربية، أصبحت بسرعة ظاهرة عالمية، وانتقل عصر القومية فى القرن التاسع عشر الأوروبى بشكل لا يكاد يكون مفهوماً، إلى عصر القومية العالمية فى القرن العشرين العالمى. ووجدت يقظة الشعوب غير الغربية التى جاءت نتيجة التأثير الغربى التعبير عن نفسها فى التحرر من السيطرة الغربية. وكانت هذه هى النتيجة غير المتوقعة ولكنها النتيجة الحتمية لحقيقة أن فكرة التحرير، والحرية الإنسانية، والمساواة كانت كامنة بعمق فى مجرى الحضارة الغربية التى بدأت فى الغرب فى القرنين السابع عشر والثامن عشر وبدأت الآن تنتشر فى الأرض.

وفى أثناء تقدم الحضارة الغربية الحديثة، جعلت الطبقات الحاكمة، وعلى الخصوص فى البلاد التى تتكلم الإنجليزية، من امتيازاتها حقوقًا لغير الممتازين. وكان يحركهم

إلى عملهم هذا ضغط خارجي، ولكن كانت تحركهم أيضًا طبيعة حضارتهم. وبالمثل كانت الدول الغربية، على غير إرادتها ولكن بدافع داخلى أيضاً، كثيراً ما تجرد نفسها من الحكم الإمبريالى. وقد ميز جيلبرت موراى - عملية الشئون الداخلية بكلمات تنطبق أيضًا، فى حدود، على الشئون الإمبريالية: «إن من لهم حق الانتخاب هم الذين عملوا على إعطائه للمحرومين من التصويت، والبروتستانت هم الذين عملوا لتحرير الكاثوليك، وأعضاء الكنيسة الإنجليزية من الذين ألفوا «قوانين الاختبار». ونفس الشىء بالنسبة لتشريع اتحاد العمال، وإلغاء الرق، وحماية الأهلين طبقة ممتازة تتنازل دائمًا عن امتيازاتها على أسس من الضمير والمبدأ الإنسانى». ولعل موراى قد تجاهل عوامل أخرى دفعت إلى هذا التطور، ولكن الذى لاشك فيه هو أن تقليد الحرية الغربى (الذى شارك فيه «المحافظون» فى الدول التى تتكلم الإنجليزية) وهو الثقة فى الكرامة الإنسانية وفى وحدة الجنس البشرى كان عاملا مهما فى تحقيق تحرير الجماعات المحرومة من الامتياز. وقد كتب هاوثورن «لنجعل الأرض كلها نظيفة، وإلا فلن يستطيع رجل منا أو امرأة أن يكون نظيفا». ولأن القومية بوصفها أنانية جمعية كانت أكبر القوى فى أوروبا فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، فقد كان أسهل على الإنسان إلى درجة ما أن يوقف عن التحقير والإهانة من هم من نفس قوميته عن أن يوقف الغرباء (Outsiders) والأنانية وغرور الأمم - فكرة الشعب المختار - أخطر فى الجماعات منها إذا كانت فى الأفراد أو واقعة عليهم: ومع ذلك فقد كانت عملية تحرير المستعمرات الغربية تأخذ مجراها فى سنة ١٩٦٢، وكانت بريطانيا وفرنسا، وهما تتخليان عن تقاليدهما الإمبريالية التى كانت لا تزال قوية فى سنة ١٩٤٥؛ تتحولان إلى دول أوروبية صميمة.

وفى أوج الإمبريالية فى أوروبا والولايات المتحدة، الذى استمر من أعقاب انتصارات بسمارك فى ميادين المعارك إلى أعقاب الحرب العالمية الأولى، كان الشعور القومى والمركز القومى، والمنافسة والغيرة، هى التى حركت الانتشار السريع للاستعمار، أكثر كثيراً من الاعتبارات العقلية للكسب الاقتصادى. وقد كسبت منها المصالح الخاصة ومن أراد تكوين مستقبل شخصى. كما تكسب من الأعمال شبه

الحربية وتنظيمات الاستغلال على العموم، وكثيراً ما كان كسبها أكثر جمالا. ولكن الدول بصفتها هذه لم تكسب من التوسع. وعندما فقدت ألمانيا وهولندا وبريطانيا إمبراطوريتها الاستعمارية، لم يتأثر الاقتصاد القومى من ذلك بل استطاع أن يقدم لأغلبية المواطنين مستوى معيشة أعلى مما عرفوه فى أيام الإمبريالية؛ ولكن على الرغم من أن الاعتبارات الاقتصادية لعبت دوراً كبيراً فى حسابات المتجمدات (Corporations) وفى الدوافع غير الواعية للأفراد. فسيجد المؤرخ أن الشعور والأمانى القومية خلال عصر القومية الحديثة والإمبريالية (والاثنان توأمان متصلان وكثيراً لا يمكن التفرقة بينهما) كان لها السبق على الاعتبارات العقلية للكسب الاقتصادى.

وفى نهاية الحرب العالمية الأولى كانت الإمبريالية الغربية تبدو ثابتة على سرجها. ولعل قليلاً من المستندات يميز روح الإمبريالية فى أوجها مثلما فعلت معاهدة سيكس - بيكو فى سنة ١٩١٦ التى قسمت أراضى الشرق الأوسط بين المنتصرين المرتقبين، وما تبع ذلك من التصرف فى الأراضى العربية إلى مصالح غير عربية. وقد حال دون تقسيم مماثل لأراضى الأناضول التركية، انتصار مصطفى كمال على الإغريق الغزاة الذين كانوا يحاولون إعادة إنشاء الإمبراطورية الهيلينية القديمة. ونجاح مصطفى كمال، الذى أصبح ممكنا بمعاهدة الصداقة مع لينين فى روسيا السوفيتية التى كانت فى ذلك الوقت قد قلبت بحدة سياسة روسيا الإمبريالية السابقة للتوسع داخل تركيا، يحدد علامة طريق فى بداية عصر «تصفية الاستعمار» وصبغ منطقة بالصبغة الغربية القومية كانت قبل عقود قليلة معروفة بصورتها الإقطاعية وركودها الشرقى.

وقد نشطت الحرب العالمية الأولى القومية فى آسيا وأفريقيا، كما فعلت فى أوروبا ذاتها. وكانت القومية فى حاجة إلى مرور عقود كثيرة وإلى الحرب العالمية الثانية قبل أن تصبح قوة فعالة فى القارتين السابقتين (وفى أمريكا اللاتينية)، ولكنها استمرت ظاهرة فى أوروبا ذاتها، حتى بعد الحرب العالمية الأولى. فى الأطماع الاستعمارية. وقد زادت قوة التنافس بين إنجلترا وفرنسا على الحكم الإمبريالى لأراضى الشرق الأوسط بعد سنة ١٩١٨ . وكانت الدول الأوروبية الضعيفة مثل إيطاليا وحتى بولندا تحلم بالتملك الاستعمارى. وحتى فى ذلك التاريخ المتأخر فى سنة ١٩٣٨، عند بحث مستقبل

الاستعمار لم تكن المشكلة التى تشغل أذهان رجال الدولة الأوروبيين هى تصفية الاستعمار، وإنما كانت مشكلة عودة المستعمرات السابقة لألمانيا. وفى إعلان سياسة الحكومة العمالية فى ٢٢ أغسطس سنة ١٩٤٥، لم يرد ذكر لاستقلال المستعمرات. وجاء التطور السريع للسنين الخمس عشرة الأخيرة كالمفاجأة. ومع ذلك فقد كان الصبغ بالصبغة الغربية فى آسيا وأفريقيا منذ العقود الأخيرة للقرن التاسع عشر يجرى عرضا وعمقا، وهو تطور مواز لاشتداد الإمبرايالية الأوروبية.

- ٣ -

كانت مصر والهند هما أول دولتين فى أفريقيا وآسيا انتشرت فيهما القومية الحديثة خلال اتصالهما الوثيق بأوروبا. واستعاد الوادى الأدنى للنيل تأكيد دورها التاريخى، وهو مهد أقدم الحضارات، ثم أصبح بعد ذلك مقرا للحضارة الإغريقية ثم أصبح المركز الجغرافى والثقافى للعالم الإسلامى، وعرف القرن الثامن عشر قيمته الاستراتيجية على الطريق إلى الهند وغزاه نابليون بونابرت فى سنة ١٧٩٨ . وجاء معه بالإصلاحات الإدارية للثورة وبالأبحاث المدرسية. وبوحيها حدث تطوران: فى سنة ١٨١١ أصبح جندى ألبانى محظوظ اسمه محمد على حاكم مصر بغير منازع، رجل ذو طاقة هائلة، يقارن ببطرس الأكبر، وقد أرسل الشبان المصريين لطلب العلم فى الخارج، وأنشأ بمعاونة المعلمين الفرنسيين جيشا وبحرية حديثين، وأدخل مصر من جديد فى سياسة الشرق الأوسط وأوربا - عاملا فعالا - وكان يأمل أن يجعلها مركزا للنهضة الإسلامية. وفى نفس الوقت حاولت نواة ناشئة لطبقة حديثة من المثقفين، لا أن تنشر العلم الأوروبى فحسب، بل تحيى الثقافة العربية أيضا وأن تصلح المجتمع المصرى. وقد أذكت إعادة العلماء الأوروبيين اكتشاف ماضى البلاد الفرعونى والعربى العظيم شعوراً بالعزة القومية ونشوء قومية مصرية.

وفتح قنال السويس فى سنة ١٨٦٩، وزيادة الثروة والإسراف وما لازمه من اختلال الميزانية الذى أدى إلى رقابة مالية مزدوجة فرنسية - إنجليزية، وأقامة أول

تنظيم قومى حديث، الحزب الوطنى، الذى لم يعد يقوم على أساس دينى، بل يقبل المصريين المسلمين والمسيحيين واليهود على السواء (نحن جميعًا أخوة فى هذا الوطن ينبغى أن تكون لنا حقوق سياسية متساوية)، وقيام صحافة شعبية حرة والإثارة السياسية، وانعقاد مجلس للنواب - هذه التغيرات تكون الصورة الخلفية للروح التحررية التى عبرت عن نفسها فى أول ثورة قومية بزعامة أحمد عرابى فى سنة ١٨٧٩ وفى حركة الإصلاح الإسلامى التدريجى لمحمد عبده. وقد عارض عرابى، وهو أحد الضباط القلائل من الفلاحين المصريين، كلا من: الحكم العفن لأصحاب الأراضى الأتراك الأرستقراطيين والمراقبة والتدخل الأجنبيين فى البلاد ويبرز روح العزة الجديدة جواب عرابى الذى أجاب به الخديوى توفيق سنة ١٨٨١ الذى كان يحكم مصر فى ذلك الوقت عندما قال: «أنا الخديوى وسأفعل ما يحلو لى» فأجابه عرابى: «لسنا عبيداً، ولن نكون تركة تورث بعد اليوم» وكان يأمل أن يكسر الحكم الاستبدادى لطبقة الأتراك الألبانيين الحاكمة والمصالح الأجنبية التى تستنزف ثروة البلاد وأن يحول مصر إلى جمهورية دستورية، وقد هزم نتيجة لتدخل الإنجليز. واحتلت البلاد حملة بريطانية فى سنة ١٨٨٢ . ولم يحن وقت تحقيق آمال العرب إلا بعد ذلك بسبعين عاماً.

والاستعمار البريطانى بطريقته النموذجية فى استبدال الوسائل والمساومة احتفظ بالأشكال الخارجية للحكومة المصرية بأجهزتها الإدارية والاستشارية وأعلن أن هدفه هو تدريب المصريين على الحكم الذاتى التحررى. وعلى الرغم من أن ذلك قد ظل، فى العمل، هدفا بعيدا جدا، فإن الاستعمار البريطانى جعل مصر أوثق اتصالا بالفكر الأوروبى، ونتج عنه تغير تدريجى فى النظم الاجتماعية وعادات الحياة. وأصبحت مصر أكثر البلاد الإسلامية تقدما، ودفع تحسين النظام القضائى، وزيادة الأمن واتساع الحرية، وازدياد الثراء، كثيراً من القوميين العرب من السوريين المسلمين والمسيحيين، إلى الإقامة فى القاهرة ونشر كتاباتهم هناك، لا تمنعهم رقابة الحكومة التركية. وأصبحت القاهرة تدريجياً المركز الثقافى الذى يتكلم العربية، ولكن الحركة الوطنية فى وادى النيل كانت تعتبر نفسها مصرية لا عربية، على الرغم من الروابط الثقافية الوثيقة. كما لم يكن العرب والمصريون يواجهون نفس العدو. ومن سنة ١٨٧٢ إلى سنة ١٩١٨

كان العرب فى سوريا والعراق يحاربون الحكم التركى، بينما كان المصريون يكافحون لإنهاء الاحتلال البريطانى.

وكانت هذه السنين مليئة بمحاولة إصلاح حال الإسلام وتطويره حتى يتماشى مع الحضارة الغربية. وكان الزعيم فى هذه الحركة هو الشيخ محمد عبده الذى كان يريد أن يرى تحولا للفكر والقلب المصرى ويسلحها بذلك للحرية. وقد أسس الشيخ محمد عبده مع أصدقائه وتابعيه، وكان من بينهم سعد زغلول الذى أصبح الزعيم الجليل للقومية المصرية من سنة ١٩١٨ إلى سنة ١٩٢٧ - الجمعية الخيرية الإسلامية وجمعية إحياء الكتب العربية. وكان لورد كرومر يسمى الشيخ محمد عبده وتابعيه «جيروند الحركة الوطنية المصرية». وكان أكثرهم نشاطًا فتحى زغلول، شقيق سعد، وقاسم أمين، وأحمد لطفى السيد. وبين الكتب الكثيرة التى ترجموها روسو وبنتام، وكان تأثرهم قويا بجون ستيوارات ميل. وكانوا يأملون فى أن يغذوا المصريين بشعور جديد من الكرامة، وأن يعلموهم حقوق الفرد فى المجتمع وقبله. وأن يكافحوا الاستكانة قديمة العهد.

وكان قاسم أمين بين المصلحين أعلاهم صوتًا. وقد أثارت كتاباته عن «تحرير المرأة» و«المرأة الجديدة» مناقشات حامية. وقد أنذر بأن التمسك بماض جامد هو دعوة للكارثة. وأولئك الذين كانوا يعتبرون الغرب عدوًا لدودًا، لم يكونوا فى رأيه يساعدون مصر، لأن أوروبا كان عليها لا أن تعلم الشرق حضارتها الصناعية فحسب، بل ذلك الفن الذى كان مفتاحا لباقى الفنون كلها - الفضائل المدنيـة، التى لم تكن معروفة فى الشرق فى ذلك الوقت. والثورة الاجتماعية والثقافية التى كانت فى الطريق، نتيجة لكل من الاتصال المتزايد بأوروبا ولكتابات المصلحين، كانت تساعدها الإصلاحات التعليمية التى بدأها سعد زغلول قبل الحرب العالمية الأولى بوصفه وزيرًا للتعليم. وقد وجه اهتمامًا كبيرًا للأدب العربى، وفى سنة ١٩٠٨ أنشئت بمعاونة أموال التبرعات أول جامعة وبها ٧٥٤ طالبًا بينهم ٣١ فتاة.

ولم يكن ثمة من هو أقوى تأكيدًا من «لطفى» للحاجة إلى رفع الطابع الثقافى والخلقى للشعب المصرى، وعلى الرغم من أن الاحتلال البريطانى كان قد أدخل أسس

الحرية الشخصية والحقوق المتساوية أمام القانون، فلم يكن المصريون قد تعلموا بعد أن يعتبروا الحكومة أداة لخدمتهم. لم يكن التحرر السياسى من البريطانيين كافيًا، كان يجب تغيير الطابع المصرى. وكان «لطفى» يعرف أن هذه هى المهمة الصعبة التى تواجه كل البلاد غير النامية. «إن الصحف تكشف أخطاء البريطانيين ولكنها تمتنع عن كشف قوى الفساد الكامنة فى المصريين أنفسهم. كان يمكن مهاجمة بريطانيا لأن قوتها لا يحميها دين أو عرف، ولكن قوى السلطة المحلية كان يحميها من النقد نظام من العادات اكتسب هو نفسه بعض حماية الدين». إن على مصر - لا أن تقبل معدات الحضارة الحديثة فحسب - بل مبادئها التى غيرت أوروبا فى العصر الحديث وأقامت الزعامة الأوروبية. وبمساعدة هذه المبادئ فقط يمكن تحقيق تقدم حقيقى فى مصر. وكان «لطفى» يجادل بأنه بتمثيل خير ما فى الحضارة الغربية لن تخسر مصر بل ستقوى معرفتها لنفسها. وقد مثل العرب، فى فترة بنائهم، الحضارات التى اتصلوا بها. وعلى مصر أن تمثل بالمثل إلى جانب العلم والتكنيك الأوروبى، الأفكار الفلسفية التى جعلت هذا التقدم ممكنًا، «لقد جاءتنا موجة الحضارة بكل فضائلها وشرورها، ويجب أن نقبلها دون أن نقاومها. وكل ما علينا هو أن نمصر الحسن الذى تحمله، وأن نضيق السبل التى يمكن للشر أن يجرى فيها. يجب أن نأخذ هذه الحضارة كما هى ولكن علينا أن نحكمها».

كان يقود القومية السياسية التى لم يكن مزاجها.. جيروندينا بل يعقوبيا قبل الحرب العالمية الأولى، «مصطفى كامل» الذى كان إلى سنة ١٩٠٤ ينظر إلى فرنسا للتعاون والإلهام؛ وبعد اتفاق الصداقة الإنجليزى - الفرنسى فى تلك السنة اتجه إلى اليابان، التى رحب بتقدمها على مسرح السياسة الدولية بكتابه «الشمس المشرقة» (١٩٠٤) وكان قد كتب فى سنة ١٨٩٦: «ستبقى الحضارة المصرية إذا تأصلت جذورها فى الشعب؛ إذا عرف الفلاح، والتاجر، والمعلم، والطالب، وبالاختصار كل مصرى، أن للإنسان حقوقًا مقدسة لا تسلب، وأنه لم يخلق ليكون أداة وإنما ليحيا حياة كريمة عاقلة، وأنه لا توجد عاطفة أجمل من حب وطننا، وأن الروح نبيلة، وأن شعبًا بغير استقلال هو شعب بلا وجود. إن الوطنية هى الدم الذى يجرى فى أوردة الأمم القوية

ويمنح الحياة لكل الكائنات الحية». كان من الواضح أن القومية المصرية حوالى نهاية القرن كانت تستعمل التعبيرات الجارية للقومية الأوروبية. وبالمثل أكد «حامد العلايلى»: «إن لعنة التقليد لطبقة أجنبية عليا تحطم كل ينابيع الحياة الحقيقية بين الشعب وتصبح الأمة عند ذلك طفيليًا ثقافيًا فقط.. وتكف عن المشاركة بشىء منها فى حياة الإنسانية الأخلاقية والثقافية». وقد استولى «مصطفى كامل» على خيال الطبقة الوسطى وجماهير المدن؛ ومات وهو شاب وصارت جنازته فى القاهرة فى سنة ١٩٠٨ مظاهرة وطنية كبرى؛ لقد كانت بكلمات مراقب انجليزى، «من أكثر المشاهد التى شوهدت فى القاهرة فى العصر الحديث تأثيرًا على الإطلاق».

وبعد ذلك ١٩٠٧ لم تكن معارضة الحكم البريطانى تنكر فى الاجتماعات الجماهيرية والخطب الشعبية فحسب، بل فى الجمعية التشريعية أيضًا وإن كان ذلك فى عبارات أقل إفصاحًا. وفى سنة ١٩١٠ كانت مصر تبدو لزعمائها أبعد كثيرًا عن الحكم الذاتى مما كانت قبل الاحتلال البريطانى. «استوردنا فى سنة ١٨٨٤ قمحًا قيمته ١٢٤,٠٠٠ جنيه، وفى سنة ١٩٠٩ ما قيمته ١,٨٣٦,٠٠٠ جنيه». كانت هذه ملاحظة أحدهم وقد أرسلنا تحت حكم محمد على ٩٠٥ من الطلبة إلى أوروبا، وفى حكم إسماعيل أرسلنا ١٥٥، ونحن نرسل (الآن) ٤٣ .. ما هو العلاج؟ الحكم الذاتى! وخلال الثلاثين عامًا الأخيرة لم نتقدم خطوة واحدة نحو الحكم الذاتى».

ثم اتخذت خطوة عظيمة مفاجئة نحو الحكم الذاتى فى مصر فى صحوة الحرب العالمية الأولى كما كان الأمر فى أوروبا كلها. وقد أسرع بها الانفعال القومى الذى نتج فى كل مكان عن طول فترة القتال ومرارته وعن الوعود التى بذلتها الولايات المتحدة وبريطانيا بتقرير المصير القومى. ولتضعف تركيا أيدت الأخيرة (بريطانيا) قيام حركة ثورية قومية عربية داخل الإمبراطورية التركية فى الحجاز، حيث تقع المدن الإسلامية المقدسة، مكة والمدينة، وفى أراضى الهلال الخصيب التى تحيط شبه الجزيرة من الشمال بقوس يمتد من الخليج العربى إلى شبه جزيرة سيناء حيث كانت دمشق. وبيروت وبغداد لفترة من الزمن مراكز للإثارة القومية. وفى تاريخ مبكر كسنة ١٩١٤ لاحظ مدرس ألمانى مسلم قوة القومية العربية بين الأمانى العديدة المحلية فى أجزاء تركيا

التى تتكلم العربية: «من الواضح أن كل هذه العناصر الطاردة المركزية العديدة لا تجد تأييداً لمصالحها الخاصة بين الشعوب العربية. ويجب إذن أن تخفيها تحت غطاء فكرة لها قوة جاذبية عظيمة. تلك هى فكرة القومية العربية. ونفس حقيقة اختيارها بوصفها أكبر الأغطية فعالية تثبت أن لها جاذبية كبيرة وأنه يوجد فى أوسع الدوائر شعور قومى عربى يمكنه أن يوحد بين الشعوب عبر حواجز العقائد الدينية. إن عصر القومية الواعية لم يصل فى الشرق العربى إلى الأجزاء الأكثر تقدما فحسب بل إلى كل المساحة التى تتكلم العربية. وحقيقة أنه حتى الأمراء الأوتوقراطيين فى الجزء الشمالى من شبه الجزيرة العربية يؤيدون فكرة اتحاد الأراضى العربية، فى شكل اتحاد، تثبت أن الوعى بأمة عربية قد نفذ فعلا إلى داخل شبه الجزيرة. وذلك معناه بوضوح أن حل المشاكل الإقليمية فى هذه الأراضى، التى تهدد بأن تكون ذات أهمية عالمية بسبب موقعها الإستراتيجى. لم يعد يمكن حله من وجهة نظر القوى الكبرى، وإنما داخل إطار برنامج القومية العربية فى مجموعه فقط».

لم تؤخذ فى الاعتبار حقيقة اختراق القومية لكل الأراضى العربية فى اتفاقات السلام فى ١٩١٩-١٩٢٠ . ولذلك قامت ثورات فى مصر والعراق وفى سوريا وفلسطين. وفى مصر فقط كانت الحركة القومية قد بلغت من التقدم فى السنين السابقة على الحرب العالمية الأولى ما مكنها من أن تأخذ الخطوات الأولى نحو تحقيق أمانيها. ووجدت فى سعد زغلول معبراً يجله شعبه ومعترف به دولياً. وللمرة الأولى اتحدت بشدة الطبقة الوسطى العربية فى المدن مع الفلاحين فى قضية مشتركة. ولأول مرة أيضاً تآخى الأقباط المسيحيون والمسلمون، وانبعث للنساء المصريات نشاط سياسى. وعندما أرسلت بريطانيا لجنة برئاسة لورد ملنر «لتبحث سبب الاضطرابات الأخيرة فى مصر»، وعندما أعلن بلفور فى مجلس العموم (فى ١٧ نوفمبر سنة ١٩١٩) أن «الحماية البريطانية ستبقى» على مصر، كان رد فعل الشعب المصرى باتحاد لم يكن متوقعاً. لقد قرروا مقاطعة لجنة ملنر، ونفذت المقاطعة بنظام مذهل فى المدن وفى القرى على السواء.

واضطر المندوب السامى البريطانى فى مصر الفيلدمارشال فيسكونت اللنبى الحكومة البريطانية إلى تنازلات. ونتيجة لذلك اعترفت إنجلترا فى فبراير سنة ١٩٢٢ باستقلال مصر، وإن كان ذلك بطريقة ناقصة ومترددة وبعد من التحفظات الهامة كانت موضوع مفاوضات لاحقة. ومع ذلك فقد كانت الخطوة الأولى على طريق تصفية الاستعمار قد تحققت بإصرار الشعب ووحدته، وبالروح التحررية لجندى بريطانى. ولكن خلال الثلاثين عامًا التالية لم يكن طريق استقلال مصر سعيداً ولا مشجعًا «كان البريطانيون بطيئين وغير راغبين فى رفع قبضتهم عن البلاد، وكان الملك فؤاد. الحاكم المحلى. الذى كان البريطانيون قد وضعوه على العرش، يعارض أى اتجاه ديموقراطى للحياة المصرية، وتحت العبء المزدوج لسياستى البريطانيين والقصر، استسلم الرأى العام المثقف المصرى لشعور من خيبة الأمل وإحساس بالإخفاق. وتحت ستار من الاستقلال الرسمى ولكن غير الحقيقى، نما الفساد من الداخل والغش من الخارج، كما حدث أيضًا فى بعض بلاد أمريكا اللاتينية فى تلك الفترة.

تغير هذا الموقف بعد ثلاثين عامًا من الاعتراف بالاستقلال وسبعين عامًا من هزيمة عرابى على يد البريطانيين. وأصبحت المثل العليا لعرابى والتى لم تكن قد نضجت بعد فى وقته أدنى إلى التحقيق، عندما خلع مجموعة من الضباط الشبان فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ الملك التركى الألبانى والبلاط الأرستقراطى وخلقت فى الفلاحين وعيًا بدورهم فعالا فى حكومة بلادهم. وفى ٢٣ يناير سنة ١٩٥٣، أعادت قيادة الثورة كلمات عرابى: «لم نعد عبيداً، ولن نورث بعد اليوم أبداً». وخلال أزمة السويس سنة ١٩٥٦ عبأ جمال عبد الناصر الشعب كما لم يستطع أى زعيم مصرى من قبل. وقد أعد لهذه الحالة بعض الكتاب الشبان الذين عارضوا بقوة سوء استعمال الأنظمة الديموقراطية لمصلحة الأغنياء وأطماع السياسيين. لقد حل أمل جديد وإحساس جديد بالعزة محل تشاؤم العقود السابقة. ولم يعد يقبل الفقر والانحطاط الذى كان مصير الطبقات الفقيرة فى مصر، ككل مكان فى أسيا وأفريقيا، منذ زمن لا تعيه الذاكرة، ونما اعتقاد جازم بإمكان التغلب عليهما. وكان عصر التحرير الذى جاء إلى أوروبا فى القرن الثامن عشر يشرق الآن على مصر.

وازدادت الحركات القومية فى البلاد التى تتكلم العربية تقاربا، وبعد إنشاء دولة إسرائيل المزعومة انصهرت القومية المصرية مع حركات الاستقلال العربية الأخرى فى جبهة واحدة عريضة وإن كانت مجزأة. وكما كانت حالة بعض الحركات القومية فى أوروبا فى القرن التاسع عشر، كان على القومية العربية أن تتغلب على خلافات عميقة الجذور فى الدين، والبناء الاجتماعى، والأبعاد الجغرافية، ومصالح الاستثمار المحلية، والنهضة الثقافية العربية، وانتشار التعليم، وتقدم مصر فى الإصلاحات والمكانة الدولية – كل هذا أعطى قوة دافعة كبيرة للتطور الذى بدأ بتكوين الجامعة العربية من سبع دول عربية فى القاهرة فى ٢٢ مارس سنة ١٩٤٥ – وانضمت إلى الجامعة العربية فى السنين التالية بعد حصولها على الاستقلال ليبيا، والسودان. ومراكش، وتونس، والكويت.

وخير قياس للوحدة العربية هو أن نستعيد تصريحًا حديث العهد فى سنة ١٩٣٩ لمؤرخ للحركة القومية العربية. فوفقًا لرأيه نتج عن الاستعمار البريطانى لمصر فى الوقت الذى كانت اليقظة القومية قد ترجمت نفسها فعلا إلى حركة ذات إدراك سياسى، تيار جديد من الأفكار كان وجه مصريًا بنوع خاص.

«كانت هناك، كما هو كائن اليوم، مساحة كبيرة من الأرض المشتركة بين الأمانى المصرية والعربية. ولكن فى مجال النشاط القومى الخاص كان الانفصال تاما. وينطبق الحال على تونس فى خضوعها للحماية الفرنسية. ووجدت الحركة القومية العربية نفسها، بدرجة أكثر من أى وقت مضى، محصورة فى سوريا والعراق وشبه الجزيرة العربية». كان هذا فى سنة ١٩٣٩ هو حكم زعيم قومى سورى مسيحى كانت له روابط شخصية بمصر.

ولم يرد أى ذكر فى سنة ١٩٣٩ لاشتراك مراكش فى حركة قومية عربية. وعندما أنشئت الجامعة العربية لم تشترك فيها أفريقيا الشمالية فيما عدا مصر. وهكذا كانت مفاجأة عندما امتدح سلطان مراكش إذ ذاك فى زيارته الأولى لطنجة، التى كانت مدينة دولية فى ذلك الوقت، فى ١٠ أبريل سنة ١٩٤٧، الجامعة العربية لتقويتها الروابط

بين العرب جميعًا «التى سمحت لملوكهم وزعمائهم فى الشرق والغرب أن يوحدوا إرادتهم ويسيروا نحو تقدم خلقى». وصرح بعد ذلك بيومين فى مؤتمر من الصحفيين الأجانب، «لا حاجة إلى القول إن مراكش، وهى دولة تتصل بروابط قوية بالدول العربية فى الشرق، ترغب بعزم أكبر فى تقوية هذه الروابط، وخصوصاً لأن الجامعة العربية قد أصبحت الآن عاملا هامًا فى الشئون الدولية» وفى اتفاقية طنجة فى ٩ أبريل ١٩٥١ اتحدت الجماعات العديدة المختلفة للقومية المراكشية فى المناطق الفرنسية والإسبانية لبلادهم فى جبهة قومية وأعلنت أن التعاون مع الجامعة العربية «واجب قومى قبل تحقيق الاستقلال وبعده». وبعد ذلك بثمانية أعوام، وقد حصلت مراكش على استقلالها. عقدت الجامعة العربية اجتماعها السنوى فى الدار البيضاء، وتغيبت العراق وتونس بسبب خلافات عربية داخلية. ولكن فى الاجتماع الذى عقد فى بغداد، العاصمة العراقية، فى أوائل سنة ١٩٦١، اشترك جميع وزراء خارجية الدول الأعضاء لتوحيد السياسات العربية، خصوصاً بالنسبة للجزائر وفلسطين، وعلى الرغم من أنه لا تبدو فى المستقبل القريب حكومة وحدوية أو اتحادية - حيث لا تزال الخلافات المحلية كبيرة - فلعل أمامنا تعاونا ثقافيًا وسياسيًا واقتصاديًا وعسكريًا، بالمقابلة للخلافات القائمة، أكبر من كل ما كان متوقعًا فى سنة ١٩٣٩ .

ومقومات الهند بوصفها أمة أقل من العرب. أن لها وحدة ثقافية مماثلة، وماضيًا مشتركًا مماثلاً. ولكن يوجد فى الهند أنواع أكبر من التوتر بالنسبة للجنس والدين، وانقسامات طائفية أكثر حدة، كما أنها تفتقر إلى لغة مشتركة وإلى الغيرة بين اللغات المكتوبة التى أصبحت وسيلة للأمانى الثقافية. ولكن الهند وبفضل الإدارة البريطانية فى مائة وخمسين عامًا، قد جهزت بجهاز إدارى موحد، ونظام للمواصلات لا يوجدان فى البلاد العربية، وبذكرى كفاح مشترك للاستقلال، وفوق كل شىء بتقاليد مشتركة لموظفين مدنيين مدربين تدريبًا عاليًا ومشربين بالروح الغربية قد كرسوا أنفسهم لما يقرب من القرن لمهمة بناء أمة حديثة.

وقد توثقت صلة الهند بأوروبا فى نفس الوقت الذى حدث فيه ذلك بالنسبة لمصر تقريبًا، ولكنها كانت تفتقر إلى ما لمصر من طابع الدولة الموحدة. وكانت الهند منقسمة بعمق إلى عدد كبير من الولايات والأديان والطوائف المتنازعة تعيش حياة مستقلة ومنفصلة. وكانت تسودها قبضة الروح المتزمتة للمحافظة على التقاليد. وكان أول من كسرها هو «رام روهان روى»، البنغالى البراهمى، والذى درس الإسلام والمسيحية ووقع تحت تأثير المذهب العقلى الإنسانى (humanist rationalism) وكان أول من جند الإصلاح الاجتماعى، وأول من أنشأ صحافة باللغة الأهلية، ودعا إلى التعليم الإنجليزى، وتخلى عن التزمت الطائفى بأن أبحر إلى أوروبا. وقد مات أثناء تجولاته فى إنجلترا سنة ١٨٣٣ . وكان المثل الأعلى للجمعية الصغيرة التى أنشأها مع بعض أبناء الطبقة العليا من البراهميين البنغال (ومن بينهم دواركانات طاغور، جد الشاعر البنغالى رابندرانات طاغور أول هندى حصل على جائزة نوبل فى الأدب سنة ١٩١٣) هو الجمع بين خير ما فى الحضارتين الآسيوية والأوروبية. وأنشأ بعض تابعيه «جمعية تحصيل المعرفة العامة» وأصدروا جريدة باسم «البحث عن المعرفة».

أعطى رام روهان روى الدفعة الأورلى نحو ميلاد الهند من جديد، وكان أول من خرج على العزلة التامة للهندوسية وأول من اجترأ على فتح السبل لاختيارها الذاتى.

وقد كتب أحد القوميين الهنود فى أول القرن الحالى، «إن القيمة الأساسية لعمله فى رأينا، تبدو فى حربة ضد قوى الإقطاع فى الهند، وهذا هو السبب فى دعوانا له بشرف كونه أبًا للنهضة الهندية الحالية». وعندما فتحت كلية الطب فى كلكتا فى سنة ١٨٣٥ كان هناك فعلا بعض كبار طائفة الهندوس ممن لمسوا وشرحوا جثثا على الرغم من حقيقة أن دينهم يمنع هذا منعًا باتًا. وفى نفس السنة قدم توماس ماكولى بوصفه رئيسًا للجنة التعليم العام، مذكرته عن التعليم الهندى. وقد دعا إلى حرية الصحافة ومساواة الأوروبين والهنود أمام القانون. وحتى أهم من ذلك، اقترح نظامًا للتعليم الحديث، يقوم على الثقافة واللغة الإنجليزية. وقد أحسن التعبير عن غرضه من عمله هذا بكلماته نفسها: «قد يمتد الفكر الهندى فى ظل نظامنا حتى يتفوق على هذا النظام، وقد يكتسب رعايانا، وقد نشأوا فى ظل حكومتنا الصالحة، قدرة على حكومة أصلح، وقد تزيد رغبتهم فى النظم الأوروبية وقد تعلموا التعليم الأوروبى. ولست أعرف إذا كان سيأتى هذا اليوم. ولكنه إذا أتى فسيكون أفخر الأيام فى تاريخ إنجلترا».

وقد أصبح المتعلمون الهنود، وهم نتاج هذه الإصلاحات التعليمية وإنشاء المدارس والكليات الكثيرة، آباء للقومية الهندية. وذكر تقرير مونتاجو شلمز فورد عن الإصلاحات الدستورية فى الهند، الذى نشر فى سنة ١٩١٨ فى الفقرة ١٣٩، «لقد شربوا الأفكار التى وضعناها نحن أمامهم، ويجب أن نعتبر ذلك لصالحهم. والحركة الثقافية والأخلاقية الحالية فى الهند أدنى إلى أن تكون نتيجة لعملنا من أن تكون نقدا له... إن علينا أن نعطف عليه (الهندى المتعلم) لأنه أدرك فكرة إدارة شئونه بنفسه وسعى وراءها وهو هدف لا يعجز أى إنجليزى عن احترامه... لقد فعل الكثير بالأحاديث وفى الصحافة، لنشر فكرة هند موحدة تحترم نفسها بين آلاف لم تكن مثل هذه الفكرة فى أذهانهم». وأصبحت الهند بسرعة فى المقدمة بين الدول الآسيوية فى تطبيق الإصلاحات السياسية الغربية وفى اتباع النمط الإنجليزى القانونى والدستورى، وبحلول الحرب العالمية الأولى كان الاتصال بأوروبا قد ازداد كثيرًا. وفى سنة ١٩٢٣ أحصت الجامعات الإنجليزية بين طلبتها ١٤٠١ من آسيا (بينهم ١٠٩٤ من الهند وسيلان)، و١١٧١ من أفريقيا (بينهم ٢٩٨ من مصر). وكان المسلمون الهنود أبطأ فى قبول التأثيرات الغربية من الهندوس.

وكان السيد سعد أحمد خان أول من آمن منهم بالحاجة إلى التعليم الحديث، وقد زار إنجلترا فى سنة ١٨٦٩ وترك ابنه الأكبر هناك ليتعلم فى كمبردج. ونشر بعد عودته صحيفة، «المصلح الاجتماعى المسلم» التى حاولت نشر التعليم الحديث وتشجيعه بين أبناء دينه. وفى سنة ١٨٧٧ أنشأ الكلية الإنجليزية - الشرقية فى عليكره.

وقد وضع الجيل الجديد من الهنود المتعلمين تعليماً إنجليزيًا الأساس لنمو الهند بتكوين المؤتمر الوطنى الهندى الذى عقد أول اجتماعاته السنوية فى بومباى فى نهاية سنة ١٨٨٥ . وقد وجدت بوجوده أول جمعية تمثيلية ومعبرة عن الرأى العام فى تاريخ آسيا. وكان المؤتمر، نظريا على الأقل، يمثل الهند كلها، فوق الجنس والطائفة، والدين والإقليم. وعلى الرغم من أن الأغلبية العظمى من أعضائه كانوا من الهندوس، فبين سنة ١٨٨٥، وسنة ١٩١٤ انتخب ثلاثة من المسلمين، وأربعة من الإنجليز، وباريسى واحد رؤساء للمؤتمر، أحد الإنجليز مرتين والباريسى ثلاث مرات. والمؤتمر، وكان أول من اقترحه هو آلان أو كتافيان هيوم الموظف السابق بالحكومة الهندية، كان عليه أن يوحد كل العناصر المختلفة والمتعادية، حتى ذلك الوقت، التى تكون الشعب الهندى، فى بناء قومى واحد، وأن يوجه عملية إعادة ميلاد الأمة التى تتطور على هذا التحو، ثقافياً، وأخلاقيًا، واجتماعيًا، وسياسيًا، وأن يقوى الرابطة التى تربط بريطانيا بالهند بتغيير كل ما هو ظالم أو جارح للهند، كان على المؤتمر أن يجمع زعماء الأجزاء المختلفة للهند، وأن يثير شعورهم بالوحدة، وأن يدربهم سياسيًا. وكان المؤتمر لهذا الغرض يجتمع كل سنة فى مدينة أخرى.

وكان زعماء المؤتمر قبل سنة ١٩٠٥ يأتون من جيل نشأ على النظرة التحررية البريطانية، لميل وجلادستون. وكانت بينهم شخصيات عظيمة مثل سورندرانات بانرجى وكوبال كريشنا جوكال. ولكن فى نهاية القرن أصبحت القومية الهندية، بعد الاتجاه العام للتطور الغربى الذى كان موجوداً، أكثر تركيزا على نفسها وأقل صبرا وأكثر تلهفا للعمل. والحركات الدينية بإلهام داياننداء واما كريشنا، وفيفكانندا، أثارت اعتزاز الشباب بالحضارة الهندية القديمة وثقتهم فى رسالة الهند الفريدة. لقد دفعوا الناس إلى أن يغمروا أرواحهم فى الثروة الموروثة من الفكر الهندى وأن يتحولوا عن الغرب،

المتهم بأنه ضحل ومادى، وتوجهوا إلى الآلهة القديمة والتمسوا منها أن تطرد القوى الأجنبية التى كان يعتقد أنها تمتص نخاع الهند ذاته. وألف الشبان الجمعيات السرية وطالبوا بالأعمال. وكما حدث فى البلاد الأوروبية والآسيوية الأخرى، كثيراً ما كان الشبان قلب هذه الحركة وروحها. وكان زعيمهم هو يال جانداكار تيلاك، وهو براهمى شيتبافى، وهى الطائفة التى حكمت إمبراطورية ماراتا، التى قامت فى القرن السابع عشر فى الكفاح ضد المسلمين. وكان يريد أن يبعث فى الهند روحا عسكرية ومكافحة وأن يتحول ضد اتجاه الإصلاح الاجتماعى. وحاول فى سنة ١٩٠٥ أن يكسب الأغلبية فى المؤتمر. وقبل المؤتمر فى اجتماعه سنة ١٩٠٦ برنامج (سواديشى)، لمقاطعة الإنجليز لصالح المواد والمنتجات الأهلية، وطالب لأول مرة بالحكم الذاتى للهند داخل نطاق الإمبراطورية البريطانية. ولكن الحكومة البريطانية أدخلت فى السنة التالية إصلاحات دستورية فى الهند وساد المعتدلون فى المؤتمر.

وقد لعبت الحرب العالمية الأولى دوراً قوياً فى رفع القومية الهندية كما فعلت فى مصر. وأصبحت الجماهير فى كل من الدولتين واعية وعياً سياسياً. وانتشر التعليم الأولى بينهم، ومر مركز المرأة فى الحياة العامة بتغيير تدريجى، وجرى الإحساس بتأثير تصنيع ناشىء وتمدين حثيث. وفى سنة ١٩١٦ أسس تيلاك وسيدة إنجليزية بارزة هى المسز آنى بيزانت التى كانت فى السبعين من عمرها تقريباً واتخذت بوصفها زعيمة الحركة الصوفية من الهند مقاماً لها، جمعية الحكم المحلى الهندية. وقد انتخبت رئيسة للمؤتمر الوطنى الهندى الذى اجتمع فى كلكتا فى ديسمبر سنة ١٩١٧ ورفض المؤتمر الإصلاحات الدستورية التى اقترحتها بريطانيا للهند فى مايو سنة ١٩١٨ بوصفها غير كافية، وعارض نية استبقاء إجراءات وقت الحرب لكبح القلاقل الثورية والانقلابية. ولكن سرعان ما أصبح المؤتمر أكثر جذرية واختفى من المسرح الجيل الذى قاد الحركة فى أيام فيكتوريا، وانتقلت مسز بيزانت إلى المعتدلين، ومات تيلاك فى سنة ١٩٢٠ . وعندئذ وجد المؤتمر ووجدت الجماهير زعيماً جديداً فى موهانداس كارامشاند غاندى، الذى كان قد عاد فى سنة ١٩١٤ فقط وهو فى سن الخامسة والأربعين، بعد غياب عدة سنوات فى لندن وفى جنوب أفريقيا. وكان أول ما يريد تحقيقه أساساً. كما فعل سعد زغلول،

هو تقوية الاتحاد بين الطبقة الوسطى فى المدن وبين الفلاحين. وأحيا غاندى حركة السواديشى وحول كل أقسام المؤتمر إلى المطالبة بالسواراج، الحكم الذاتى، وأصبح فى نفس الوقت أول الأصوات فى رفض الحضارة «المادية» للغرب الحديث. يجب ألا تسلك الهند الطريق التى انتهت بأوروبا إلى الحرب.

وخير ما تصور به حالة السنين التالية للحرب هو تجربة شاب هندى مثقف أصبح فيما بعد ناقداً شديداً لغاندى وللتطرف فى القومية الهندية. وكان قد قرأ فى سنة ١٩٢٠ مقالا فى الملحق الأدبى لصحيفة التيمز لأوزوالد سينجلر «لم يكن فى حياتى فرصة ثانية أصبحت فيها مجرد قراءة مقال تجربة تبعث مثل هذا الفخر.... كانت رسالة الكتاب.... تتفق اتفاقًا أوثق مع حالتى منه مع حالة أوروبا التى أنهكتها الحرب وتخلصت من وهمها.... واعتزاز أوروبا بالقوة التى أصابتنا بمثل هذه الجروح وهذا الامتهان والذى كان يبدو مع ذلك منتصراً لا يقاوم، كان سيحارب شيئًا تفوق قوته إرادتنا وقدرتنا تفوقا لاحد له: كان التاريخ سيسحقه فى حركته الحتمية».

أدت (الغاندية) إلى إحياء قومية هندوسية مركزة على نفسها، تختلف عن وطنية (رام روهن روى) الباكرة. وكان القوميون الهنود يبجلون غاندى ويستغلونه، ولكن الهند التى انبثقت توجهت وجهاتها وأدى إحياء الهندوسية إلى شعور مرير ضد المسلمين. وقبل الحرب العالمية الثانية وفى أثنائها استولى على خيال كثير من الهنود وأثار ولاءهم رجال مثل (سوبهاس شاندرا بوز) الثورى الذى تعلم فى كمبردج. وأصبح بطلا للجماهير وللمثقفين بالمثل، وقاد الجناح المتطرف الإرهابى للقوميين وكان شبه فاشستى فى تفضيله التشكيلات شبه العسكرية. وقد انفصل عن غاندى، معتقداً أن «خلاص الهند لن يتحقق تحت زعامته» كما كتب فى سنة ١٩٢٤ . وأيد أعداء بريطانيا وألمانيا الاشتراكية الوطنية واليابان الإمبريالية، ونظم «جيشًا هنديًا وطنيًا» ليغزو الهند مع اليابانيين. وأصبح بعد وفاته فى سنة ١٩٤٥ أسطورة فى الهند، وفوق كل شىء فى البنغال حيث تعلق صوره فى كثير من المنازل.

ولكن الاستقلال لم يأت عن طريق «بوز» ولا عن طريق انتصار الفاشست. لقد كان هناك ما ينبئ عنه فعلا فى قانون حكومة الهند فى سنة ١٩٣٥ التى وضعت الأسس للانتقال المنظم إلى حكم ذاتى ديموقراطى، وفى بعثته سير ستافوردكريس إلى الهند فى سنة ١٩٤٢ . وقد بدأ «تهنيد» الوظائف الكبيرة، المدنية والعسكرية، بعد الحرب العالمية الأولى، وفى سنة ١٩١٨ قبل الهنود فى الأكاديمية العسكرية الملكية فى ساندهرست بانجلترا، وفى سنة ١٩٣٤ افتتحت ساندهرست هندية، والجيش الهندى، هو من المتطوعين، والذى كان يتكون فى سنة ١٩٣٩ من ١٨٩,٠٠٠ رجل، ١١١٥ من ضباط الصف الهنود، وصل أثناء الحرب إلى ٢,٥٠٠,٠٠٠ رجل، ١٥,٧٤٠ ضابطًا هنديًا، وقد قدم، مع أسطول هندى ملكى وقوة جوية هندية ملكية، خدمة لا تقدر للمجهود الحربى البريطانى فى كل مسارح الحرب. وكانت حتى أعظم من ذلك المساعدة الاقتصادية الهندية التى عجلت النمو الاقتصادى للبلاد وحولتها من دولة مدينة إلى دولة دائنة لها أرصدة متراكمة كبيرة فى لندن فى نهاية الحرب.

وفى يونية سنة ١٩٤٣ أصبح الفيلد مارشال فيسكونت ويفل.. نائب ملك وقد كان مساعد اللورد اللنبى فى الحرب العالمية الأولى، وفى الحرب العالمية الثانية كان خليفة اللنبى فى منصب قائد الجيوش البريطانية فى الشرق الأوسط ثم نقل فى سنة ١٩٤١ إلى منصب قائد القوات البريطانية فى الهند. وقد كرر فى الهند ما فعله اللنبى فى مصر. وفى نهاية الحرب العالمية الثانية، أجريت الانتخابات فى الهند، وسرعان ما كانت حكومات برلمانية مسئولة تعمل فى كل المقاطعات. وفى فبراير سنة ١٩٤٦ وعد رئيس الوزراء البريطانى كليمنت أتلى بأن الهند حرة فى تقرير الاستقلال التام، بما فى ذلك حق الانفصال عن الكومنولث. وقامت حكومة مؤقتة تولى الهنود جميع مناصبها الوزارية وتولى جواهر لال نهرو ومنصب نائب الرئيس لنائب الملك. وكانت العقبة الوحيدة فى ذلك الوقت هى العداء المر بين الهندوس والمسلمين، وهو عداء يقوم على طرقهم المختلفة فى الحياة ومشاعر عدم الثقة والكراهية التى قامت بينهما مدة طويلة، وزادتها الاعتداءات المتزايدة، وتركيز القومية الهندية على نفسها. وفى سنة ١٩٤٧ خلف الفيسكونت مونتباتن اللورد ويفل فى منصب نائب الملك، وكان قد تقرر تقسيم الهند إلى دولتين،

الهند وباكستان وقدمت الحكومة البريطانية مشروع قانون استقلال الهند إلى البرلمان البريطاني في يوليو سنة ١٩٤٧ . وأصبح قانونًا بعد ذلك بأسبوعين. وأصبحت الهند مستقلة في ١٥ أغسطس سنة ١٩٤٧ . وقررت كل من الدولتين الجديدتين باختيارهما البقاء في الكومنولث، وعاش التقليد البريطاني في الخدمة المدنية، وفي القضاء وفي القوات المسلحة، وفي يناير سنة ١٩٤٨ اغتال غاندي أحد القوميين الهنود المتعصبين.

ويحدد منح الهند استقلالها أهم خطوة في تاريخ تصفية الاستعمار. وقد كانت الهند البريطانية أوضح رمز لقوة أوروبا الإمبريالية. وقد كتب بتيودور روزفلت في ١١ أغسطس سنة ١٨٩٩ إلى سيسل سبرنج - ريس، وهو ديبلوماسي بريطاني كان في طهران في ذلك الوقت: «لقد فعلتم في الهند أشياء رائعة، حتى إنكم باستمراركم في الحكم قد تحولون الشعب الهندي تدريجيًا وبمرور قرن وراء قرن، ليس في الدم، وليس على الأرجح في الكلام، ولكن في الحكومة وفي الثقافة، وهكذا تتركون أثركم كما تركت روما أثرها في أوروبا الغربية». ولم تلزم بريطانيا قرونا، بل أقل من نصف قرن لتفك قبضتها عن الهند، وأصبح تحرير الهند علامة للنجاح السريع لحركات الكفاح الأخرى في سبيل الاستقلال في آسيا وأفريقيا. وأغلب الدول الجديدة كانت أقل إعدادًا للأنتقال المنظم مما كانت عليه مصر والهند، حيث كان للقومية الحديثة ماض قديم مثل كثير من الشعوب الأوروبية كشعوب البلقان والبلطين التي بدأت تجربة تأثير الفكر الغربي في القرن التاسع عشر وأثار فيها النشاط الثقافي والسياسي. وتحدد السنوات سنة ١٩٠٤ وسنة ١٩٠٥ نقطة تحول وبداية جديدة لأغلب الشعوب في آسيا وأفريقيا، وهي تقارن في ذلك بالسنوات - سنة ١٨٤٨ وسنة١٨٤٩ - في تاريخ القومية في أوروبا الوسطى. وفي سنة ١٩٠٥ بدأت حوادث ترتبط بروسيا في تحريك شعوب آسيا وأفريقيا، ولأول مرة أخذ تأثير روسيا مكانه إلى جانب تأثير بريطانيا وفرنسا والغرب على العموم.

تعد الحرب الروسية – اليابانية فى سنة ١٩٠٤ والثورة الروسية الفاشلة فى سنة ١٩٠٥ نقطة تحول فى تاريخ القومية فى آسيا وأفريقيا، ومن ثم فى تاريخ تصفية الاستعمار. وقبل نهاية القرن كان شباب آسيا وأفريقيا قد بدأ يتلقى بحماسة أفكار الغرب عن الحرية والمساواة، وعن حقوق الرجال وحقوق الشعوب فى تقرير مصيرهم وتاريخهم. لقد تعلموا هذه الحقوق فى مدارس الإرساليات، وفى الكليات التى أنشأتها الإدارة البريطانية فى الهند وفى المستعمرات الأخرى، وفى المؤسسات الغربية للتعليم العالى. وحوالى نهاية القرن كان مئات من الشبان الهنود يدرسون فى كمبردج ولندن، ومن الهنود – الصينيين والأفريقيين فى باريس، ومن الصينيين فى جامعات أمريكا.

وتحت تأثير الأفكار الغربية وحركات إيطاليا الفتاة وإيرلندا الفتاة وألمانيا وروسيا الفتاة فى أوروبا فى منتصف القرن التاسع عشر نشأت على التوالى حركات تركيا الفتاة، والهند الفتاة، والصين الفتاة، ومصر الفتاة. وفى كل هذه الحالات كانت الحركات محصورة فى بدايتها فى دوائر صغيرة من المثقفين والثوار، وكثير منهم كان يعمل ويعيش فى المنفى. وكانوا يريدون أن تتمتع بلادهم من الفوائد التى تفيض من أفكار العصر التقدمية التى تعلموها من الغرب. وترجمت الكتب الغربية وأدخلت أساليب وطرق جديدة فى اللغات الوطنية. وقامت هذه الجماعات الصغيرة بدور الخميرة فى دوائر يزيد اتساعها، وترجمت الإثارة الثقافية إلى عمل سياسى، بمجرد أن واتتها الظروف الخارجية. وقامت مثل هذه الفرصة عندما انتصرت اليابان التى كانت حتى وقت قريب دولة شرقية متأخرة متعزلة، على الإمبراطورية الروسية التى كانت تنظر بريطانيا إلى توسعها عبر آسيا على أنه أكبر ما يتهددها طوال قرن تقريباً. وهذه الضربة الأولى التى وجهها شعب «ملون» ضد السيادة الظاهرية للرجل الأبيض، تركت أثراً عميقاً فى عقول أفريقيا وآسيا. وأصبحت اليابان بشعارها «آسيا للآسيويين» زعيمة لآسيا الجديدة. لقد بينت أن شعباً أسيوياً يمكنه، بالعصرية المنظمة لبنائه وحياته القومية وخلال قوته الذاتية، أن يطالب بالمساواة مع القوى الأوروبية العظيمة ويكسبها.

وقد وصف شهود معاصرون تأثير الحادث على القومية الآسيوية والأفريقية فكتب س. ف أندروز قبل الحرب العالمية الأولى «فى نهاية سنة ١٩٠٤ كان واضحًا لأولئك الذين يرقبون الأفق السياسى أن تغييرات عظيمة على وشك الوقوع فى الشرق فقد أبقت الحرب بين روسيا واليابان الشعوب المحيطة فى حالة ترقب شديد. وحتى الفلاحين فى القرى النائية كانوا يتحدثون عن انتصارات اليابان وهم يجلسون فى حلقاتهم يديرون بينهم الهوكا فى الليل.... كانت آسيا قد تأثرت من أقصاها إلى أقصاها. وانقطع أخيراً نوم القرون. وكان فصل جديد يكتب فى تاريخ العالم. وكانت دلهى نقطة الالتقاء بين الهندوس والمسلمين، حيث كان يمكن ملاحظة أفكارهم وتسجيلها. وكان المسلمون. كما هو متوقع، ينظرون إلى نكسات روسيا من وجهة النظر الإقليمية أساساً. وبدا أن هذه التراجعات تحدد مدى توسع الدول المسيحية على وجه الأرض. ونظر الهندوس أكثر إلى المعنى الداخلى للحادث. لقد بدا أنه قد قيض لزمان المجد القديم وعظمة آسيا أن يعودا. فقد تتوحد من جديد أرض بوذا من سيلان إلى اليابان فى الفكر وفى الحياة. وقد تخرج الهندوسية مرة أخرى كنوزها القديمة من الثقافة الروحية لصالح البشرية. وكان خلف هذه الأحلام والرؤى، الأمل الواحد السعيد – أن أيام الخضوع للغرب قد انتهت وأن يوم الاستقلال قد أشرق – وكان الكثير قد انقضى للإعداد لبزوغ مثل هذا الأمل، وكانت الانتصارات اليابانية قد جعلته لأول مرة مشرقًا وضاء».

لاحظ نفس الظاهرة فى أفريقيا إنجليزى عاش هناك أربعين عامًا وكتب فى سنة ١٩٠٧: «فجأة وعلى غير انتظار، انهار الاعتقاد بأن القوات الوطنية، مهما كانت شجاعتها، يبزها الأوروبيون، عند اكتشاف أن روسيا التى كانت تعتبر فى الشرق أكبر قوة عسكرية فى أوروبا، قد هزمت على أيدى قوة ضعيفة قليلة العدد، لم يكن شعبها، أيا كانت أوصافه الأخرى، من القوقازيين أو المسيحيين . وقد يقال بحق إن الأفريقيين الوطنيين لا يعرفون شيئًا عن اليابان. ولكنى مع ذلك أشك فى وجود مدينة أو قرية فى أفريقيا كلها لم يعلم سكانها بطريقة مباشرة أو غير مباشرة أن الغزاة الروس للشرق الأقصى قد شتتوا كالغنم على أيدى جنس غير أوروبى لا يعرفونه».

وبعد ذلك بسنوات كثيرة تذكر أحد البنغاليين المفكرين التأثير الذى أنتجه الانتصار اليابانى فى جيله الذى كان فى مرحلة الصبا فى ذلك الوقت «شعرنا بسعادة هائلة، وبنوع من استعادة الثقافة فى وجه الأوروبيين، وبشعور من العرفان وتقدير البطولة لليابانيين». وقرر ض يات ش فى تاريخ متأخر من سنة ١٩٢٤ «نشأت يابان جديدة، وأعطى انتصار اليابان أملا غير محدود للأمم الأخرى فى آسيا.. وارتفاع اليابان لم يحقق مكانة للجنس «الياماتوى» فحسب بل رفع مكانة كل الشعوب الآسيوية. لقد ظننا مرة أننا لا نستطيع أن نفعل ما يفعله الأوروبيون، ونحن نرى الآن أن اليابان قد تعلمت من أوروبا، وأننا أيضا سنتعلم،...».

وأشعلت الانتصارات اليابانية ثورة سنة ١٩٠٥ الروسية، وهى انتفاضة سيئة التنظيم بدون قيادة فعالة. وكانت موجهة ضد الاستبداد الأوتوقراطى والبيروقراطى، وضد التخلف الاقتصادى وعدم الكفاية الإدارية. وكان الآسيويون سريعين فى الإحساس بأوجه الشبه بين موقفهم والموقف الروسى. ألم تكن الأراضى الآسيوية بلاداً زراعية متخلفة شعوبها وتعيش فى جهل وبؤس، فريسة للاستغلال من البلاد الصناعية الأكثر تقدماً؟ واجتاحت آسيا موجة من القلق الثورى. لا فى الأراضى المستعمرة فحسب مثل الهند ومصر، حيث كان من السهل على الحكومات القادرة حصرها وإرضاؤها جزئيًا، ولكن أيضا فى الأمم المستقلة، والحكومات الدينية القديمة مثل روسيا التى كانت فى حاجة عاجلة إلى التمدين والعصرية – وفارس وتركيا والصين. وإنها لحقيقة تستحق الملاحظة أنه بينما فشل الروس فى التخلص من الأوتوقراطية فى سنة ١٩٠٥، كان نجاح الأتراك والصينيين ظاهراً فى سنة ١٩٠٨ وسنة ١٩١٢، وكانت المطالب التى ارتفعت فى الدول الآسيوية القائدة بين سنة ١٩٠٦ وسنة ١٩١٤ هى، دساتير على النسق الغربى وحكومات أكثر مقدرة على توحيد الأمة والعناية برخاء الجماهير.

وكان الموقف مماثلا فى أمريكا اللاتينية، حيث كانت الحاجة أيضًا إلى الأخذ بالحديث فى المجتمع؛ لمنع التدخل الأجنبى ولرفع مستوى معيشة الجماهير والحادث البارز الذى افتتح به القرن العشرون فى أمريكا اللاتينية كان هو ثورة المكسيك فى سنة ١٩١٠ . وقد حدثت فى نفس الوقت الذى حدثت فيه ثورات تركيا الفتاة والصين الفتاة،

وكانت نتيجتها البرنامج القومى والاجتماعى لدستور سنة ١٩١٧، وتحقق تحت رئاسة الجنرال «لازارو كـاردينـاس» مطلب «حـرية الأرض» Tierray Liebertad الذى يذكـر بمطلب «Zemliay Volya» فى روسيا سنة ١٨٧٠ . وهذه الثورة كتلك التى تبعتها فى آسيا وأفريقيا، لم تعارض الحكم الاقتصادى الأجنبى والتدخل السياسى وترفضه فحسب، بل أكدت التقاليد والقيم الوطنية.. كان استعمال موارد البلاد لرخاء الشعب فى مجموعه، وتأميم الممتلكات الأجنبية الواسعة، وإصلاح كامل للأرض، وحركة مدرسة زراعية، قد وضعت فى خدمة تنشيط كتل الفلاحين الجاهلة ورفعها. وأحيت الثقافة «الآزتية» القديمة. وكانت الثورة المكسيكية هى أولى الثورات التى تهدف إلى إعادة البناء القومى، والاجتماعى والثقافى لكل مجالات الحياة. وقد أدت إلى نزاع طويل ومرير مع الولايات المتحدة لم ينته إلا عندما عرفت الولايات المتحدة ماذا يعنيه شعور المكسيكيين بالكرامة فى ألا يحتملوا فى بلادهم ما لم تكن الولايات المتحدة لتحتمله على أرضها. وكانت نفس اللهفة للكرامة، والرغبة فى الاحترام على قدم المساواة، والسماح بأن يرعى الإنسان شئونه الخاصة دون تدخل من الخارج ، هى نفس الدوافع المحركة وراء القومية فى آسيا وأفريقيا. ونتيجة لها، بدأ الشرق الغامض غير المتطور فى القرن التاسع عشر بأشكاله البدائية المقدسة فى تغير سريع.. ونادراً ما شاهد التاريخ تناقضاً أكبر من التناقض بين آسيا وأفريقيا فى سنة ١٩٠٥ .

ووافقت عملية تصفية الاستعمار التى بدأت فى سنة ١٩٠٥ تولى حكومة الأحرار للحكم فى إنجلترا وهى التى قادت باسم الغرب هذه العملية الناشئة. وفى حديث فى اجتماع الأحرار فى صالة ألبرت فى لندن فى يناير سنة ١٩٠٦ لخص رئيس الوزراء هنرى كامبل – بانرمان، وهو المؤيد المخلص للحكم المحلى لأيرلندا والذى عارض حرب البوير، وجهة نظر الحزب السائدة بأن «العسكرية، والإسراف، والحماية كانت بذوراً نمت فى نفس الحقل، وإذا كانوا يريدون إخلاء الحقل للثقافة الشريفة، فيجب أن يخرجوها جميعاً.. نحن نريد أن نطور المقاطعات غير المنظورة فى هذه البلاد وأن نستعمر بلادنا نفسها.. لقد كانت الحكومة تعارض الاعتداء والمغامرة. وأى دور أنبل تتخذه هذه البلاد العظيمة من أن تضع نفسها فى اللحظة المناسبة على رأس جمعية للسلام؟».

كانت فارس هى أول دولة أسيوية استجابت لحوادث سنة ١٩٠٥ بالإصلاح القومى. وأجبر الطلبة والتجار الشاه فى طهران فى أغسطس سنة ١٩٠٦ على الوعد بإنهاء الحكم الفاسد للبلاط وإدخال إصلاحات دستورية، ووصف شاهد عيان إنجليزى انطباعاته: «كان للثورة الروسية تأثير عجيب جداً هنا. وكانت الأحداث فى روسيا تلاحظ بيقظة كبيرة، وبدا أن روحا جديدة قد تملكت الناس. إنهم يضيقون بحكامهم، وقد أصبحوا يعتقدون - متخذين من روسيا مثلاً - أن من الممكن أن يكون لهم شكل حكومة آخر وأفضل. إنهم، بالطبع، يجهلون مبادئ الحكم جهلاً مطلقًا ولعل ذلك باستثناء قليل من رؤسائهم. وعندما كنت فى سفارة طهران، اعتادوا أن يأتوا ليسألونى كيف يجرى العمل بدستورنا، وكانوا يبدون سذاجة تكاد تدعو إلى الرثاء. إنهم يريدون الهدف بوضوح، ولكن وسائل تحقيقه غامضة عليهم. ولا شك أن سنين كثيرة ستمر قبل أن يصبح هذا البرلمان فعالاً حقيقة». وثبت أن تشخيص البروفيسير برون صحيح. وفى أكثر من نصف القرن الذى انقضى منذ ذلك الوقت، لم تكن الحكومة البرلمانية قد مدت جذورها فى إيران إلا بقدر ضئيل شأنها فى ذلك شأن معظم الدول الآسيوية.

وفى أكتوبر سنة ١٩٠٦ افتتح أول برلمان إيرانى وهو المجلس الملكى وقد حال دون عمله على الوجه المناسب، الفساد الداخلى فى المدن والتنافس القبلى فى الريف، والتدخل الأجنبى. ولم يستطع خلال حياته الكثيرة الانقطاع، أن ينفذ إصلاحا حقيقياً، وأن يجعل إيران أقرب إلى الدولة الحديثة. ولم تنجح الديموقراطية البرلمانية. وكانت الانتخابات تدبر بضغط البلاط وكبار ملاك الأراضى وكثيراً ما كانت تتأثر بالتآمر الأجنبى. ويوجد موقف مماثل بين الدول الحديثة فى آسيا وأفريقيا، ولكنه يوجد أيضاً فى دول كثيرة فى جنوب أوروبا ووسطها الشرقى وأمريكا اللاتينية. ويكون النقد قاصراً إذا أرجعنا عدم نجاح الديموقراطية، وقيام إصلاحات عسكرية فى الأمم الأفرو - آسيوية إلى غياب عناصر «القوقازيين» و«المسيحيين» هناك.

ومن الواضح أن الشعب قد أحسن استقبال حل البرلمان الإيرانى وإحلال الديكتاتورية الصريحة للشاه ورئيس وزرائه محله فى مايو سنة ١٩٦١ وقد كتب ملاحظ أمريكى: «كانت الدهشة تتولى الزوار الأمريكيين وكان يصدمهم أن يجدوا الإيرانيين سعداء بحل البرلمان. وثبت أن تسريح النواب هو أكثر أعمال الشاه الحديثة شعبية. وهناك مثل إيرانى قديم يتناقل.. إن مقعد البرلمان يكلف كثيراً، ولكن قيمته أكبر». ما الذى أثار دهشة الزوار الأمريكيين هكذا؟ إن الشعب الفرنسى لم يشعر بكثير من الأسف لحل البرلمان هناك فى مايو سنة ١٩٥٨، ولا لإحلال الديكتاتورية الشخصية محله.

وكانت إيران بحكم موقعها الجغرافى أبعد كثيراً من تركيا عن الاتصال بأوروبا. وبعد عامين من ثورة إيران، انفجرت ثورة مماثلة، ولكن أكثر نجاحًا من عدة وجوه، فى تركيا. ولم تبدأ بالطلبة والتجار ولكن بمؤامرة ضباط. ووقع طلبهم بتجديد البناء الإقطاعى الدينى للإمبراطورية العثمانية على أرض أحسن إعداداً. كانت الطبقة الحاكمة التركية كالطبقة الروسية الحاكمة على اتصال بأوروبا منذ القرنين السابع عشر والثامن عشر وقد أدخلت تحت ضغط الحاجة العسكرية، التحسينات الفنية المستعارة. وقد ذكر (أوجين جيزلين دى بسبك) الذى كان من سنة ١٥٥٦ إلى سنة ١٥٦٢ سفيراً للإمبراطور فيرديناند الأول فى بلاط سليمان الكبير، فى أحد خطاباته، «لا يوجد فى العالم شعب أكثر استعداداً من الشعب التركى لاستعمال اكتشاف مفيد. وعلى سبيل المثال، لقد استعملوا فوراً مدافعنا الصغيرة والكبيرة وغيرها من اختراعاتنا». وكان رعايا السلطان اليهود والمسيحيون غالبًا ما يعملون وسطاء بين تركيا وبين الغرب المتقدم فنيًا. وقد ساعد الضباط الفرنسيون فى نهاية القرن الثامن عشر فى تنظيم المدارس العسكرية للمدفعية والهندسة البحرية. وكل الإصلاحات - كما كان الحال فى روسيا فى ذلك الوقت. - إلى الحد الذى كانت تصل إليه، ولم تكن تصل إلى حد كبير، كانت تدفعها أسباب عملية بحتة وكانت الدولة هى التى تبدأ بها لا المطالبة العامة وكانت المبادئ الأساسية للعالم الحديث تدرس فى المدارس العسكرية فقط.

وبدأت حركة إصلاح أكثر كمالا بقانون سنة ١٨٣٩ الذى أقام المساواة لكل الرعايا دون النظر إلى الدين، ووعد بضمانات قانونية معينة لحقوق الفرد وبإدخال قوانين جديدة على النسق الأوروبى. وهكذا اتخذت الخطوات الأولى نحو (تغريب Westernising) وعصرية النظم الإقطاعية للإمبراطورية ولكنها لقيت مقاومة الغالبية العظمى من الأتراك، ولم تفتح المدارس الحديثة إلا بعد سنة ١٧٥٧، عندما أنشئت وزارة التعليم. وكانت أهم هذه المدارس «الليسيه الإمبراطورية» فى جالاتا (١٨٦٨)، حيث كان يدرب الموظفون المدنيون وتستعمل الفرنسية لغة للتدريس. ووجدت طبقة مثقفة تركية صغيرة، شبيهة بالطبقة الروسية فى أوائل القرن التاسع عشر، وأصبحت منذ ذلك الوقت فصاعداً القوة الدافعة الأساسية لتغيير جذرى للمجتمع التركى.

وفى هذا الوقت ظهر أول رواد الأدب المحدثين، إبراهيم سيناس وهو ابن ضابط فى الجيش، وقد ترجم بعد عودته من فرنسا بعد أن درس خمسة أعوام، الشعراء الفرنسيين وأنشأ أول صحيفة خاصة. وقد بدأ تلميذه نامق كمال فى سنة ١٨٦٨ نشر أول صحيفة تركية حرة فى لندن، (الحرية) بعد حوالى عقد من بدء ألكسندر هيرزن فى نشر أول دورية روسية حرة. وقد ساعدت روايات نامق كمال الوطنية وشعره المثير على إيقاظ الوعى القومى التركى. وعلى الرغم من أن تقدم رأى عام متيقظ فى سنة ١٧٨٠ كان محصوراً فى دائرة صغيرة جداً، فإنه لم يكن بغير معنى. وفى سنة ١٨٥٩ لم يكن فى تركيا كلها سوى صحيفة أسبوعية واحدة رسمية وأخرى شبه رسمية؛ وبحلول سنة ١٨٧٦ كانت قد ظهرت سبع صحف تركية يومية فى القسطنطينية.

وتحت ضغط الحوادث الدولية، أصدر عبد الحميد وهو رجل ذكى كان قد أصبح سلطاناً فى تلك السنة، دستوراً فى نهاية ١٨٧٦؛ وكان قصير العمر؛ وسرعان ما نفى الداعين إلى الإصلاحات التحررية.. وفى سنة ١٨٧٨ حل البرلمان. وبدأت فترة ثلاثين عامًا من الحكم الاستبدادى الرجعى وكانت تركيا تشعر بغيرة ضد الأفكار الغربية أو التحررية. وبقيت إقطاعية دينية. ولم تكن ثمة حرية للتعبير. كما كانت الحالة فى روسيا فى حكم نيقولا الأول، كان الرجال الذين يدعون إلى إصلاحات تحررية غربية يكرهون على النفى أو التآمر. وأهم جمعية بين الجمعيات السرية كانت هى الجمعية العثمانية

للاتحاد والترقى، والأتراك الشبان كما يطلق عليهم فى الغالب، هم فريق من الضباط اضطروا السلطان فى سنة ١٩٠٨ إلى إعادة دستور سنة ١٨٧٦ . وشهدت تركيا فى السنوات العشر التالية، تحت قناع الملكية الدستورية، ديكتاتورية الشبان الأتراك. ويقظة سريعة للقومية التركية. ولكن هذا العقد كان أيضاً كارثة فى مجال السياسة الخارجية. فقد هزمت الإمبراطورية العثمانية فى حربها ضد إيطاليا، وفى الحرب العالمية الأولى. وقد ضايق الأتراك حمل كل عبء هذه الكوارث ولم يستطيعوا أن ينفذوا إصلاحات جذرية. وأضخم شخصية وضعت أسس القومية التركية فى الربع الأول من القرن العشرين كان هو (زيا جوكالب). وقد تحول من العثمانية إلى التركية، من مجموعة من الشعوب تعيش تحت الحكم العثمانى والأخوة فى الإسلام، إلى وحدة الجنس والثقافة المفترضة فى كل الشعوب التى تتكلم التركية وتعتبر طوران (تركستان فى آسيا الوسطى) وطنهم المشترك. وقد كتب إحدى قصائده «إن المشاعر التى تنبض فى دمى هى صدى ماضى، إنى لا أقرأ عن الأعمال المجيدة لأسلافى فى صفحة ممزقة صفراء متربة من التاريخ، ولكن فى الدم الذى يجرى فى عروقى. وشخصيات أتيلا وجنكيز خان البطولية لا تقل ضخامة عن الإسكندر وقيصر. وأدنى مع ذلك إلى قلبى أوكوز خان، وهو شخصية مغمورة غامضة فى التاريخ. ومع ذلك فهو يعيش فى قلبى وينبض فى عروقى بكل مجده وعظمته. وأوكوز هو الذى يفرح قلبى ويوحى لى بأن أهتف بفخر إن تركيا ليست وطن الأتراك، ولا التركستان، إنها الأرض الأبعد من ذلك امتداداً إنها طوران الخالدة». وهذه الصيحة شبه الدينية للشعور القومى كانت اللغة النموذجية لأوروبا الشرقية والوسطى، ثم بعد ذلك بسرعة لغة القومية فى آسيا وأفريقيا فى القرن العشرين.

وكغيره من القوميين كان جوكالب ينصر الجماعية القومية على الفرد وكان يوافق على القومية المتطرفة ويرفض كل الالتزامات الدولية. مادامت الأمة هى مصدر كل القيم الخلقية ونموذجها للفرد، فالأخلاق بالنسبة له هى حب بلاده وخدمتها، وكان جوكالب – كغيره من القوميين الألمان أو الروس– يريد أن يحيى تقاليد الجماعة وأن «يؤمم» الدين، وكان على استعداد لقبول التكتيك الغربى، ولكنه كان يرى المصادر الأكثر عمقًا لإحياء

الثقافة فى الماضى التركى الذى تتجاوز أمجاده ومفاخره المعرفة التاريخية. وكان يرفض اللغة العثمانية، التى تستعمل فى الحكومة وفى الأدب الكلاسيكى، وهى لغة تتكون من كلمات عربية، وفارسية «وعبارات اصطلاحية، لصالح اللغة التركية الشعبية، التى كانت تحتقر قبل ذلك من الطبقة المتعلمة. وكان يعتقد أن إدخالها لغة للكتابة للأتراك جميعًا سيهدم الحواجز بين المثقفين والجماهير ويساعد ذلك على بناء الوحدة القومية، وكانت أفكار جوكالب فى حالة تطور مستمر؛ لأنه عاش فى العقد الصاخب من التاريخ التركى (١٩٠٨ - ١٩١٨) وقت ميلاد الحركة القومية الحديثة «وكان جوكالب يشغل بين الزعماء المثقفين لهذه الحركة المكان المركزى».

وليفاخر جوكالب بالماضى التركى، وليعرضه بوصفه مصدرًا للحضارة الأوروبية، كان عليه أن يستعين بكثير من التفسيرات الجريئة الخيالية للتاريخ كما لم يستطع أن يقيم رابطة حياة مثمرة بين القومية التركية التى تهتم بالماضى الأسطورى السابق على الإسلام. وبين الإسلام الذى استلهم ثقافته من مصادر عربية وإسلامية، وفى ذلك الخصوص، لم تكن حركة الإصلاح القومية من العرب - وخصوصًا فى مصر - تستطيع أن تبنى على أسس أكثر صلابة فى تكوين خليط من العرف والعصرية. وبمجرد أن تولى مصطفى كمال، بانتصاره على اليونان، السلطة والمركز اللذين لم تملكهما تركيا الفتاة على الإطلاق، قذف بالتقاليد إلى البحر وقرر بكل قلبه «التغريب» الكامل لتركيا باسم القومية.

وقد بقيت الإمبراطورية التركية التى كانت يومًا ما فى غاية القوة، تلاقى لمدة قرن امتهانات أليمة من جانب الدول الكبرى «حتى من جانب رعاياها السابقين. وعلى أى حال، حققت تركيا تحت قيادة مصطفى كمال فى سنة ١٩٢٢ انتصارًا ساحقًا على اليونان أعدائها الوراثيين. وكان اليونان يريدون، بمساعدة بريطانيا، أن يحققوا لثورتهم التى بدأت ضد تركيا منذ قرن نهاية كلية منتصرة، وأن يعيدوا بناء الإمبراطورية اليونانية العظيمة فى العصور الوسطى وقد طردوا خارج الأرض التركية، ونتيجة لهذا النصر المتوقع، أصبحت تركيا الدولة الوحيدة من الدول الخمس المهزومة فى الحرب العالمية الأولى التى استطاعت أن تتنكر لمعاهدة السلام التى فرضها المنتصرون

(وكانت معاهدة سيفر أشد قسوة من معاهدة فرساى)، وأن تحل محلها معاهدة سلام كانت محل مفاوضة حرة بين ندين، وهى معاهدة لوزان التى اعترفت بكل الأمانى القومية التركية «وكان مصطفى كمال ينظر باحتقار إلى ماضى تركيا العثمانى والإسلامى السابق على القومية الذى عرفت فيه تركيا كثيراً من الهزائم المهينة والضياع خلال المائة والخمسين عامًا الأخيرة. وكان مثل جوكالب، يرى فى الماضى البطولى البدائى السابق على الإسلام مصدراً لإلهام تركيا الجديدة، ينطبق عنده على النقاء المفترض للروح القومية التركية. وقد ذهب إلى مدى أبعد من جوكالب فى رغبته فى «التغريب» الجذرى، وفى التحول عن ماضى تركيا الآسيوى والإسلامى. وقد قال فى سنة ١٩٢٣ «فى حكم الإمبراطورية (العثمانية) حاولت حكومات السلطان أن تعوق تركيا عن الاتصال الحر بأوروبا ... نحن القوميين رجال متفتحو الذهن. وستكون بلادنا قطعًا بلاداً حديثة تقدمية». وبعد عام واحد تساءل «هل يمكن لدولة تريد أن تكون متحضرة حقًا أن تبقى خارج الغرب ؟ إن ثمة بلاداً كثيرة ولكن لا توجد غير حضارة واحدة» ومرة أخرى بعد عام «إن هدفنا هو أن نصل إلى المكان الجدير بنا فى عائلة الأمم المتحضرة الغربية».

وكما كتب الأستاذ خليل إينالكيك الأستاذ بجامعة أنقرة؛ «كان انتصار مصطفى كمال هو انتصار «التغريب» فى أكثر ما فهم من أشكاله فهمًا جذريًا» كانت الدولة التى أصبحت جمهورية منفصلة تمامًا عن الدين، وألغى الإسلام بوصفه نظامًا سياسيًا. وأصبح التعليم، والقانون والأدب عصريًا وغربيًا تمامًا. ونزعت من اللغة كل ارتباطاتها التقليدية (العربية أو الفارسية) وكانت تكتب بالحروف اللاتينية بدلاً من الحروف العربية؛ بل إن ديمقراطية بريطانيا على النسق الغربى قبلت بوصفها الهدف غير البعيد، واستبعدت كل الأطماع الإمبريالية التى كانت تستعيد انتصارات الماضى الأسطورى العثمانى أو الإسلامى أو الطورانى وهكذا وضعت تركيا، أكثر من الهند ومصر واليابان، مثلا للقومية العربية تمامًا، بقطعها كل روابطها بماضيها غير الأوروبى.

ووضعت تركيا مصطفى كمال سابقة للتطورات اللاحقة فى بدئها التعاون مع روسيا السوفييتية وفى إقامتها ديكتاتورية الحزب الواحد التى تقوم على القومية المتحمسة وعلى جاذبية شخصية الزعيم. وفى نهاية الحرب العالمية الأولى أبدت الإمبريالية الغربية فى معاهدة سيكس - بيكو، وفى اتفاق الحلفاء فى سان ريمو وفى معاهدة سيفر، إهمالا مستهترًا بالأمانى القومية العربية والتركية (وبالمبادئ الديموقراطية للحضارة الغربية). ولم يكن العرب فى ذلك الوقت متحدين أو منظمين بدرجة تجعل المقاومة ممكنة وكان الأتراك كذلك، وشكرًا لشخصية مصطفى كمال.. ولاتصالهم الوثيق بروسيا السوفييتية وتأييدها: وأنهى تولى لينين السلطة المعاهدات السرية للحرب بين روسيا وحلفائها، وهى التى كانت تعد روسيا، فى حالة النصر، بالقسطنطينية والمضايق، وأحدثت انقلابا فى المحالفات. كانت مؤخرة روسيا القوقازية عندئذ تحميها صداقة الجمهوريات السوفيتية؛ وكان إمداد روسيا لتركيا بالسلاح قد جعل انتصاراتها على الأرمن واليونان ممكنة. وفى ١٦ مارس سنة ١٩٢١ عقدت الحكومة السوفيتية وحكومة مصطفى كمال الثورية معاهدة تعلن مقدمتها: «يؤكد طرفا هذه المعاهدة أن شعوب الشرق فى كفاحهم للتحرير، يحاربون مع عمال روسيا من أجل نظام اجتماعى جديد. وهم يعلنون بتأكيد حق شعوب الشرق فى الحرية والاستقلال وشكل للحكومة يكون وفقًا لرغباتهم».

وكانت صداقة وثيقة تربط بين تركيا وروسيا السوفيتية فى العشرينات. ومكنت المساعدات السوفيتية تركيا، فى السنين الصعبة بين معاهدة سيفر ومعاهدة لوزان، أن تبدى لأوروبا جبهة شجاعة: ومهد إنهاء الاتحاد السوفيتى للامتيازات وحقوق الامتياز فى تركيا الطريق لتجديد الحياة السياسية والاقتصادية للبلاد، بل إن روسيا قد أعادت إلى تركيا فى سنة ١٩٢١ مدن وأقاليم كارس وأردخان، التى كانت قد كسبتها نتيجة لحربها مع تركيا فى سنة ١٨٨٧ . ولكن المبادئ الشيوعية لم يسمح لها بالتقدم فى تركيا الكمالية كما لم يسمح لها بعد ذلك فى الجمهورية العربية المتحدة. وحاولت تركيا، دون الإضرار بصداقتها بالاتحاد السوفيتى، أن تترك كل الطرق التى تؤدى إلى الصداقة والتحالف مع الغرب مفتوحة. وفى وقت لم يكن الإصلاح قد استعمل فيه

بشكل عام، تبعت تركيا القومية سياسة الحياد الإيجابي، التى تقوم على وزن متزن لمصلحتها القومية. ومنذ ذلك الوقت وتركيا تتصرف كما كانت تتصرف الدول الغربية فى تلك الفترة.

وكان الحكم الإصلاحى الثورى لمصطفى كمال، ديكتاتورية جمهورية لرجل واحد، يقود، ويستند إلى حزب جيد التنظيم، هو حزب الشعب الجمهورى. الذى بقى أكثر من عشرين عامًا يحتكر كل الحياة السياسية احتكارًا مطلقًا. وفى سنة ١٩٥٠ فقط سمح لحزب معارض أن يحصل على القوة فى انتخابات حرة. وبقيت تركيا لمدة عشرة أعوام لها فى الظاهر نظام حكم ديموقراطى برلمانى متعدد الأحزاب: وفى سنة ١٩٦٠ قلب هذا الحكم بالجهود المتحدة للطلاب والضباط وحكمت تركيا، مؤقتًا على الأقل، جماعة الضباط. وفى نهاية أربعين عامًا من الإصلاح، كان سبعون فى المائة من الشعب لا يزالون أميين، وكان الاقتصاد مهتزًا، والفقر عظيمًا. واحتفظ التقليد الإسلامى بولاء الشعب فى البلاد، فى المدن والقرى. ومع ذلك فقد امتدت جذور الكمالية بين الشبان. ولم يكن الأمل فى ميلاد أمة حديثة ضائعًا، بالرغم من أن الطريق أمامه كان طويلاً. ولعل مصطفى كمال كان قد طلب الكثير، ولم يكن قد أدخل فى حسابه بكفاءة الاحتياجات الثقافية التقليدية المستمرة، ولم يفهم بقدر كاف، كمعظم رجال جيله، الحاجة إلى قدر أكبر من الديموقراطية فى البلاد غير النامية. وستبين السنوات المقبلة إلى أى مدى تعلم الجيل التركى الشاب الدرس ويستطيع أن يحول تركيا إلى قنطرة تربط الغرب والشرق.

بعد أربعة أعوام من استسلام الإمبراطورية العثمانية لاندفاع القومية الحديثة، لاقت الإمبراطورية الصينية نفس المصير. قلبت الملكية فى الثورة التى بدأت فى أكتوبر سنة ١٩١١ وانتهت بتنازل آخر إمبراطور فى فبراير سنة ١٩١٢ . وفى كلتا الحالتين عجلت الضغوط الخارجية الكفاح الداخلى ضد الأوتوقراطية، والتقليدية، والتدخل الخارجى. وفى الحالة الأولى كان التهديد بالتقسيم الذى يتمثل فى الاتفاق البريطانى – الروسى فى سنة ١٩٠٧ ومحاولة الحلفاء واليونان تقطيع أوصال تركيا بعد سنة ١٩١٨ وعمل الصينيون تحت ضغط تدخل القوى الأجنبية الاقتصادى والإقليمى المتزايد الذى تبع ثورة الملاكمين «البوكسرز» كانت القوى الغربية فى نهاية القرن التاسع عشر تركز على تقسيم أفريقيا، وهم الآن مستعدون للانتقال إلى تقسيم الصين.. وفى تركيا، بالنسبة لبناء البلاد وتقاليدها، تولى الضباط قيادة القومية وفى الصين وقع هذا الدور على عاتق المثقفين والمدرسين وكان أشهرهم كانج بووى، وليانج تشى تشاو، وسن يات سن. وتقوم القومية من البدايات الإنسانية إلى التطرف السياسى، وهو نموذج التطور الأوروبى، تتبعه فى الصين أيضًا. وكان كانج يسعى إلى إصلاح عقلى مستنير للكونفوشية يقوم على التعليم النقدى، وقد بقى إلى نهايته (وقد مات فى سنة ١٩٢٧) ملكيًا دستوريًا، ولم يكن يمجد الاكتفاء الذاتى القومى، وكان أكيد الاعتقاد بالوحدة العالمية والسلام العالمى. وفى كتابه الشهير «تاتونج شو» الذى أخرجه قبل الثورة الصينية، «كان يحض على ضرورة إلغاء الحواجز القومية... واستنبط (من التاريخ) المبدأ الخلقى الذى يقول إنه كلما تقدمت الحضارة فى الغرب زاد سم القومية سوءًا وأصبحت القابلية للقتل أكثر شرًا. لذلك يجب هدم الحواجز بين الأمم وتصبح جميع الشعوب تحت حكم مجلس عالمى يتكون من ممثلين لكل الأمم...»وجاذبية الغرب كانت (بالنسبة له) فى آخر معاوناتها، أن حضارته كانت تكشف أمامه منظرًا لحضارة عالمية».

وانضم ليانج، وهو تلميذ كانج وأصغر منه بخمسة عشر عامًا، إلى الحزب الجمهورى الجديد.. ووقف إلى جانب الثورة الأدبية التى بدأها هوشى فى سنة ١٩١٧

فى الجامعة الوطنية فى بكين، حيث طبق ليانج طرقا نقدية حديثة على دراسة التاريخ الصينى وأسرع بذلك «الثورة الفكرية». وقد ذهب إلى مدى أبعد بكثير من ليانج فى قوميته. وكتب فى سنة ١٩٠٢ «التعليم هو وسيلة البلاد لتربية نوع شعوبها ووصلهم حتى يكونوا مستقلين ويكافحوا للبقاء فى هذا العالم الذى ينتصر فيه ذو اللياقة وينهزم فيه معدوم اللياقة... وأولئك الذين يهتمون بالتعليم هذا العمل العظيم، يجب أولاً أن يعترفوا بمبدئية، الأول أداة صنع الشعب فى البلاد، والثانى طريقة لا غنى عنها لفهم تجربة العالم، ولاختيار الميول فى العالم كله والمميزات الخاصة لنوعنا بقصد استثارة قوته كلها». وقد وصف الدكتور هوشى (١٩٣٣) فى «سوشى تسوشه» كيف كان هو وجيله يحبون فى لهفة مقالات ليانج فى صحيفة (مين باو - صحيفة الشعب)، التى كانت تنشر فى ١٩٠٢ فى طوكيو وكان اهتمامهم هو شعب جديد (سين سين). ومدخله يشترك فى الكثير مع شيرينشفسكى فى روايته التعليمية «روسيا الفتاة»، «ماذا تفعل؟ عند الشعوب الجديدة. كان ليانج يطلب من الشباب أن يدرسوا النظم الغربية، ولكنه كان يحذر من أنه بدون شعب جديد لن تنجح النظم الجديدة. والنظم الغربية تعمل بهذا النجاح لأنها فى رأى ليانج، وهو هنا يختلف مع معلمه كانج، من وحى قومية ناضجة يجب أن تحصل عليها الصين. وينظر الناس الذين من بلاد واحدة وجنس واحد إلى بعضهم البعض على أنهم إخوة ويعملون قبل كل شىء ليكونوا مستقلين وحكاما لأنفسهم. ومن ثم تكون لهم القوة لحكم شعب آخر، بالقوة العسكرية، أو بالتجارة والصناعة، أو بالكنيسة. وكانت القومية هى سر قوة الغرب، وافتقار الصين إليها هو سر ضعفها المهين. وكانت العائلة وأنواع الولاء المحلية تستغرق الصينيين، ويجب أن تخلى هذه مكانها لحب الوطن (أى كو).. وهذا الشعور الجديد الذى وجد التعبير عن نفسه فى الثورة الأدبية أيضا كان بحلول سنة ١٩٢٠ قد أصبح هو الموقف العام للشبان المتعلمين فى الكليات والمدارس العالية ولم يعد ثقافيًا ابتداء بل سياسيًا. واكتسبت الاصطلاحات الصينية المستعملة (للحرية) و (المساواة)، و (الحقوق)، و (الرأى العام)، و (الاستقلال) و (الحكم الذاتى) مدلولات حديثة غربية تأثرت بمفكرين مثل (جون ديوى) و (برتراندراسل). وقد عرف هوشى وصديقه شن توهش الذى كان ينشر الدورية

الراديكالية سن شينج نين (الشباب الجديد): «إن قوة أوروبا وذكاءها اليوم يأتى من فضل الثورة... إن الثورة تعنى إلقاء الماضى بعيداً والتغيير إلى الجديد... وقد يحسن تسمية تاريخ الحضارة الأوروبية الحديثة تاريخًا ثوريًا».

وأصبحت الثورة، السياسية، والثقافية، والاجتماعية، هى الموضوع السائد فى الصين فى القرن العشرين. وقد أبدى الصينيون فى ماضيهم مزاجًا متعقلا غير عسكرى. وقد تغير هذا تحت الضغط الغربى للقومية، تلك القومية التى نقلت إلى الصين فى جو القرن العشرين بالحربين الأوروبيتين الكبيرتين، وبفاشستيته وشيوعيته «وقد تحدث الدكتور هوشى، ولعله أكثر المدرسين الصينيين غربية وتحرراً. عن هذه الروح الجديدة فى محاضرات أرسلها إلى شيكاغو فى سنة ١٩٣٣ . «لاحظ أحد المدرسين الصينيين: من السهل على الصين أن تحصل على الحضارة الغربية، ولكن من الصعب جداً أن تحكم بربريتها. ومع ذلك فأنا أفترض أننا يجب أن نتحكم أولا فى هذه البربرية قبل أن نحس بهذه الحضارة الحديثة. وهو يعنى بالبربرية الجانب العسكرى من الثقافة الغربية، التى لا تتكون من مجرد التسلح بأحدث الأسلحة..، ولكنها يجب أن تفترض سلفًا وجود ما يمكن تسميته بطريقة غير دقيقة «الروح العسكرية»، ويمكن أن تدرج تحت هذا الاصطلاح حب المغامرة، والسرور الذى يكاد يكون بدائيًا بالقتال والتنافس ، والحب الغريزى واحترام المحاربين، والاهتمام بتربية القوة البدنية، وعادة الطاعة، والاستعداد للحرب والموت فى سبيل قضية غير شخصية».

وبدأت الحرب الأوروبية الكبرى بعد أقل من ثلاثة أعوام من الثورة الصينية. وقد غيرت نظرة سن يات سن المؤيدة للغرب، كما خيبت أمل كثيرين غيره من الصينيين المتعلمين. وتأثرت مكانة أوروبا تأثراً سيئًا، وقوى موقف الاعتقاد بشر الغرب بالمعاملة التى لقيتها الصين فى باريس (١٩١٩) وفى واشنطن (١٩٢٢). وفى نفس الوقت كشفت مظاهرات الطلبة فى ٤ مايو سنة ١٩١٩ و٣٠ مايو سنة ١٩٢٥ الشعور الجديد بالثقة بالنفس والنمو السريع للشعور «المضاد للإمبريالية»، والمطالبة بإنهاء «المعاهدات غير المتكافئة» فوراً، وبإنهاء الامتيازات الإقليمية والاقتصادية والقضائية والمالية التى

فرضتها القوى الغربية وروسيا على الصين فى مرحلة ضعفها الشديد قبل القومية، ومسارعة روسيا السوفيتية إلى قبول هذه المطالب، وتسويف الغرب ورفضه، حولا الحزب الوطنى (الكومنتانج) بزعامة سن يات سن إلى السعى للحصول على المساعدة من روسيا. وقد استحوذت الثورة القومية الصينية منذ البداية على اهتمام لينين وعطفه.

وبعد فشل ثورة سنة ١٩٠٥ الروسية، عندما لم يتلق عمال سان بطرسبورج وموسكو أية مساعدة من «رفاقهم الطبقيين» فى الغرب، يئس لينين من البروليتاريا الغربية وعلى الخصوص من زعمائها الذين «خانوا» الاشتراكية. ولمواجهة هذا «الفساد» توجه لينين بأمله إلى آسيا. ورحب فى مؤتمر البلشفيك فى يناير سنة ١٩١٢ بالثورة الصينية، «هى من وجهة نظرنا حادث ذو أهمية دولية فى سبيل تحقيق تحرير آسيا والتخلص من الحكم الأوروبى» وفى مقال نشر بمناسبة الذكرى الثلاثين لوفاة ماركس (١٩١٣) رأى عواصف كبرى تجتاح آسيا. «نحن نعيش الآن وسط عصر هذه العواصف وانعكاس أثرها على أوروبا. وأيا كان مصير الثورة الصينية العظيمة، التى تشحذ ضدها ضباع عديدة متحضرة أسنانها، فلن تعيد أى قوة فى العالم العبودية القديمة فى آسيا، ولن تقتلع من الأرض الديموقراطية البطولية للكتل الشعبية فى البلاد الآسيوية وشبه الآسيوية.

وفى سنة ١٩٢١ عرض أودلف جوف مبعوث لينين مساعدة روسيا على الصين. وقد أثرت هذه المساعدة بعمق على مجرى التاريخ الحديث للصين من حيث الشيوعية والجماعية. وقد هاجم الدكتور سن الإمبريالية الغربية بشدة فى محاضراته. سان مين شو (المبادئ الثلاثة للشعب) التى ألقاها فى سنة ١٩٢٤ وأصبحت القاعدة القانونية للكومنانج وذهب إلى حد إبداء مخاوفه من أن تمتص القوى الصارمة للغرب الصين كلها وتصفى شعبها. ودعا الصين إلى أن تقود الهند وكل الشعوب الخاضعة نحو حرية جديدة. إذا كان الدكتور سن قد اهتم من قبل بتأكيد الحرية الفردية، فهو يطالب الآن بالتمسك التام بحزب الكومنتانج الجماعى وبوحدته «لكى يتحد جميع الأعضاء

(فى الحزب) روحيًا، فأول شيء هو تضحية الحرية، وعندئذ سيحصل الحزب فى مجموعه على الحرية. وإذا استطاع الفرد أن يقدم قدراته، فسيحصل الحزب فى مجموعه على القدرة» ولم يكن الدكتور سن شيوعيًا. على أنه فى خيبة رجائه العميقة بالغرب تطلع إلى المساعدة الشيوعية، ولكن المبادئ الجماعية فى الشيوعية والفاشية تقابل مجالات استبدادية معينة فى التاريخ الصينى. «وكذلك كان هناك رجوع للتقاليد الصينية الثابتة للعائلة والدولة، من أن الوحدة والتجانس هى المطالب النهائية التى يجب أن يضحى من أجلها، إذا دعت الضرورة، بحرية الفرد».

لم يعش سن يات سن ليرى انتصار الحزب القومى. وقبل موته فى مارس سنة ١٩٢٥، أرسل خطابا لزعماء الاتحاد السوفيتى يمتدح «التركة التى تركها لينين الخالد للشعوب المحكومة فى العالم، وسيتمكن ضحايا الإمبريالية، بمساعدة هذه التركة، من التحرر من ذلك النظام الذى قام لقرون على العبودية، والحروب والظلم، إنى أترك ورائى حزبًا سيرتبط بكم، كما أملت دائمًا، فى العمل التاريخى للتحرير النهائى للصين والبلاد الأخرى المستغلة من ربقة الإمبريالية ويجب، بإرادة القدر، أن أترك عملى ناقصًا وأن أسلمه لأولئك الذين سيكونون، ببقائهم أوفياء لمبادئ الحزب وتعاليمه أتباعى المخلصين. وأنا لذلك أكلف الكومنتانج بإتمام عمل الحركة الثورية القومية، لتحرر الصين التى ردها الإمبرياليون إلى مركز البلاد شبه المستعمرة.... وأحب أيها الرفاق وأنا أغادركم أن أعبر عن أملى فى أنه سيأتى اليوم الذى يرحب فيه الاتحاد السوفيتى بالصين الحرة القوية صديقًا وحليفًا، وأن هذين الحليفين سيسيران إلى النصر يدًا فى يد.. فى الكفاح العظيم لتحرير شعوب العالم المحكومة».

وقد عاون الضباط والإداريون والمثيرون السياسيون الروس فى تنظيم الكومنتانج إلى درجة أن جيشه استطاع بقيادة شيانج كاى شك أن يقيم حكومة وطنية فى نانكين فى سنة ١٩٢٧ . وقد انفصل شيانج الذى تلقى تدريبه العسكرى فى موسكو عن الشيوعيين، ومنذ ذلك الوقت، وكل من حزب شيانج الوطنى والحزب الشيوعى بقيادة ماو تسى تونج يؤلفان حكومات صينية، ويعلنان نفسيهما الورثة الحقيقيين لكومنتانج

سن يات سن. ولعل «فشل القوميين فى استمرار الثورة والتزام المبادئ والبرامج التى وضع إطارها مؤسس الحزب، هو الذى أدى فى النهاية إلى سقوط حكم شيانج.

وعلى أى حال، فإن حكومة الحزب الواحد الاستبدادية للكومنتانج قد فقدت طاقتها ومبادأتها البناءة لما لاقته، من دمار الحرب اليابانية ومن زيادة بيروقراطيتها الشائخة، وعدم كفايتها، وفقدت فى أعين الصينيين «الانتداب من السماء». ولا يستطيع أحد أن يتنبأ بما إذا كان حزب ماوتسى الشيوعى سيحتفظ بهذا الانتداب. ويمثل كلا النظامين روح القومية الثورية التى أوحى بها سن. وكلاهما كفاحى وعسكرى، ويعمل خلال طرق بوليسية سرية، ويهتم بالكفاءة والإعداد أكثر من اهتمامه بالحرية الفردية وحرية الرأى. ويضع شيانج نفسه قيمة زائدة للفضائل الاجتماعية الصينية التقليدية. وورثت الحركتان عن سنين سن الأخيرة وخيبة أمله العميقة فى الغرب شعوراً مراً ضد الإمبريالية، واعتزازاً عميقاً بعيد الجذور بالإمبريالية الصينية. ويطالب كلاهما بالحكم الإمبريالى للتبت ومونجوليا، وفورموزا وسيكيانج بوصفها أجزاء لا تنفصل عن الإمبراطورية الصينية، وقد يطالبون تحت ظروف مواتية بأراض أخرى كانت تتبع الصين. ذات مرة. وقد أقام كل من الكومنتانج والشيوعيين نوعا من الاستمرار التاريخى لثورة تاى بنج العظيمة التى أوقعت الصين الوسطى تحت تأثيرها من سنة ١٨٥١ إلى سنة ١٨٦٥ . وهذا الاحتجاج على الملكية التى عجزت عن أن تواجه بنجاح امتهان البرابرة الأجانب للقومية، وعن أن تواجه الخراب الاقتصادى، «كان من كثير من الوجوه الملاح الذى أضاء لهب الثورات الصينية الحديثة وأشعلها. وكان القوميون يستبشرون بزعماء التاى بنج بوصفهم ثوريين وطنيين، والشيوعيون الصينيون يعتبرونهم المطبقين الأوائل للاشتراكية. وعندما يفكر المرء فى أن زعماء تاى بنج قاموا بتجارب اشتراكية واقتصادية جديدة دون عون فكرى أجنبى، فيما عدا معرفة ضئيلة ومشوهة عن المسيحية، لا يعجب عندما يجد الشعب الصينى بعد ذلك راغباً فى أن يعطى. لأى نوع من الثورات فرصة عادلة للتجربة».

ومن بين الأمم الخمس الآسيوية والأفريقية التى قامت بنصيب قيادى فى إيقاظ القومية فى الأعوام المائه الأخيرة فى القارتين - مصر، الهند، اليابان، تركيا،

الصين – اتجهت الأخيرة فقط إلى الشيوعية شكلا لثورتها القومية، وقد تأثروا جميعًا بالغرب الحديث بطرق مختلفة. وقد اختلفت استجابتهم له. وفقًا لتاريخهم وبنائهم الاجتماعى – كما فعلت شعوب أوروبا – ذلك أن التنوع سيظل قائمًا فى تناول الشعوب الموحدة الآخذة فى التطور للبشرية جمعاء إذ كل المجتمعات التى تتألف منها البشرية سوف تؤثر فى كيانها عناصر الاستمرار والتغير الثورى وتتفاعل تفاعلا ديالكتيا يؤدى إلى إحداث التغير الشامل داخل نطاق المجتمع العالمى فى المستقبل. وقد تطبع ظروف الماضى وملابسات التجربة الأفراد والمجتمعات بشكل معين ولكن كان فى التاريخ مكان دائم وسيبقى هذا المكان بدرجة متزايدة، لحرية الإنسان فى التقرير ولقوة الشخصية فى مقابلة تحديات الظروف والملابسات المتغيرة، وإذا كانت الصين قد اتجهت إلى الشيوعية، فيجب ألا نبحث عن سبب ذلك فى حوادث الأربعينات فقط – الاشتراك فى حرب طويلة مع اليابان، فساد الحياة الاقتصادية، انحلال الكومنتانج – ولكن فى العقود السابقة، فى الرفض القاطع لمذهب كونفشيوس التقليدى بوصفه غذاء روحيًا غير كاف، وفى خيبة الأمل العميقة فى الغرب، ويبدو أنه فى الغرب أيضًا لم تعد القومية تحمل رسالة الاستنارة، والتحرير والمساواة والسلام، ولكن تأكيد الذات، وعدم الاهتمام بحقوق الآخرين ومصالحهم مدخلة نظام إمساك الدفاتر المزدوجة فى أخلاقيات العلاقات الدولية، مرتدية علامة الزيف والادعاء.

وتخلى الغرب عن المبادئ المعترف بها للحضارة الحديثة. وانحطاط المسيحية إلى شريك مساعد للسلطات القائمة وقوميتها وإمبرياليتها، حولت أصدقاء الغرب إلى قوم يملؤهم الشك والتوجس. وقد حطت حرب ١٩١٤–١٩١٨ مكانة الغرب. والأسوأ من هذا هو الحقيقة التى كشفت عنها الحوادث بعد سنة ١٩١٨ فى الصين وفى الشرق الأوسط من أن الحرية كان يقصد بها فقط الأوروبيون والأقوياء. واستطاع الأتراك واليابانيون أن يثبتوا قوتهم بالطريقة الوحيدة التى يبدو أن الغرب يحترمها، بالقدرة العسكرية، ولكن فى الصين استمرت الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى فى الاحتفاظ بالمعاهدات غير المتكافئة حتى سنة ١٩٤٣، بعد أكثر من عشرين عامًا من الوقت الذى فعل فيه ذلك لينين روسيا. وكان لهذه السنين وزن كبير فى التحول الثورى السريع فى التفكير الصينى.

استبقت الصين أثناء السنين ذاتها حكومتها وجيشها، ونفذت إصلاحاتها وتعليمها، وبنت أجهزتها المتخصصة. وزادت الذكريات المريرة لسنة ١٩٢٧ عدم الثقة المتبادل. وهكذا وجدت ظروف فريدة فى الصين، لم تعرف فى أى مكان آخر، فى نهاية الحرب العالمية الثانية. لقد عجلت الحرب خلال مدتها الطويلة، وهجراتها، وتضخماتها، وآلامها، بالثورة الاجتماعية والفكرية حتى فى أبعد أجزاء المملكة الواسعة المزدحمة بالسكان. ووسط فساد الكومنتانج واليأس العام، وقف الشيوعيون الصينيون على استعداد للحكم فى ظروف لا توجد إلا فى الصين. ولم تكن خيبة الأمل فى الغرب مقصورة على الصين حيث أخذت شكلها الأقصى. وكانت الأمثلة التى بدا فيها الغرب غير وفى لمبادئه كثيرة. ولنذكر مثلا واحداً، فإن صديقًا مخلصًا، ومؤمنًا، بالغرب وبالتحررية الفرنسية مثل الحبيب بورقيبة فى تونس، وجد نفسه فى سنة ١٩٦١ فى موقف اختلف فيه مع القومية والعسكرية الغربية المركزة على نفسها. ففى يوليو سنة ١٩٦١، كرر الجيش الفرنسى الذى يحارب فى بنزرت بعض المبالغات المتعالية التى عود نفسه عليها فى ست سنوات من الحرب الاستعمارية فى الجزائر، ورفض دى جول حق المنظمة الدولية حيث تمثل دول كثيرة ضعيفة و«متخلفة» فى التدخل فى الحالات التى تصرفت فيها قوة كبرى كفرنسا باستهتار متعاظم بحقوق الآخرين وأرواحهم. وكتبت وقتئذ المجلة الأسبوعية «العمل الأفريقى» التى تعكس وجهات نظر بورقيبة أنه «لن يفهم الأوروبيون والأمريكيون أبدا كيف يفكر الجنس النامى ويشعر... ولن يعتبرونا رجالا أو دولا مثلهم... وكل تعاون مع الغرب سيكون ملطخًا باستعمار جديد.. وستوجه الدول غير النامية فى أفريقيا وأمريكا اللاتينية أو آسيا مجهوداتها نحو الأمم غير النامية الأخرى وتحصل على المعونة منها لكى تحرر نفسها أولا بأول (من الروابط الغربية)».

وأعلن بورقيبة فى مقابلة له مع صحفى أمريكى فى ٢٨ يوليو سنة ١٩٦١، «لم أعتقد يومًا أن الولايات المتحدة استعمارية. وإذا كان تضامن الولايات المتحدة مع فرنسا الاستعمارية قد غلب على المبادئ التى تقوم عليها الأمة الأمريكية، فأكون إذن قد أخطأت... ولن تؤثر النتائج علينا فقط بل على العالم كله. وإذا عجزت (هيئة الأمم التى رفضت فرنسا التعاون معها) عن حل الموضوع، فليس ثمة سبب إذن لبقائها. إن

ذلك يعنى أن قانون الغابة قد حل محل القانون الدولى والأخلاق». وانتهى التونسيون إلى أن سجلا من التعاون المخلص مع الغرب يبدو لا وزن له، إذا استاعت إحدى القوى الغربية وأرادت أن تعطى الدولة غير النامية درسا. وقد احتفظ الغرب بجبهة متحدة، حتى ضد الرأى الأفضل وضد ضمير بعض أعضائه، ضد الدولة غير النامية. وقد قرر المراقبون الغربيون فى تونس بأن الشعور السائد هناك هو أن الدولة الغربية قد تنكرت على ملأ من الجنس البشرى للمبادئ التى تدعى على أساس قوتها معارضة المبادئ الاستبدادية. وهكذا أبطأت العزة القومية لدول حلف الأطلنطى عملية التقارب الصعبة والتى كان يمكن بشكل آخر أن تكون ناجحة بين الغرب والدول النامية التى أخذت بتأثير الغرب.

يمثل تحول المجتمع الذى بدأ حوالى سنة ١٩٠٥ تحت تأثير الغرب فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية عملية شديدة التعقيد، لذلك كان من المفهوم أنها لم تقترب من نهاية ناجحة فى العقود الستة الأولى من القرن الحالى، وكان التحول من المجتمع السابق على المجتمع الحديث إلى المجتمع الحديث صعباً وطويلاً أيضا فى أوروبا، وكان ميلاد أوروبا الحديثة مصحوبا بكثير من النزاعات والفوضى؛ وحتى فى سنة ١٩٦٠ لم يكن عهد الحرية الدستورية قد قام ثابتًا فى عدد من الدول الأوروبية. ويمكن أن نرد أحداث القرن الحالى المدمرة - الحربين الكبريين ونشوء الجماعية وانتصارها - إلى أصولها فى أوروبا ذاتها، إلى التأثير غير الكافى للحضارة الحديثة على الشعوب الأوروبية وإلى تمسكهم المستمر بتقاليدهم السابقة. والأمر فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية لا يختلف كثيراً فإن أفكار الغرب الحديثة لم تختلط بسهولة مع التقاليد الأهلية لآسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية. وفى نفس الوقت الذى فاضت فيه الأفكار والأشكال الجديدة للحياة، استيقظ تقدير جديد للثقافات الوطنية القديمة والمنسية فى بعض الأحيان. وقد اكتشفها وبحثها المدرسون الغربيون، حتى بدأت الشعوب نفسها تراها فى ضوء جديد. إنهم كانوا يستمدون منها شعوراً بالفخر، وثقة جديدة بقوتهم وعزمهم، وكان استمرار التخلف النسبى لبلادهم يزيد التوتر بين الأمل والواقع. ونتيجة لشعورهم بالضعف من ناحية ولسخطهم من ناحية أخرى، تولد شعور خاص من

الاستعلاء على الحضارة الغربية الحديثة وجد له تعبيراً فى آسيا كما سبق أن وجده فى الدول الأوروبية الأقل نماء اجتماعياً وسياسياً. وكان الرومانتيكيون الألمان يحبون تمجيد الفضائل المفترضة للألمانية برفض الغرب «السطحى» الذى ينشد الراحة، وكان السلافيون الروس يرثون للغرب المادى ويودون تخليصه؛ وكان الهنود والآسيويون الآخرون وكثير من اللاتينيين ينظرون إلى أسفل من قممهم الروحية، إلى تجارية الأمم الرأسمالية التحررية، وفوق كل شيء إلى الولايات المتحدة. وبالمثل فى داخل الولايات المتحدة، قبل الحرب الأهلية وأثناءها، كان كثيرون فى الاتحاد يدعون أنهم يمثلون ثقافة حقيقية وأرستقراطية ضد التفكير بلغة الدولار والمذهب الصناعى لولايات الاتحاد الشمالية.

ومع ذلك كان القوميون الألمان والروس والآسيويون والأمريكيون اللاتينيون متلهفين لاكتساب ما وصل إليه الغرب الرأسمالى أو التحررى الذى كثيراً ما كان موقع احتقار، من طرق البحث والإدارة، والتكتيك. وكان موقفهم من الغرب يحمل أكثر من معنى، كما كان موقف ويليام الثانى وهتلر من إنجلترا، وخروشوف من الولايات المتحدة: محاولة التقليد والتفوق والاحتقار، والإعجاب المحترم والكراهية، متشابكة بدرجات مختلفة. وتحولت قومية البلاد غير النامية ضد الغرب وهى ثمرة الاتصال بهذا الغرب. واكتشفت أصلها وادعت أنه فى ماضيها الخاص واستعملت هذا الإحياء للتاريخ وإعادة تفسيره لتأكيد تميزها الفريد وامتداح نقاوتها من التأثيرات الغربية.

وقد أصبح الآن تأكيد الذات القومية ظاهرة عالمية. إنه الطابع البارز للعصر. وأصبح سائداً، وإن كان ذلك فى صورة أخف، حتى فى دول غربية حديثة مثل كندا التى بدت فى سنة ١٩٦٠ واقعة فى شبكة البحث عن «شخصيتها» المنفصلة وأظهرت دلائل الاستياء العميق من جارتها القوية والقليلة الفهم إلى حد ما وهى الولايات المتحدة. وظهر نفس الميل بطريقة أكثر تناقضاً وفوضى بين الدول الأفريقية الناشئة، حيث يبحث المثقفون عن (Negritude)، وهى نظرية تقدم بها أفريقيون تأثروا إلى حد كبير بأفريقيتهم وعبروا عن أنفسهم باللغة الفرنسية مثل إيميه سيزير، وليوبولو سيدار سنغور، وصارت القومية فى كل مكان ثقافية واقتصادية كما هى سياسية. إن اهتمامها

بانفصال المجموع أكثر من اهتمامها بالحرية الفردية. وأصبح الهدف الأعلى هو الاستقلال فى كل المجالات - مفهوم جديد لسيادة المجموع الكلية - وشهد منتصف القرن العشرين تحقيق الاستقلال القومى بدرجة لم تكن متوقعة منذ قرن، أولا فى وسط أوروبا الشرقى، ثم فى آسيا. وأخيراً فى أفريقيا.

ولم يحل الاستقلال القومى فى ذاته المشاكل الرئيسية لشعوب آسيا وأفريقيا إلا بنفس القدر الضئيل الذى فعله لشعوب إيطاليا، وبولندا أو أمريكا اللاتينية. وعملية بناء الدولة والتحضير الاجتماعى للمجتمعات غير المتحضرة بشكل كبير. هى بالضرورة عملية بطيئة، سواء فى صقلية أو البرتغال، فى بورما أو أثيوبيا. فى بوليفيا أو جواتيمالا. واستمرت أنواع التوتر بين الجماعات المختلفة الجنس أو الدين، أو بين المناطق ذات التقاليد التاريخية والأبنية الاجتماعية المختلفة. بعد تحقيق الاستقلال. وحتى المشاكل الفردية مثل الحدود الإمبراطورية للهند البريطانية لم تتغير بإقامة الدولتين صاحبتى السيادة، الهند وباكستان. وعلى العكس تفاقم النزاع الخاص بالممرات فى المقاطعة الشمالية الشرقية فى الهند البريطانية سابقًا عندما واجهت أفغانستان وباكستان. وأصبح مركز دول الهملايا - نيبال، بوتان، سيكيم، وكشمير - التى تفصل الهند عن الصين والتبت مصدر إزعاج أشد للهند مما كان لبريطانيا. وبعد سنة ١٩٤٥ ارتبطت مشاكل الدول الجديدة - كمشاكل الشعوب فى كل مكان - على الأقل بطريقة غير مباشرة، بالتوتر الذى يزيد بسرعة بين الغرب بزعامة الولايات المتحدة وبين الكتلة الشيوعية بقيادة الاتحاد السوفيتى.

لم يكن هذا التوتر ضاراً دائمًا بنمو الدول الجديدة. بل على العكس. استفادوا منه ببعض الطرق. على أنه يكون من الخطأ أن نغالى فى تقديره إيجابًا أو سلبًا، تأثير الدعاية الشيوعية على عملية تصفية الاستعمار. وقد أعلنت بريطانيا استقلال مصر والهند قبل أن تشعرنا «الحرب الباردة» بنفسها بل حتى قبل أن يجرى التفكير فيها؛ وبالمثل أصبحت غانا مستقلة بمساعدة بريطانيا، قبل جر أفريقيا إلى منافسة الحرب الباردة. كما لم يمنع الخوف من الشيوعية الولايات المتحدة من الوفاء بوعدها منح الفلبين سيادتها فى سنة ١٩٤٦ أو يستعجلها فى ذلك. وفى حالات قليلة غير موفقة

فقط، أنكرت فيها القوى الاستعمارية مبادئ الحضارة الحديثة، مثل الهند الصينية، والجزائر أو أنجولا، كانت الشيوعية سلبًا أو إيجابًا، عاملا نفسيًا فى إنكار الاستقلال أو استعجاله.

ومن مصلحة الغرب الانحراف بحركة التحرر الإنسانية فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية بوصفها تحقيقًا لأمانى الغرب لا لأمانى الشيوعية. أن تكون ورقة فى يد الشيوعية حين يصر الرسميون الفرنسيون على أنهم يحتفظون بخضوع الجزائر لمصلحة الغرب، أو عندما يعلن رئيس وزراء اتحاد جنوب أفريقيا فى تصريح فى ٢٩ مايو سنة ١٩٦١، «أن جمهورية جنوب أفريقيا المنشأة حديثًا هى إحدى عمد الحضارة المسيحية الغربية فى أفريقيا» وأنه يعتبر الجهود لإدخال مبادئ الحرية والمساواة «توضيحا ليد الشيوعية الغاصبة على أفريقيا».

وعلى الرغم من الشطحات الكثيرة التى تسامح فيها رجال الدولة والعسكريون الغربيون وأوقفت الضرر بالغرب فإن الحضارة الغربية فى الستينات من القرن العشرين، بعد أن حلت مشاكل الأوضاع الخاصة بالعمال فى مجتمعها المصنع، قد تقدمت تقدمًا طيبًا فى حل مشكلة أوضاع الدولة غير النامية فى مجتمع كاد يصبح، خلال التصادم المتزايد بين القومية والصناعية، أكثر توحدًا فى كل أجزائه. وفتحت يقظة الشعوب التى شملت الكرة الأرضية لحقوقها فى المساواة، والكرامة، والرخاء، فى وجه تحدى الإمبريالية الغربية، أول عصر للتاريخ الأرضى (Global)، وشرعت فى البدايات الأولى للاتصال العالمى. وقدمت القومية فى نفس الوقت درعًا ضد التوحد وضد الزعامة العالمية لأية قوة كبرى أو مجموعة من القوى. وتنظيم البشرية الذى يستقبلنا يبشر باتباع نموذج الحضارة الغربية الحديثة فى التعدد والتنوع.

الجزء الرابع

العصر الأول لتاريخ الكوكب الأرضى

اتصال عالمى

«فكرة واحدة تجيء أبدا فى المقدمة، فى السفينة المقدسة.. سفينة هذا العالم التى تجوب الزمان والمكان يبحر جميع شعوب الأرض معًا ليقطعوا نفس الرحلة وقد فرض عليهم أن يبلغوا نفس النهاية».

والت ويتمان، «صدى يقدم العمر»

«إن توزيعا أكثر عدلا للأموال والحقوق فى هذا العالم هو الهدف الأكبر الذى ينبغى على أولئك الذين يديرون شئون البشر أن يتصدوا له. أنا لا أريد إلا أن تكون المساواة السياسية هى المساواة فى الحرية».

توكفيل، ١٠ سبتمبر سنة ١٨٥٦

«أن تطلب الحرية لنفسك وتنكرها على غيرك، هذا هو تعريف الاستبداد».

لابولاى، ٤ ديسمبر سنة ١٨٧٤

- ١ -

منذ منتصف القرن العشرين، وعصر القومية الشاملة يواجه البشرية، والغرب فوق كل شيء، بالتحدى الجديد لنشوء الدول النامية، وهو تحد طغى على التحدى القديم للفاشية والشيوعية. والتحدى الجديد الذى يشمل العالم يميز العصر الأول لتاريخ كوكبنا الأرضى ككل (Global). وكان لينين الذى ولد فى بلد على حدود روسيا من أوائل من تنبأوا بهذا التطور. ويفسر بعد نظره هذا أن تقديره أفضل من تقدير الفاشية. وتمثل الأخيرة تضخيمًا واهتزازًا شديداً للقومية الأوروبية الأخيرة، لا المرحلة الأخيرة للرأسمالية، وكانت على العكس احتجاجًا قويًا لا يأبه بشىء ضد العصر الجديد للاتصال العالمى الذى نتج عن الرأسمالية فى الإطار المنتشر للحضارة الغربية الحديثة. وعلى الرغم من نظرته الأوسع فى هذه النقطة فقد ظل لينين فى شئون أخرى غارقًا فى بناء التاريخ بطريقة هيجلية ماركسية نموذجية لمنتصف القرن التاسع عشر وفى الجو الأخلاقى لعصر مراسم العنف فى أوائل القرن العشرين. الذى تشارك الشيوعية فيه الفاشية. وقد قوى هذان الموقفان التطرف والدوجماتية الروسية التقليدية. وفى الخمسة والعشرين عاما لحكم ستالين الاستبدادى القاسى أكدت القومية الضيقة الفكر الروسية أو المسكوفية نفسها. وزاد وضوح الشبه بالفاشية وتأكيد الذات للقومية الرجعية المحلية المحدودة.

وكانت الستالينية فى المجتمع العالمى النامى بعد سنة ١٩٤٥ غير مناسبة للوقت وقضت على روسيا بالعقم الدوجماتى والبدائية الأخلاقية. وقد أعادت الحيوية إلى الشيوعية محاولة خروشوف استعادة نظرة لينين العالمية. وغير اهتمامه الجديد بالتعاون مع الدول النامية، وأسفاره العالمية واستئناف العلاقات الثقافية بالعالم غير السوفيتى أسلوب الديبلوماسية السوفيتية وفى الوقت نفسه تنبه الغرب بزعامة الولايات المتحدة بريطانيا إلى الثورة الجديدة فى علاقات البشرية التى نتجت عن الأفكار الغربية والإمبريالية الغربية.

وكان توكفيل من أوائل من عرفوا وشخصوا هذه الثورة. وقد كتب فى مقدمة كتيبه «الديموقراطية فى أمريكا»: «إن التطور التدريجى لمبدأ المساواة هو لذلك، حقيقة سماوية فإن له الخصائص المميزة لمثل هذه الحقيقة فهو عالمى، ودائم، وخلو دائمًا من كل تدخل إنسانى، وكل الحوادث وكل الناس تشارك فى برنامجه... والعالم الجديد فى حاجة إلى علم سياسى جديد ومهما يكن من شىء فهذا هو أقل الأشياء استحواذًا على تفكيرها، فنحن، على الرغم من أننا وصلنا وسط نهر سريع، لا نزال نتشبث بعناد بالأنقاض التى خلفناها على الشاطىء الذى تركناه، بينما يحملنا التيار بعيدًا بسرعة». ويقصد توكفيل هذه الثورة على العالم الغربى أو المسيحى كما سماه. على أن تحديد الرؤية عند مثل هذا الرجل الممتاز ربما كان مفهوما فى سنة ١٨٣٠ . ولكن هذا التحديد استمر حتى بعد ذلك بنصف قرن عن نظر المؤرخ الألمانى المشهور «ليوبولدفون رانك» عندما بدأ فى سن متقدمة كتابه «تاريخ العالم» الذى لم يتمه، إلى العالم من وجهة نظر غربية صرفة، وكان تعمقه للقوى السياسية والأخلاقية للتاريخ أقل بكثير من توكفيل.

ونشر رانك وهو شاب - كان فى سن الثلاثين - «تاريخ الثورة الصربية». ويرجع الفضل فى هذه الدراسة الرائدة لبدايات القومية فى الشرق الأدنى إلى معرفة رانك بالقومى الصربى «فك ستيفانوفك كاراديجى» الذى كان يعيش فى فينا. وتحدث رانك عن «تحرير» الصرب، عن عملية ثورية كانت تبدأ فى ذلك الوقت تحت تأثير الغرب فى الانتشار إلى البلاد النامية. ولكن راسك لم يتمكن من تبين عالمية العملية التاريخية، التى أحسن وصف بدايتها على هذه الصورة، وبعد ذلك بنصف قرن فى سنة ١٨٧٩، نشر الرجل الشيخ، وهو فى أوج شهرته إذ ذاك، طبعة ثالثة من عمل شبابه. والشىء المميز هو أنه نقل الاهتمام من التحرير الثورى إلى شىء آخر يتناسب مع «محافظته» بأن سماه «الصرب وتركيا فى القرن التاسع عشر»، وقد ردد فى الملاحظات الختامية ثقة أوروبا.. بسمارك بنفسها: «إن حياة الجنس البشرى تعيش اليوم فى الشعوب المنحدرة من أصل لاتينى وألمانى وفى تلك الشعوب من السلافيى الأصل وحتى المجريى الأصل التى ارتبطت بها ومثلتها، وفى كل التغاير فى خلافاتنا الداخلية، وفى كل العداوة المتبادلة لاتجاهاتها، نحن مع ذلك نكون وحدة فى علاقتنا بالعالم الخارجى.

وقد ازدهرت فى عصور أخرى دول ونظم أخرى، تغذيها مبادئ مختلفة، وتنمى نظما مختلفة وإن كانت فى ذاتها مهمة؛ ومثل هذه الدول أو النظم لا تكاد توجد فى الوقت الحاضر».

ورأى رانك المسيحية تطغى على الإمبراطورية العثمانية وتخترقها «إن المسيحية لا تعنى فى مفهومنا الدين المسيحى وحده وحتى الثقافة (المسيحية) أو الحضارة لن تعبر إلا عن معنى ناقص للكلمة. إنه الذكاء الخلاق للغرب إنها الروح التى تحول الشعوب إلى جيوش نظامية، وتبنى الطرق، وتحفر القنوات، وتغطى المحيطات بالأساطيل وتدخلها فى ممتلكاتها، وتعمر القارات النائية بالمستعمرات؛ إنها روح قد نفذت إلى أعماق الطبيعة بالدراسة الدقيقة، وتحكمت فى كل حقوق المعرفة وأعادت إليها الشباب بالجهود الدائمة الجادة، دون أن تفقد رؤيتها للحقيقة الخالدة، إنها الروح التى تقيم القوانين والنظام بين الناس بالرغم من عواطفهم المتباينة. إننا نرى القوة الروحية تتحرك أمامنا فى تقدم عجيب». وإنه لما يميز العصر البسماركى أن القوة الروحية للمسيحية التى يقول بها رانك قد عبرت عن نفسها. فوق كل شىء بالقوة العسكرية، وبتحويل الشعوب إلى جيوش، وبتغطية المحيطات بالأساطيل، وبالانتصار الفنى (التكنيكى) ورأى رانك أن هذه «الروح» تحكم بانتصار أمريكا، وأفريقيا، وآسيا، وحتى الصين. وينتهى المدح العاطفى المشبوب للرجل المسيحى المتدين والأب الجليل للتاريخ الألمانى «إن الغرب، فى تقدم لا يهتز، وفى أشكال كثيرة، وبطريقة لا تقبل النقد، وقد تسلح بالعلم والسلاح بحيث لا يمكن مقاومته، يحصل على سيادة العالم». ولم ير المؤرخ الألمانى العظيم شيئًا من روح التحرير، والمساواة والديموقراطية التى رآها توكفيل قبل ذلك بنصف قرن تتقدم بشكل لا يقاوم. ولم تحمل «روح» الغرب أو المسيحية رسالة الأمل للشعوب المتأخرة أو الخاضعة.

وكان توكفيل أقل من رانك تفاؤلا بمستقبل شعوب أوروبا «اللاتينية والألمانية». وفى نبذة مشهورة فى نهاية المجلد الأخير لكتابه «الديمقراطية فى أمريكا» تنبأ فى سنة ١٨٣٠ بالموقف الدولى الذى ولد فى سنة ١٩٤٠ وكتب: «هناك فى الوقت الحاضر دولتان كبيرتان فى العالم بدأتا من نقط مختلفة، ولكن يبدو أنهما تتجهان نحو نفس

الغاية. وأنا أشير إلى الروس والأمريكان... وقد توقفت كل الدول الأخرى... أو هى تتقدم بصعوبة هائلة. وهاتان الدولتان وحدهما تستمران فى سهولة وسرعة فى طريق لا يمكن تصور حدوده... ويعتمد الأنجلو - أمريكى على المصلحة الشخصية لبلوغ غاياته، ويترك المجال الحر لقوة الشعب غير الموجهة ولإدراكه العام، ويركز الروسى كل سلطة المجتمع فى ذراع واحدة. إن نقط بدايتهما مختلفة، وقضاياهما ليست متماثلة، ومع ذلك يبدو أن كلا منهما قد عينته إرادة السماء لتحريك مصائر نصف الكرة الأرضية». وعندما التقى الجيشان الأمريكى والروسى فى سنة ١٩٤٥ على نهر الألب فى قلب ألمانيا ووسط أوروبا - لقاء غير متوقع ولا مرغوب فيه من أيهما ونتج عن عنف حرب ألمانيا ضد الحضارة الغربية الحديثة - بدا أن نبوءة توكفيل قد تحققت، كانت الدول الأوروبية فى تلك اللحظة قد سقطت أو أصيبت بجراح عميقة، وانبثقت الولايات المتحدة وروسيا - واحدة حرة، والأخرى استبدادية - بوصفهما القوى العظمى الوحيدة فى عالم ثنائى القطب، وقد أعد كل منهما لتحريك مصائر نصف الكرة الأرضية. وكان هذا الموقف متوقعًا بغموض فى نهاية الحرب العالمية الأولى، وهذا البيان المختصر للتطورات المقبلة أكد تشابه واستمرار الحربين العظميين اللتين أنهيتا أحد عصور التاريخ، عصر نظام الدولة الأوروبى، الذى مجده رانك وعرف توكفيل طبيعته الانتقالية. وفى سنة ١٩١٨ أيضًا، فى لحظة عابرة. وقد غصت البشرية ببربرية الحرب، وأنهكت المظالم أوروبا ماديًا ومعنويًا، استمعت يراودها الأمل إلى صوتين يتحدثان من واشنجطون وموسكو ويعدان بإنهاء مذابح الأمم وإنهاء وحشية النظام القائم. كان أحدهما صوت لينين، يتحدث عن السلام، وتقدير المصير القومى، والعدالة الاجتماعية. وكان الآخر صوت (وودرو ويلسون). ولم يكن دور ويلسون بوصفه إماما للعصر الجديد غير متوقع. فقبل ذلك بحوالى العشرين عاما، فى السنة الأولى من القرن العشرين كتب ويلسون مقالا عن الديموقراطيّة فى «الأطلنطى الشهرية» عن «أن عصرا جديدا قد أتى علينا كالرؤية المفاجئة لأشياء لم نتنبأ بها... فأمور العالم تقف فى حالة، والمبادئ التى حاربنا من أجلها خلال العقود الطويلة قد وضعت الآن فى خطر وسط نزاعات الدول، بحيث يواجه مستقبل البشرية الخطر الهائل لثورة رجعية، حتى إن عملنا

الخاص يجب أن يأخذ فرصته مع العمل الأكبر للعالم كله. ولا يمكننا أن نتجرأ على الوقوف على الحياد» كان ويلسون يعتقد أن قضية الحرية الفردية فى خطر، وأن أمريكا، بطلتها، لن تستطيع تأييدها طويلا إذا سمحت بأن يفقد العالم ثقته فى القضية؛ لأن الولايات المتحدة كانت حاميتها الرئيسية، وكانت دون غيرها من الدول قد تعلمت الكفاءة والثقة بالنفس. «لقد تنبهنا الآن فقط لعلاقتنا الحقيقية بباقى الجنس البشرى. لقد وقعنا فى جهل فريد ببقية العالم، ونحن مستغرقون فى تطورنا الخاص.. واكتسبنا ثقة زائفة بالنفس، واكتفاء زائفا بالذات، لأننا لم نلتفت إلا لنجاحنا وفشلنا الخاص».

كان ويلسون يعتقد أن القرن العشرين سيكره الأمريكيين على الخروج من عزلتهم «يجب أن يفتح الشرق وأن يحول - رغبنا أم لم نرغب - ويجب أن تفرض عليه مستويات الغرب؛ ويجب أن تسرع الأمم والشعوب التى ظلت واقفة خلال القرون، وأن تصبح جزءا من الدنيا العالمية للتجارة والأفكار التى صنعها بتؤدة تقدم قوة أوروبا من عصر إلى عصر. وواجبنا الخاص، كما هو واجب إنجلترا أيضا أن نجعل العملية مناسبة لمصالح الحرية، وأن نعطى للشعوب التى نحيت هكذا عن طريق التغير. عادة القانون... التى أخذناها من قديم... من العمليات المرهقة لتاريخ إنجلترا، وأن نؤمن لهم، عندما تتاح لنا الفرصة، الاتصال الحر والتطور الطبيعى الذى سيجعل منهم فى النهاية أعضاء متساوين فى عائلة الأمم... وبعد ستة عشر عامًا من خطابه الافتتاحى الثانى، أعلن ويلسون، «إن الأشياء العظيمة الباقية يجب أن تكون الدنيا مسرحا لعملها وأن تتم بالتعاون مع القوى العالمية للجنس البشرى فى العالم... نحن لم نعد محليين. إن الأحداث الحزينة من صخب الحياة التى مررنا بها فى الشهور الثلاثين الأخيرة جعلتنا مواطنين عالميين، ولا يمكن أن نتراجع». وقد تفوق ويلسون على نظرة القرن التاسع عشر المركزة على أوروبا، مثل لينين وقبله.

وفى سنة ١٩١٩ أعلن الانقسام المحورى المزدوج للعالم بين واشنجطن وموسكو عن نفسه، وهو الانقسام الذى أصبح واضحا أخيرا فى سنة ١٩٤٠ وقد بدأ ويلسون ولينين، كما كتب توكفيل من النقط والمبادئ المتضادة. وخرجت دعوة ويلسون من تقليد الحرية للغرب الحديث: تولت الولايات المتحدة به - لفترة قصيرة - الزعامة التى أعدها لها موقعها

الجغرافى وتاريخها. وجاءت دعوة لينين فى نفس اللحظة التى تحولت فيها روسيا بزعامته عن اتصالها المتزايد المثمر بالغرب أثناء فترة سان بطرسبورج من تاريخ روسيا. وحاول لينين أن يجمع آسيا وألمانيا للكفاح ضد الديموقراطية التى كسبت الحرب، لتخسر بقوميتها المركزة على نفسها ثمرة النصر الذى نالته بشق الأنفس.

وبعد سنة ١٩١٩ كان موقف الولايات المتحدة وروسيا السوفيتية مرة أخرى متشابها بالرغم من أن مبادئ متضادة كانت تدفعهما وبالرغم من أنهما كانتا تتجهان نحو غايتين متضادتين. وانسحبت كل منهما إلى العزلة؛ أمريكا باختيارها، وروسيا بسبب ضعفها وإنهاكها. وكانت القيادة الروسية تعتقد أنه بعد الاستعداد الدقيق. ستأتى لحظة مناسبة لتولى الزعامة إن عاجلا أو آجلا (قدمت الاعتداءات الألمانية الفرصة فى سنة ١٩٣٩ وسنة ١٩٤١)» وكان الشعب الأمريكى يرجو ألا يأتى يوم زعامة أمريكا على الإطلاق (وقد خيبت رجاءهم اعتداءات اليابان، وألمانيا، وروسيا) وعلى أى حال، أصبح الموقف الذى تنبأ به توكفيل مقبولا بوصفه حقيقة باقية أخيراً فى سنة ١٩٤٠ . كان الروس يعتقدون أن التاريخ قد ناداهم ليجعلوا العالم آمنا للشيوعية وأن انتصار الشيوعية الذى يشمل الكرة الأرضية قد تحقق، وكان بعض الأمريكيين يفكرون ويتحدثون عن قرن أمريكى ويعتقدون أن عليهم أن يجعلوا العالم آمنا للديموقراطية. وهذه التوقعات ثبت أنها أوهام. فبحلول سنة ١٩٦٠ كانت فترة الانقسام المحورى المزدوج للعالم تنتهى، وكانت البشرية تستأنف تعقيدها وتغايرها. وكان استمرار حياة البشرية فى وحدتها الوليدة ممكنًا فقط على الأساس الجمعى، وبالتسامح والامتناع المشتركين - وذلك يعنى تقليد الغرب الحديث.

كانت هذه الوحدة الوليدة أملا، وإن كان ناقصًا إلى حد كبير، فى تكوين عصبة الأمم. ففى نهاية سنة ١٩١٦ قدمت وزارة الخارجية البريطانية لرئيس الوزراء مذكرة تقترح بواقعية حصيفة إنشاء عصبة أمم. «لسنا واهمين فى أن هذه الأداة لن تصبح فعالة حقًا حتى تتعلم الدول إخضاع أطماعها وأحلامها الشخصية والفردية لصالح مجموعة الأمم.... وإذا أمكن إقناع أمريكا بالاشتراك فى مثل عصبة الأمم هذه، فسيتوفر لقراراتها التأثير والوزن لتحقق فعلاً الأغراض التى أنشئت من أجلها» وعبرت أمريكا عن رغبتها فى الاشتراك بعد ذلك بعام فى «النقط الأربع عشرة» لوودرو ويلسون، التى طالبت بتكوين «جمعية عامة للأمم بمعاهدات خاصة بغرض تقديم ضمانات مشتركة للاستقلال السياسى ووحدة أراضى الدول الكبرى والصغيرة على السواء».

وقد زاد تحديد هذه الجمعية فى حديث «الأهداف الأربعة» لويلسون فى ٤ يوليو سنة ١٩١٨، الذى قدم فيه، على أنه أحد الأهداف الأربعة «إنشاء منظمة للسلام تؤكد أن القوة المشتركة للدول الحرة ستوقف كل اعتداء على الحق وتستخدم لجعل السلام والعدالة أكثر أمنًا بتقديم رأى قضائى محدد يجب أن يخضع له الجميع وكل تسوية دولية لا يمكن الاتفاق عليها وديًا من الشعوب المعنية مباشرة ستكون محل جزاء. ويمكن وضع هذه الأغراض العظيمة فى جملة: إن ما نسعى إليه هو حكم القانون، القائم على رضاء المحكومين يؤيده الرأى المنظم للبشرية».

وقد أكدت، فيما يتعلق بعصبة الأمم، ثلاثة مبادئ أخرى، كان الأول هو وصية القرن التاسع عشر، وفتح الآخران مسالك فكرية جديدة. وقد غطى المبدأ الأول فى حديث ويلسون عن «الأهداف الأربعة» فى ١١ فبراير سنة ١٩٨١، الذى أعلن فيه أن، «كل تسوية إقليمية يجب أن تتم لمصلحة الشعوب المعنية وفائدتها، وكل الأمانى القومية حسنة التحديد ستنال أكبر إرضاء ممكن دون إدخال أسباب خلاف وعداء جديد أو العمل على استمرار القديمة منها ما قد يهدد مع الوقت سلام أوروبا، وبالتالى سلام العالم». وعلى الرغم من بقاء أوروبا فى المركز، فإن رأى ويلسون، الذى تتضمنه،

جزئيًا على الأقل، معاهدات السلام، قام ليشمل القارات والشعوب والطبقات العارفة، وتطالب النقطة الخامسة من النقاط الأربع عشرة أنه في كل المسائل الاستعمارية «يجب أن تنال مصالح المستعمرين وزنًا مساويًا» لمصالح الحكومات المستعمرة. وتبعًا لذلك، احتوت معاهدة فرساي للسلام على منطلق جديد في القانون الدولي يبعث على الأمل، بأن أقامت، للأقاليم التي تخلت عنها ألمانيا وتركيا على الأقل، مجلس وصاية من القوى الإدارية على الشعوب «النامية» تحت إشراف عصبة الأمم. ويحتمل المديرون رسميا التزامات قبل كل من الشعوب الموضوعة تحت الانتداب وقبل عصبة الأمم، وكان الواقع، بالطبع، متخلفًا عن المقاصد إلى حد بعيد. فقد وضع المتندبون على الأقاليم التركية سابقًا، ضد إرادة الشعوب، وأولئك الذين انتدبوا على المستعمرات الألمانية السابقة في أفريقيا، لم يضعوا حتى صورة لحق الشعب في تقرير مصيره في المستقبل. وكانت هناك حركة قومية عربية ناشئة، نشطتها أثناء الحرب دعاية الحلفاء ووعودهم، ولم يكن أحد في ذلك الوقت يكاد يرى إمكانية حركة قومية أفريقية. ولكن بداية على الأقل كانت قد وضعت بالاعتراف بمبدأ «أن القوة المستعمرة لا تتصرف بوصفها مالكة لمستعمراتها وإنما بوصفها وصية على الأهالي ولمصلحة جمعية الأمم»، «وأن الشروط التي تقوم عليها الإدارة الاستعمارية مسألة ذات صفة دولية ويمكن قانونا أن تكون محل اهتمام دولي».

وقدمت معاهدات سلام باريس في سنة ١٩١٩ تحديداً آخر بعيد المدى بتقريرها حماية حقوق العمل المعنوية والمادة في كل الدول بالتنظيم والإشراف الدوليين. وفي الجهاز الدولي، منظمة العمل الدولية (مكتب العمل الدولي) يمثل أرباب العمل والعمال على قدم المساواة. والمكتب بتعبير مديره الأول الاشتراكي الفرنسي ألبرت توماس، «ساعد على نشر حب فكرة السلام بين كل من العمال وحتى أرباب العمل، على أساس من الفهم الاقتصادي والتضامن الاجتماعي للدول»، هذه الخطوات - عصبة الأمم، ومبدأ الوصاية في إدارة المستعمرات، والتنظيم الدولي لتحقيق الظروف الإنسانية والعدالة الاجتماعية «لكل الشعوب في كل مكان» حددت علامة على الطريق إلى نظام عالمي ولكنها لم تحقق إلا القليل في الفترة التالية مباشرة للحرب. وهدم التكاتف

المتزايد للقومية والإمبريالية فى كل مكان البدايات الباعثة على الأمل، وأعدت للكارثة التى أدت إلى الحرب العالمية الثانية ولم تبد الحضارة الغربية الحديثة بالضعف من فسادها الداخلى وبالتعرض للخطر من العداء الخارجى كما بدت فى سنة ١٩٣٠ . لقد كان أسهل دائمًا على الناس أن يضحوا بحياتهم وحتى بثرواتهم من أن يتخلوا عن طرقهم المعتادة فى التفكير والشعور، وعن مسلماتهم وتقاليدهم. وقد غرس التفكير والشعور بطريقة «قومية» فى عقول الناس فى نهاية القرن التاسع عشر. وقد تطلب الأمر حكمة وشجاعة كبيرتين لنرى بعد الحرب العالمية الأولى أن القومية لم تكن فيها الكفاية. وسادت فكرة القرن التاسع عشر المركزة على أوروبا عصبة الأمم التى أصبحت أداة لسياسات فرنسا وإنجلترا التى كانت كثيرة التنازع. وبعد سنة ١٩١٩، بدلاً من أن تتعلم الحضارة الغربية الحديثة دروس الحرب وتحيى.. بشجاعة وسائل جديدة للمساواة بين الناس.. وللتنظيم الدولى، أنكرت ببلاهة واسترخاء مبادئها ذاتها.

- ٣ -

هذه المبادئ والفلسفة التى تكمن تحتها لم تكن جديدة. فقد عرفها إيمانويل كانت فى نهاية القرن الثامن عشر. وعاش فيلسوف الاستنارة الأكبر حياته كلها فى كونجزبرج، وهى مدينة صغيرة على الحافة الشرقية لبروسيا، خارج ألمانيا، تحوطها من كل جانب الأقاليم البولندية. وأصبحت أخيراً شديدة القرب من الحدود الروسية الجديدة. ومن هذا المكان القصى الذى لم يفارقه على الإطلاق خلال حياته الطويلة، رحب كانت بحماسة بالثورة الفرنسية واستمر يحبها زماناً طويلا بعد أن تخلى عنها كثير من أصدقائها الأول لإسرافها ومغالاتها. ويمكن تلخيص رأيه فى المطالبة بالحرية الفردية والحكم الذاتى، وكان يعتبر الجنس البشرى وحدة عالمية من الأفراد الأحرار والشعوب المتساوية. وكان يرى أن الحضارة الحديثة هى تقدم من الخضوع إلى الحكم الذاتى، من الجمود الدوجماتى إلى العقل النقدى. لقد عرف أنها حضارة شابة. وكتب فى «تأملاته»، «أننا لم نبدأ الاتصال بالقارات الأخرى عبر البحار إلا فى السنوات المائة الأخيرة فقط، أمريكا، واليابان، وجزر البحر الجنوبى. وفى السنوات المائة الأخيرة فقط كان لدينا نظام الحكم الدستورى فى دولة عظمى واحدة هى إنجلترا. وفيما يتعلق بالقانون الدولى، مازلنا برابرة حتى الآن. وليس لدينا بعد نظام عام للتعليم. إنه عصر جديد». بهذه الكلمات عبر كانت عن الاعتقاد بأن قرنه حدد بداية لمرحلة جديدة للبشرية: فتحت الأرض كلها لأول مرة، ووضعت لأول مرة أسس حكومة تقدمية دستورية وكانت إنجلترا تقود العالم، الحضارة الغربية أولا، والقارات الأخرى بعد ذلك، فى الطريق إلى الحرية، ومع ذلك، ففيما يتعلق بالقانون الدولى لم تتخذ بعد خطوة أولى محدودة ولم يطور نظام لتعليم البشرية. وكانت تعاليم كانت أن المساعدة الحقيقية الوحيدة التى يمكن أن تقوم بها أمة للحياة الإنسانية، هى مساعدة الكل نحو نظام عام للحرية والقانون. وقد أوجد كلمات مريرة ليؤثم كل أشكال الاستعمار والاستغلال.

لم يكن بحث كانت «عن السلام الدائم» (١٧٩٨) حلماً طويلا قائماً على تقدير، متفائل للطبيعة البشرية. إنه لم يتنبأ بحكومة عالمية، ولا باتحاد عالمى بين الدول.

كان كانت يخشى أن يكون مثل هذا «النظام العالمى» نذيرا بقدوم استبداد عالمى. وتبين بوضوح التغاير المفيد للجنس الإنسانى والنظم الإنسانية. وكان متنبهًا للمشاعر غير الاجتماعية للإنسان، والانسياق إلى الحياة بلا قانون، تلك العواطف التى تحكمت فيها المجتمعات القومية بالحكومات والدساتير، خصوصًا فى الدول التى تمارس القوة فيها وفقًا لقوانين جيدة التحديد صنعت برضاء المواطنين. ولكن التحكم فى العواطف غير الاجتماعية للإنسان عرضة دائمًا لخطر الانهيار بسبب «الحرية البربرية» التى تسلكها الدول فى العلاقات الدولية.

ويكثر اليوم الحديث عن فظائع الحرب الذرية (بقصد منع الحرب). وقد تنبأ كانت قبل ظهور الأسلحة المدمرة الحديثة بزمان طويل. بأن الحاجة إلى الحياة المتحضرة سترغم الناس على إقامة نظام دولى يسود فيه القانون. وسيطر نظام «الحرية البربرية» الحالى «بتسخير كل الطاقات والموارد القومية للحرب، وبالخراب الذى تخلفه الحرب، وأكثر من ذلك بالاضطرار إلى الوقوف دائمًا فى حالة تأهب للحرب»، سيضطر الدول إلى إقامة نظام أمن يشمل العالم كله. وعندئذ قد تصبح المشاعر الخيرة البناءة للطبيعة البشرية قادرة على تحقيق أقصى نموها. واليوم أصبح شر الإنسان، الذى يحصره فى كل الدول المتحضرة إكراه القانون، ظاهراً بشكل لا مجال للخطأ فيه فى علاقات الدول فيما بينها والنظام الدولى فقط هو الذى سيستطيع حصر ميول الإنسان إلى الخروج على القانون، والسماح بالنمو المأمون لما فى الإنسان من قدرات معنوية.

ولخص كانت حذره الواقعى الذى تناول به مشكلة السلام الدائم فى الكلمات الأخيرة من بحثه «إذا كان واجبًا، وكان فى نفس الوقت ثمة أساس معقول للأمل، فى أن نجعل من دولة القانون العام حقيقة واقعة، حتى إذا كان ذلك فى تقريب تدريجى إلى أقصى حد، فلن يكون السلام الدائم الذى سيحل محل الاستعدادات للسلام، التى سميت هكذا خطأ لأنها فى الحقيقة فترات هدنة فقط، لن يكون هذا السلام فكرة جوفاء، وإنما مهمة تقترب، إذا حلت خطوة بعد خطوة، وبثبات من هدفها، مادام يمكن الأمل فى أن تصبح الفترات التى يتحقق فيها تقدم متساو أقصر فأقصر». وكان كانت يرى، مثل بنيامين كونستانت، أن الروح التجارية أحد العوامل الرئيسية فى معاونة

السلام فى العصر الحديث، «إن الروح التجارية هى التى لا يمكن أن تتعايش مع الحرب. وستتملك كل الدول إن عاجلا أو آجلا وستجد الدول نفسها، بقوة المال وهى أعظم ما يمكن الاعتماد عليه بين القوى الخاضعة لقوة الدولة، مضطرة (بالرغم من أنه يصعب اعتباره اضطراراً أخلاقياً) إلى تحقيق السلام النبيل. وإلى محاولة تلافى الحرب بالمصالحة فى أى وقت تهدد الحرب بالنشوب فى أى مكان فى العالم».

ويعبر حسن إدراك كانت عن نفسه فى تحذيرات هى اليوم أكثر صحة مما كانت فى وقته: «لن تسمح دولة فى حالة حرب مع دولة أخرى بمثل تصرفات الحرب التى تجعل حتما الثقة المتبادلة مستحيلة فى السلم فى المستقبل، مثل استعمال السفاحين والقتلة بالسم.. أو العمل على الخيانة فى الدولة التى تحاربها، إلخ. فهذه خطط غير شريفة. ويجب أن يبقى نوع من الثقة فى إطار تفكير العدو حتى فى وسط الحرب، لأنه بغير ذلك لا يمكن تقرير أى سلام، ويتحول النزاع إلى حرب إبادة، لأن الحرب بعد كل شىء، إن هى إلا أداة مؤسفة لتأكيد الحق بالقوة فى الحالة البدائية للطبيعة (حيث لا توجد محكمة تحكم وفقًا للقانون).. وحرب الإبادة لن تسمح بالسلام الدائم إلا على قبر الجنس البشرى بأجمعه. ولذلك فمثل هذه الحرب، وبالمثل استعمال الوسائل التى قد تستخدم فيها، ممنوعة تمامًا.. وكون مثل هذه الوسائل فى الحرب تؤدى حتمًا إلى مثل هذه النتيجة واضح من حقيقة أن هذه الفنون الجهنمية، لأنها حقيرة فى ذاتها، لا تستمر طويلا داخل حدود الحرب وإنما تستمر فى وقت السلم وبهذا تبدد غرض السلم تماماً».

وكتب كانت «أغلب الظن أن كل دولة ستستعمل - فخورة باستقلالها - الوسائل البربرية للحرب، التى لا يمكن أن يتحقق بها، ما كان يسعى إليه وهو حق كل دولة». وكان يطالب بأن يدعى كل شعب فى نهاية الحرب إلى يوم تكفير يبتهلون إلى السماء فى طلب العفو لرفضهم تطبيق دستور قانونى فى علاقتهم بالدول الأخرى. «إن احتفالات النصر فى الحرب والأناشيد التى تنشد (على نسق العهد القديم) لإله الجيوش، تتعارض بنفس الحدة مع الفكرة الأخلاقية لإله البشر، لأن الشعب، إلى جانب عدم اهتمامه بالطريقة التى يسعى بها إلى حقوقه المشتركة (الأمر الذى يدعو إلى الأسى بما فيه الكفاية) يبدى سروره لأنه حطم كثيراً من الشعوب أو سلبهم سعادتهم».

وكان كانت يأمل أن تقبل كل الدول ما أسماه «الدستور الجمهورى»، يعنى بذلك مثل إنجلترا، دستوراً قائماً على الفصل بين السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية واستقلال القضاء. وكان يعتقد أن الحكومة النيابية فقط هى القادرة على مراعاة المبادئ الثلاثة الأساسية - «أولا، مبدأ حرية جميع أعضاء المجتمع بوصفهم رجالا، ثانيًا، مبدأ خضوع الجميع لتشريع عام واحد بوصفهم رعايا، وثالثًا، المساواة بين الجميع بوصفهم مواطنين... والجمهورية تعنى المبدأ الدستورى الذى تفصل وفقًا له السلطة التنفيذية عن السلطة التشريعية.. لأن كل أشكال الحكومة غير النيابية هى أساسًا بغير شكل، لأن المشرع لا يمكن أن يكون فى الوقت نفسه المنفذ لإرادة المشرع».

وتنبأ كانت، إلى جانب إعلانه مبادئ ديموقراطية القرن التاسع عشر، بحاجات القرن العشرين. فكتب «المجتمع الأضيق أو الأوسع لجميع دول الأرض، تقدم إلى حد أن انتهاك القانون والحق فى مكان واحد يجرى الإحساس به فى كل الأمكنة الأخرى. ومن ثم ففكرة قانون عام أو عالمى ليست طريقة خيالية أو طوبية فى النظر إلى القانون. ولكنها تكملة ضرورية للتقنين غير المكتوب للقانون الدستورى والدولى لجعله قانونًا عامًا للبشر جميعًا». وكان كانت يكتب بوصفه مراقبًا حسن الإدراك للسلوك الدولى، وبوصفه أول من فهم الوحدة العالمية للتاريخ التى تقوم على المساواة بين الناس وعلى الاتصال بين جميع الأمم. وقد عرف الحرية فى كتابه ص١٣٩ die metahyk dea ctten (١٧٩٨) بأنها «التحرر من الإكراه الإجبارى لآخر»، وأعلن أنها «الحق الثابت لكل كائن حى بحكم إنسانيته، إلى الحد الذى يمكن أن تتعايش مع حرية الآخرين وفقًا لقانون عام». ولكن هذه الحرية لا يمكن تحقيقها بأمان. إلا فى «مجتمع مدنى عالمى قائم على القانون والعدالة». وإنشاء مثل هذا المجتمع كتعاليمه فى كتابه «فكرة عن التاريخ العام بهدف عالمى» (١٧٨٤)، هو أهم عمل للبشرية. وفى كتابه بعد ذلك عن «المثل القائل إن شيئًا قد يكون صحيحًا نظريًا ولكنه ليس مناسبًا للحياة العملية» (١٧٩٣) لخص كانت أسبابه «العملية» لقبول البشر السلم الدائم، على أساس الضرورة أكثر منه على أساس الأخلاق: «حقيقة أن شيئًا لم ينجح بعد ليس دليلا على أنه لن ينجح أبداً؛ ومثل هذا الجدل لا يبرر حتى التخلى عن أية محاولات عملية أو فنية، كمحاولات عمل رحلات ترفيهية فى البالونات،

على سبيل المثال. كما لا يبرر مثل هذا الظرف التخلى عن هدف أخلاقى، يصبح بوصفه هذا واجبًا إذا لم يتضح أن تحقيقه مستحيل. وفضلا عن كل هذا، يمكن إعطاء أدلة كثيرة على أن الجنس البشرى فى مجموعه قد تقدم كثيراً فى عصرنا نحو ما هو أفضل أخلاقيًا عما كان فى أى وقت مضى، وهو هكذا إلى حد كبير حتى إذا قورن وضعه الحالى بما كان عليه فى كل العصور السابقة، بغض النظر عن النكسات المؤقتة، لأنها، باعتبارها انتقالية، لا يمكن أن تثبت شيئًا ضد الموقف العام. ولذلك فإن الصيحة عن استمرار تزايد انحطاط الطبيعة البشرية نشأت من نفس حقيقة أنها تقف اليوم على مستوى أعلى من الأخلاق.. ويصبح حكمها على ما عليه الناس بالمقارنة بما يجب أن يكونوا عليه - كما هو الحال فى اختبارنا النفسى الخاص - أكثر شدة كلما ارتفعت المستويات الأخلاقية التى تصل إليها البشرية» فى التاريخ.

«والضعف العام وما ينشأ عنه من شرور يضطر الناس أخيراً إلى إخضاع أنفسهم لإلزام القانون العام.. والدخول بهذا فى دستور مدنى وسياسى: وبطريقة مشابهة تؤدى الشرور الناشئة عن الحروب الدائمة التى تسعى الأمم بواسطتها إلى سلب الدول الأخرى أو إخضاعها إلى الدخول فى دستور عام أو عالمى. وإذا ثبت أن هذا الوضع من السلام العام (تكوين دولة عالمية) سيكون أكثر خطرا على الحرية من الحرب، وذلك بإقامته أبشع أنواع الاستبداد، فإن الشرور التى ستتولد عنها ستوجب إقامة وضع بين الدول لا يتخذ شكل جمهورية عالمية. وإنما جمعية ينظمها القانون وفقًا لحقوق الدول مجتمعة معًا».

ومنذ أن كتب كانت هذه السطور، أصبحت الحاجة عاجلة لإقامة جمعية من الأمم ينظمها القانون وتجتمع معًا. وقد وجدت تعبيراً عنها فى عصبة الأمم بعد الحرب العالمية الأولى، وفى هيئة الأمم المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية. وكلا المنظمتين تمثلان تطبيق مبادئ الحضارة الغربية الحديثة على مجال العلاقات الدولية. وهما أيضا ثمرة الحركة السلمية التى كانت آخذة فى النمو إبان القرن التاسع عشر فى الغرب. وبدأ شكلها المنظم فى الولايات المتحدة فى سنة ١٨١٥، ورأت لندن فى السنة التالية تكوين الجمعية البريطانية لتحقيق السلام الدائم والعالمى. وفى سنة ١٨٤٣ عقد أول مؤتمر

دولى للسلام فى لندن؛ وأنشأ إليهو بوريت الحداد المثقف من كنكتيكت، وريتشارد جويدين. وجون بريث جمعية الأخوة العالمية فى لندن؛ وأنشئت «جمعية اتحاد الشعوب» المقابلة فى باريس واجتمع مؤتمر دولى للسلام فى سنة ١٨٤٨ فى بروكسل، ورحب به الشاعر الأمريكى جون جرينليف هوتير بقصيدة فيها آمال طوبية مميزة.

«سينتهى الشر وينتهى العنف، ويتنفس العالم المتعب بحرية فى يوم مقدس طويل».

وفى أغسطس سنة ١٨٤٩، بعد حوالى العام، انعقد فى باريس مؤتمر للسلام برئاسة فيكتور هوجو وإلى جانبه جويدين. ورحب بالمؤتمر توكفيل الذى كان وزيراً للخارجية الفرنسية حينذاك وأشار فيكتور هوجو إلى مثل المقاطعات الفرنسية التى وضعت صندوق الانتخاب فى محل السيف بعد الحرب لبضعة قرون؛ وتنبأ بأن دول أوروبا ستنصهر فى وحدة أعلى بينما تحتفظ كل منها بشخصيتها المتميزة. وأعلن «سيأتى اليوم الذى نرى فيه هذين الخليطين الهائلين، الولايات المتحدة الأمريكية والولايات المتحدة الأوروبية، يواجه كل منهما الآخر، ويمدان أيديهما عبر البحار فى تعاون وثيق». وكان هوجو يعتقد أن هذا سيحدث بسرعة، لأن السكك الحديدية والابتكارات الفنية قد زادت من سرعة كل التطورات. ولكن صندوق الانتخاب فقد أهميته واستعادها السيف فى أوروبا بمجىء نابليون الثالث وبسمارك. وفى سنة ١٨٥٠ وسنة ١٨٥١ وسنة ١٨٥٢ التقت مؤتمرات أخرى للسلام فى كنيسة سانت بول فى فرانكفورت آم مين، وفى لندن وفى أدنبرة ثم تعرضت الحركة لضعف ملحوظ.

واستؤنفت حركة السلام بعد ذلك بعقد، موجهة حينذاك نحو محاولة إنسانية لوضع حد لوحشية الحرب. وفى سنة ١٨٦٣ بناء على اقتراح هنرى دونانت أنشئت جمعية الصليب الأحمر الدولية فى جنيف وفى السنة التالية وقعت ست وعشرون حكومة اتفاقاً هناك.. وكان منذ ذلك الوقت محلا للتعديل والتوسيع، وقبلته كل الدول تقريباً، ونما إلى أن صار قانوناً عالمياً يحدد السلوك فى المنازعات. وبعد ذلك بثلاث سنوات انعقد فى جنيف مؤتمر للسلام والحرية. وكان يرأس لجنة التنظيم جولس بارنى الأستاذ بأكاديمية جنيف ومترجم كانت. وساد المؤتمر التأثير الخطابى لغاريبا لدى – الذى طالب

بتقرير المصير القومى وإخاء الشعوب الديمقراطية، المتحررة من ضغط القساوسة والملوك قاعدة للسلام. وتكونت بعد المؤتمر الجمعية الدولية للسلام والحرية التى نشرت «الدول الأوروبية المتحدة» بوصفها صحيفة رسمية لها باللغتين الفرنسية والألمانية. وعقدت الجمعية عدة مؤتمرات أغلبها فى جنيف، وكلها فى سويسرا. وقد أعطت الحرب الفرنسية - الألمانية فى سنة ١٨٧٠ قوة دافعة جديدة للحركة. وتكونت جمعيات سلام قومية كثيرة، وتزايد الاهتمام بالتحكيم الدولى وبتطوير القانون الدولى، ومن سنة ١٨٨٩ فصاعداً، انعقدت مؤتمرات للسلام بانتظام، أولها فى باريس بمناسبة العيد المئوى للثورة الفرنسية، وتبعه فى الشهر نفسه المؤتمر البرلمانى الدولى الأول الذى نتج عنه تكوين الاتحاد البرلمانى الدولى فى سنة ١٨٩٢، لبحث أحسن الوسائل العملية لتحقيق السلام العالمى بعمل متفق عليه يجرى فى وقت واحد داخل برلمانات الدول جميعًا. وفى سنة ١٨٩٢ أنشىء فى برن مكتب السلام الدولى لتنسيق ألوان النشاط لمنظمات السلام جميعًا.

وفى نفس الوقت زادت بسرعة الاتصالات والمؤتمرات الدولية التى لم تكد تكون معروفة قبل منتصف القرن التاسع عشر، فى العدد وفى الغرض، وبينما كانت مقصورة قبل ذلك على أوروبا، أصبحت تعم العالم. ووفقًا لاتحاد الجمعيات الدولية اجتمع عشرون مؤتمرًا دوليًا من كل الأنواع فى سنة ١٨٦٧، وفى سنة ١٩١٠، و٤٥٥ فى سنة ١٩٣٥؛ و١٤٣٢ فى سنة ١٩٥٨ . وبينما كانت المسافات تضيق بسرعة فى المائة عام الأخيرة، كانت آفاق أنواع النشاط جميعًا تتسع بشكل هائل فى الوقت نفسه. وفى سنة ١٩٥٨ اجتمع المؤتمر الدولى، من الولايات المتحدة وكندا، ٢٦ دولة أوروبية، و٢٠ أفريقية و١٧ من أمريكا اللاتينية، ١٥ آسيوية، ٤ أسترالية. ومنذ تلك السنة وعدد الاجتماعات فى أفريقيا وآسيا مستمر فى الزيادة وفى هذه المؤتمرات الدولية يلتقى لأول مرة ممثلون لكل الشعوب ويتصل بعضهم ببعض، حتى إن البشرية كلها أصبحت ممثلة، وهو حادث يغير معنى العلاقات الدولية.. إنه يحدد مولد الإنسانية العالمية، إنه يحقق مفهومًا إنسانيًا شاملا تمامًا، ويحدث هذا فى نفس وقت انتصار مبدأ القومية - عصر القومية العالمية - والأمم المتحدة هى التعبير الخارجى للعصر الجديد وشعاره.

وقد بلور ميثاق الأمم المتحدة الأفكار الغربية الحديثة المأخوذة عن بنتام وكانت وميل وويلسون، لا عن ماركس ولينين. والمفاهيم التى ترقد تحتها للحرب والسلام، ولحكم القانون دون النظر إلى الطبقة أو الطائفة، وللعملية الواجبة، وللتعبير السلمى، وللمناقشة العلنية والحق فى المعارضة، وللتمثيل البرلمانى والإجراءات البرلمانية، لا تتفق مع نظرية المجتمعات السابقة على المجتمعات الحديثة أو المجتمعات الجماعية، والولايات المتحدة تهيئ، لممثلى هذه المجتمعات، أرض تدريب فريدة على الوسائل الديموقراطية للمناقشة، وهى وسائل تطورت فى التقليد الطويل للبرلمان البريطانى، وعلى الضغط الذى تفرضه هذه الطرق، وعلى ضرورة الاستماع إلى المعارضة وعلى الجدال بشروط معقولة، والانتخابات، والمناقشات والتصويت علنية وخاضعة لمراقبة الرأى العام.

والذى اقترح اسم المنظمة العالمية الجديدة هو اسم الولايات المتحدة. والأرجح أن أول استعمال بهذا المعنى كان فى مقال بقلم أمريكى هو «هاميلتون هولت»، الذى كتب فى سنة ١٩١٠: «الولايات المتحدة تقدم نموذجًا للأمم المتحدة. وإعلان الاستقلال يبشر بالاتحاد الدولى» وبدأت فكرة الاتحاد تكسب قبولا أوسع تحت تأثير التهديد الفاشستى للبشرية المتحضرة وكان المثل المميز له هو القرار المشترك الذى اتخذه مجلسا النواب والشيوخ لولاية كارولينا الشمالية فى مارس سنة ١٩٤١ . وجرى القرار: «حجر الزاوية فى الشمولية (الفاشية) هو الحالة العنصرية التى تعين مصالحها المحدودة مجال تحيزها؛ وأساس الديمقراطية هو الإنسان الذى لا تمس كرامته والذى يوضع رخاؤه محل الاهتمام الأساسى... إن الإنسان الآن إما أن يثبت حقوقه (الأساسية) وإما أن يفقدها لأجيال قادمة... وتمامًا كما حقق الإقطاع غرضه فى التاريخ الإنسانى ثم هزمته القومية، وصلت القومية نهايتها فى العصر وسلمت زعامتها فى البناء السياسى للدولية... ولا يوجد بديل عن منظمة من كل الأمم إلا الحرب الدائمة».

وفى نهاية سنة ١٩٤١، بعد دخول الولايات المتحدة الحرب وفى وقت كان التفوق العسكرى لألمانيا واليابان واضحًا، كتبت فى كتاب نشر فى سنة ١٩٤٢: «إن احتياجات البقاء تكره الناس على وسائل جديدة. والأمم المتحدة التى يتزايد إحساسها بالاتحاد هى فقط التى تستطيع أن تكسب الحرب... ولا يمكن أن يكون هناك نزع سلاح أو سلام دون حكم القانون. لا يمكن أن تنزع دولة سلاحها فى عالم بلا قانون. ولكن القانون لا يكون قانونا إلا إذا كان ملزمًا؛ والسلم يبقى فقط عندما تسنده القوة اللازمة... والقوة التى تستعمل لغرض القانون بالإكراه لازمة لحماية المجتمع المتحضر ضد غارات البربرية. وحتى فى عالم السلام لن يوجد دواء شاف لكل الأمراض الاجتماعية والاقتصادية. ولا توجد طرق مختصرة إلى الكمال، وليس هناك إلا التقدم الشاق والتدريجى ولكنه الصعب الذى لا يرحم نحو زيادة الرخاء وزيادة اشتراك الجميع فيه. وهذه المهمة موجودة دائمًا وليست فى هذ الأزمة فقط (١٩٤١-١٩٤٢)، والأمل المنشود فى هذه الأزمة ليس مكاسب اقتصادية ولكن نظامًا قانونيًا تستطيع أن تنمو فيه حرية الإنسان وكرامته. ومع ذلك فالنظام العالمى سيسهل حل المشاكل الاقتصادية والاجتماعية فى العالم الصناعى والزراعى المتحد الحديث. وأى اتجاه نحو الانفصال والانعزال والاقتصاد سواء كان مبنيًا على حقوق تاريخية أو قوانين الطبيعة البيولوجية، يهدم الآمال فى هزيمة التحدى الناشىء وفى نظام للسلام فى نفس اللحظة التى بدأ فيها الاعتماد المتبادل بين الأمم يؤتى ثماره للمستقبل. فى نظام ديمقراطى جديد للإنسان وهو يدرك حدوده ويدرك أن الشر حقيقة؛ وفى قومية جديدة، خلصت من شرورها وحررت من عناصر السياسة، قومية تقوم على المشاركة الحرة، وقد طرحت عنها عبء الماضى الثقيل، وعى عالمى جديد للعمل، فى ظل الظروف المتغيرة للأساليب الفنية الحديثة ويخبرة العصور، على تحقيق الأمل القديم الدائم التجدد فى نظام عالمى يقوم على مجتمع يسود فيه القانون».

وبعد ذلك بعشرين عامًا لم تكن هذه التوقعات قد تحققت أو «ليس هناك طرق مختصرة نحو الكمال». ومهما يكن من شىء فالأمم المتحدة تمثل تقدمًا كبيرًا على عصبة الأمم. وفى سنة ١٩٣٦ أى بعد ستة عشر عامًا من إنشائها، كانت عصبة الأمم تحتضر،

إذ هجرها كثير من أعضائها، وتجاهلها غير الأعضاء فيها، ولم تكن تظاهرها سياسة ضامنيها الأذكياء، بريطانيًا والولايات المتحدة، وكانت إقليمية ولم تكن عالمية، وتبددت الثقة في الديمقراطية في جو من العزلة والهبوط الاقتصادي، وكانت الفاشية تكتسب بسرعة مكانة، وقوة، واعتدادًا، وقدمت روسيا السوفيتية منظرًا للرعب الهائل. أما الأمم المتحدة فإنها بعد ستة عشر عامًا من إنشائها، وعلى الرغم من الصعوبات غير المعقولة التي ينطوي عليه اسمها وغرضها في عصر ينمو نحو الوحدة القومية الشاملة فقد أخذت تزداد قوة. وهي تستمد قوتها من أنها تقدم «احترامًا كريمًا لرأي الجنس البشري» إذا استخدمنا تعبيرات توماس جيفرسون، والأمم المتحدة لا تقدم دواء شافيًا لكل أمراض العالم (لا يوجد هذا الدواء) وهي أيضًا تعاني كل نقائص النظم الإنسانية. واجتماعاتها مليئة بالتوتر المرير، شأنها في ذلك شأن اجتماعات كثير من البرلمانات القومية. وكثير من المشاكل والمسائل لا تزال باقية على حالها لم تحسم، أو سويت بحلول وسط غير مرضية لبعض الأطراف، على أنها لا تنفرد بهذا وإنما تشاركها فيه الديموقراطيات، والديكتاتور وحده هو الذي يستطيع (حل) المشاكل بالطريقة التي (حل) بها الإسكندر عقدة الأردن، وبعض (الحلول) أسوأ من الموقف الذي (حلته). وقد كانت الأمم المتحدة، على العموم، ناجحة بالنسبة لخطورة تعقيد المشاكل التي تحيط بالجنس البشري في هذه المرحلة من التوسع العالمي والتحول السريع، إنها لم تعد بعد محدودة إنما أصبحت عالمية أو إنسانية عامة.

والحقيقة التى بعثت القوة فى الأمم المتحدة هى أن البناء العالمى الذى تنبأ به توكفيل فى سنة ١٨٣١ والذى تحقق أخيراً فى سنة ١٩٤٠ - والذى يتمثل فى الانقسام المحورى المزدوج إلى كتلتين كبيرتين من القوى قد أخذ فى الاختفاء فى سنة ١٩٦٠ . وقد حول الانقسام المحورى المزدوج الجهاز الدولى إلى مسرح للمبارزة بين القوتين الكبريين المتنافستين على زعامة الجنس البشرى. وتهدد الفلسفة البدائية «نحن أو هم» بأسر كثير من العقول وهى تتضمن أن الحياة الدولية فى حالة أزمة دائمة، تتطلب حالة استعداد دائمة فى التنافس للبقاء. والعالم السياسى الاشتراكى الوطنى الكبير، كارل شميت، أسس مفهومه للسياسة على مثل هذا العداء «الحتمى» الأساسى بين صديق وعدو. وفى رأيه أن علاقة (الصديق - العدو) هذه تسود كل مجالات الحياة. وقد أثرت نظريته التى وضعت بذكاء متوقد، تأثيراً عميقاً على الفكر السياسى الألمانى. وهى تقابل غريزة القتال المفترضة فى الإنسان، وفوق كل شىء، فى هذه «الفردية» أو «الجهاز» العالى، البطل الحقيقى للتاريخ، والدولة أو الأمة التى تعتبر من يقف فى طريق تحقيق أمانى الإنسان عدواً يجب التخلص منه. وهذه الفلسفة (نحن أو هم)، (صديق أو عدو)، هى الفلسفة العامة التى ترقد تحت الفاشية والشيوعية. إنها تطفح بشحنة عاطفية مبالغ فيها من الاعتقاد والدجماطيقية بأن الإنسان على حق لا نقاش فيه وأنه إنما يكافح فى سبيل البقاء القومى. وكتب شميت يقول «إن ذرى السياسة العظيمة هى اللحظات التى يتصور فيها العدو مجسما على أنه العدو. إن الحرب نتيجة العداوة هى إنكار وجود لوجود آخر» وفى نهاية أربعينات القرن العشرين كانت روسيا السوفيتية. تنظر إلى الولايات المتحدة على أنها مثل هذا العدو، وأجاب البعض فى الولايات المتحدة بنفس الطريقة. بيد أن فن السياسة الديمقراطية المتحضرة لا يعرف مثل هذا الإنكار القاطع لوجود آخر وستبذل المحاولات لتخفيف العداوة، معتبرة أن التسوية لا النصر التام هى النقطة العليا فى السياسة، وستحاول بالمفاوضات الصبورة الوصول إلى نوع ولو مؤقت من الاتفاق. والأمم المتحدة تؤيد بطبيعتها المدخل الديموقراطى لا الجماعى.

وقد تحقق الانتقال من الانقسام المحورى المزدوج فى هيئة الأمم المتحدة إلى موقف أكثر تعدداً وتركيبًا وأملا بتحرير الأمم غير النامية والبلاد المستعمرة وقوتها. وفى خمسينات القرن العشرين كانت الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى يعتبر الدول الأخرى إما «صديقًا» وإما «عدواً» ومعنى ذلك أنهما يطالبان بقبول سياسة واشنطن أو موسكو قبولا بدون نقد. ولم يكن معترفا بأهمية وجود الدول «المحايدة» أو «غير المنحازة» لاستمرار العالم الحر. وبدا لفترة قصيرة أن الديمقراطية الكبيرة قد قبلت زعم النظرية الشيوعية بأن البشر منقسمون إلى معسكرين متعاديين، أحدهما ملىء بالفضيلة والخير والثانى على العكس تمامًا، وأن «كل الحوادث فى عالم السياسة كانت بالضرورة تتجمع حول هذه النقطة المركزية وحدها» ومنذ سنة ١٩١٧ أعلن الشيوعيون إيمانهم بأن هذين المعسكرين قد حصرا فى كفاح غامض للحياة أو الموت، ستخرج منه قوى الخير منتصرة حتما على شياطين الشر وتغير المجتمع الإنسانى كله. وهذه العقيدة كأى عقيدة دينية متعصبة، كانت تملأ قلوب كثير من الشيوعيين بثقة وإصرار.. واضحى الرسوخ وتبنى، بمساعدة الدوجماطية والتعذيب والرعب، تماسكا متحجراً.

وفى سنة ١٩٦٠ كان الموقف فى الأمم المتحدة قد تغير وأعادت مبادئ الديمقراطية والتعدد والمنافسة الحرة تأكيد نفسها. وحتى العالم الشيوعى أصبح أقل تحجرا وانتقدت دول شيوعية مثل يوغسلافيا والصين وألبانيا ادعاء موسكو للزعامة وقاومته. وأثبتت القومية والتعدد أنهما أقوى من الاستبداد والوحدة. وفى نهاية سنة ١٩٣٠، عندما كثر الحديث عن وحدة دولية فاشية.. وعن تفرغهم الذى لا يهتز لمثل أعلى واحد، ظهر التفكك حتى بصورة أقوى. وكانت الفاشية متحجرة فى داخل الحدود القومية فقط. ولم تهاجم ألمانيا الاشتراكية الوطنية فى ١٩٣٩ روسيا الشيوعية أو بريطانيا الديمقراطية بل هاجمت بولندا شبه الفاشية والمعادية للشيوعية وللديموقراطية والتى تعاونت مع هتلر بحرية لمدة خمس سنوات. وهاجمت إيطاليا الفاشية فى سنة ١٩٤٠ اليونان، التى كان يحكمها الديكتاتور الفاشى الجنرال ميتاكساس. وتبعت إسبانيا الفاشية تحت حكم الجنرال فرانكو مصالحها القومية المركزة على نفسها ولم تؤيد من تحبهم وتقدرهم من الديكتاتوريين زملائها. على الرغم من تحالفهما ضد الشيوعية فإن ألمانيا واليابان لم

تتعاونا بثقة. وكان فرانكو ديكتاتوراً بنفس درجة هتلر ولكنه لم يقبل زعامته وتيتو وماوتسى تونج شيوعيان كخروشوف تماماً، ولكنهما يتبعان طرقهما ومصالحهما الخاصة.

والاتجاهات التعددية (Pluralist) تزيد من تحقيق نفسها فى العالم الحر والدول الأوروبية التى أنهكت أو سحقت فى سنة ١٩٤٥، استعادت فى سنة ١٩٦٠ كثيراً من قوتها واستقلالها. وفى نفس السنة قلبت الثورات فى كوريا وتركيا حكومات كانت متحالفة مع الولايات المتحدة ومؤيدة منها، دون معرفتها أو موافقتها، وزاد الاتجاه إلى «الحياد» بين الدول التى كانت الولايات المتحدة تعتبرها فى معسكرها دون شرط. وقل إصرارها أولا بأول على خضوع حلفائها لرغبتها. وتخلت عن تقسيم الدول بتبسيط أكثر مما ينبغى إلى «أصدقاء» يفعلون كما تريد، و«أعداء» يحتفظون بحرية النقد. وأبدت الولايات المتحدة التى كانت حتى سنة ١٩٤٧ الدولة المحايدة الأولى، فهمًا لحياد الآخرين. وكان هذا الموقف الجديد متماشيًا مع مبادئ الحضارة التى أصبحت الولايات المتحدة حاميتها، وهى حضارة تعارض الدوجماطية والاستبداد والتطابق (Conformism).

وهذه الحضارة تتطلب من أتباعها مواقف جديدة، مواقف مبنية على الاعتراف بالمساواة، فى الحياة القومية أولا، ثم فى العلاقات الدولية. وكان نتيجة ذلك نجاحها فى الداخل – وإن كان هذا النجاح بطيئًا فى بعض الأحيان – فى تعليم المواطنين الاعتراف بالمساواة – القانونية، والسياسية وتكافؤ الفرص على قدر الإمكان – بين الكبير والصغير، والغنى والفقير والمتعلم تعليمًا عاليًا ومجرد المتعلم، والوسيم والقبيح على السواء. ونفس مبادئ الاعتراف بالمساواة تكمن تحت المدخل الغربى الحديث للعلاقات الدولية لا المدخل الفاشى أو الشيوعى لها. وهذه المبادئ تدخل أكثر فأكثر فى بناء الأمم المتحدة.

كانت الأمم المتحدة فى أول الأمر تشبه عصبة الأمم بطرق كثيرة. وكان يبدو أن مصيرها أن تصبح أداة لسياسات القوى الكبرى. وفى سنة ١٩٦١ كانت الأمم المتحدة قد تحولت إلى شيء جديد ومختلف، تنظيم - هو الأول من نوعه - تلتقى فيه كل الشعوب وكل الحضارات وتبحث الشئون العالمية - السياسية والاقتصادية، والاجتماعية والثقافية - على قدم المساواة ووفقًا للإجراءات الغربية. وبدلا من الترحيب بهذا التطور، بدا أنه يزعج بعض المراقبين فى الديموقراطيات. واعتقدوا أن زيادة عدد الدول الأعضاء قد يكون فى صالح الشيوعية. وكان خوفهم من مفاخرة الجماعية أكثر مما ينبغى، كما كان الأمر فى سنة ١٩٣٠ . وقبل بعض الديموقراطيين عندئذ تبسيط (صديق أو عدو) من أنه لا خيار إلا بين الفاشية أو الشيوعية. وحتى فى الوقت الحاضر، تدعو القوى المضادة للديموقراطية خارج العالم الشيوعى - مثل التقليديين الإسبان والبرتغال والفرنسيين - إلى كارثة مذهب (إما صديق وإما عدو). ناسين أن الفاشية والمذهب التقليدى لم يكادا يثبتان أنهما حماية ضد الشيوعية.

وفى سنة ١٩٣٠ أسرفت بعض الدوائر فى الغرب فى تقدير فرص الفاشية وقوتها. وبذلك بثوا فيها القوة. وبالمثل تسرف بعض الدوائر اليوم فى تقدير جاذبية الشيوعية. ونتيجة لذلك يرون أن الغرب يخسر. ولكن موسكو، بالرغم من أن قوة مركزها زادت بشكل هائل بالاعتداء الفاشى فى سنة ١٩٤١ . لم تحقق دائمًا أهدافها منذ ذلك الحين. وقد فشلت إلى الآن، بالرغم من المجهود الكبير، فى النمسا، واليونان، وتركيا ويوجوسلافيا وفى إيران والعراق. وسوريا ومصر، وفى الكونغو وأفريقيا على العموم ولم تحقق تقدمًا فى أوروبا الغربية، ولا حتى فى إيطاليا وفرنسا. وفوق كل شيء لم تستطع موسكو أن تحول الأمم المتحدة إلى أداة لسياستها، ويفسر فشلها العداء الصريح الذى أبداه خروشوف أخيرا لنشاط الأمم المتحدة وأجهزتها. ولا حاجة إلى القول بأن الولايات المتحدة أيضا لا تستطيع استعمال الأمم المتحدة أداة لسياستها. وفى هذه الحالة، على أى حال، يتماشى عدم قدرتها مع المبادئ التى تكمن تحت سياسة الولايات المتحدة وتحت سياسة

الأمم المتحدة. وقد حالت مبادئ التعدد الديموقراطية وقوة القومية دون أن تسيطر على الأمم المتحدة قوى كبرى منفردة أو تكتلات من القوى. وفى الوقت نفسه أنشأت هذه المبادئ الطابع الإنسانى العام أو العالمى للأمم المتحدة واحتفظت لها به.

وكأى تغيير كبير فى التاريخ، خلق وصول كثير من الشعوب إلى تكوين دول فى خلال السنين الأخيرة مشاكل صعبة. ولم تكن الشعوب ذات الحضارات والشهرة القديمة كالعرب والهنود، هى التى كونت دولا مستقلة فحسب، بل فعلت ذلك أيضًا الشعوب الأفريقية التى يمكن تسميتها بحق «حديثة» فى مجتمع الأمم. ولم يبعدهم كونهم أصبحوا دولا عن الدول القديمة، بل لعله كان عامل توحيد وتشعر هذه الدول الناشئة، كما شعرت الدول الأوروبية قبل ذلك بقرن، بشعور تحرر جديد بأنهم مجتمع يسعى لأهداف مشتركة. وفى عصر القومية لم تعد الشعوب تقبل أن تكون موضوعات للتاريخ يصنعها الآخرون، إنهم يريدون أن يشعروا بأنهم أصحاب الشأن فى مصيرهم. إنهم لم يعودوا يعتقدون أن موقفهم التقليدى غير قابل للتغيير. وقد أمدتهم القومية بطاقة وحيوية جديدة، ولكنها عرضتهم لنفس الأخطار والإغراءات التى تعرضت لها الدول الأوروبية، وكثيراً ما استسلمت لها فى عصر القومية. ولم تكن الدول الجديدة أحسن (كما تعتقد فى كثير من الأحيان) ولا أسوأ (كما تعتقد الدول القديمة) من الدول القديمة، بالرغم من أنها، بالطبع، تختلف عنها وفيما بينها، وهى تطالب بالدخول فى دنيا التاريخ وتحققه، بطريق منتظم لأول مرة، خلال الأمم المتحدة، والتى أصبحت المدخل للمشاركة فى تاريخ الكرة الأرضية.

وتجرى الآن كتابة الفصل الأخير فى هذه العملية بإدخال كثير من الشعوب الأفريقية أو الدول الأفريقية التى فى دور التكوين. ووجودهم الذى لم يكن متوقعًا فى سنة ١٩٤٥ أو حتى سنة ١٩٥٥ يعطى الأمم المتحدة نظرة جديدة. وقد لعبت الصين، والهند، والشرق الأوسط دورًا كبيرًا فى تاريخ العالم وحضارته، ولم تلعب أفريقيا وجنوب الصحراء أى دور. ودخولها التاريخ، بوصفه التجربة المسجلة المشتركة للبشرية، يقع فى نفس تاريخ دخولها الأمم المتحدة. وانتقال شعوب أوروبا، وآسيا، وأمريكا إلى

الأممية الحديثة كان عملية تاريخية طويلة وشاقة. وإذا نظر إلى انتقال الشعوب الأفريقية من النظام التقليدى إلى المجتمع القومى الحديث فى ضوء أهمية الحقيقة، بكل ما يتضمنه من تعقيدات، وجد أنه لا يتقدم بسرعة فحسب ولكن بسهولة نسبية أيضاً. وتضع نشأة القومية فى أفريقيا الحجر الأعلى فى البناء الصاعد للبشرية. إنها تؤكد بزوغ فجر عصر جديد فى التاريخ. وبينما تدخل الشعوب الأفريقية لأول مرة فى علاقة مشاركة على قدم المساواة مع الأمم الأقدم تكوينا فى القارات الأخرى، فهى تلتقى فيما بينها للمرة الأولى أيضاً. وحالات الوعى عندهم بالقومية والأفريقية والإنسانية الشاملة تتطور معًا فى وقت واحد.

والوعى الأفريقى العام لا يتضمن الوحدة أو التوحيد الأفريقى، إلا بقدر ضئيل كما فعل وعى مشابه له فى أوروبا وأمريكا اللاتينية. فالمصالح تختلف وتتنازع من منطقة إلى منطقة. وستكون بعض الحدود الأفريقية محل نزاع حام بين الدول الأفريقية، كما كانت هناك نزاعات طويلة ومريرة على الحدود بين الدول الأوروبية ودول أمريكا اللاتينية. وقد فشلت محاولات الاتحاد فى أفريقيا إلى الآن، ولكنها فشلت بالمثل بين دول سكانديناوة وأمريكا الوسطى، بالرغم من أنها أبدت فيما بينها تقاربًا أكبر مما أبدته المناطق الأفريقية المختلفة. والقومية هى التى تربط الأفريقيين اليوم فيما بينهم وبدول القارات الأخرى. وهذه القومية تجعلهم راغبين فى أن يصبحوا شركاء محدثين فى قوة كبرى لا يثقون بها ضمنًا. وقد يكون حكمهم الخاص ملونًا بالكراهية للاستعمار. ولكن سبقت الإشارة إلى أن هذه الكراهية لا تكاد تكون فى قوة الكراهية التى كانت تحملها الشعوب الأوروبية لزملائهم الأوروبيين الذين يحكمونهم. ولم يغضب البريطانيون المستوطنين فى أمريكا الشمالية أو يحقروهم أبدًا، ومع ذلك فقد ظلت كراهية حية ضد البريطانيين تكوِّن تفكير الأمريكيين وشعورهم عقودًا كثيرة بعد سنة ١٧٨٣ .

والقومية اليوم – فى أوروبا على السواء – يجب أن يخففها شعور التعاون الإنسانى الشامل والمسئوليات التى يتضمنها. والشعوب تلتقى بدرجة لم تحدث من قبل، فى الأمم المتحدة، وفى المؤتمرات والاجتماعات، وفى المدارس والكليات فى كل أنحاء

الكرة الأرضية. وهم يتعلمون أن يفهموا أنهم مختلفون، وسيظلون كذلك. والنظرة الإقليمية لأوروبا فى القرن التاسع عشر وللماركسية طبقت مقاييسها الخاصة على حضارات أخرى وحكمت عليها بناء على تلك المقاييس. وليس الأفريقيون على كل حال كالأوروبيين فيما عدا أنهم أقل تطوراً. إنهم ليسوا أطفالا ستنمو حتى تنضج. كما أن الأوروبيين ليسوا متشابهين فيما بينهم أو متساوين فى النمو والنضوج. وعصر الإنسانية الشاملة لا يستطيع أن يتجاهل التغير الكبير والمفيد بين الناس. على الرغم من أنها مختلفة، يجب أن تتعلم الأمم الاعتراف بأنها متساوية وأن تتعلم التعاون. وقد تحدث الأب عبد الجليل قائلا «يقبل بعضنا البعض مختلفين ونتحاب متكاملين». وقال ريتشارد. م نيكسون نائب الرئيس فى موسكو فى صيف سنة ١٩٥٩ «إن هدفنا لا يجب أن يكون الانتصار على الدول الأخرى وإنما انتصار البشرية كلها على الجوع، والبؤس؛ والمرض أينما وجدت على الأرض».

وسيذكر مؤرخو القومية أن القوميين الألمان والمجريين فى القرن التاسع عشر احتجوا ضد منح السلافيين والرومانيين مساواة تامة فى مملكة هابسبرج وكانوا يعتبرون هذه الشعوب متخلفة ولا تستطيع أن تحكم نفسها. وكانوا يرون أنه يجب تعليمهم، خلال قيادة وأشكال موزونة من التمثيل، لمدة طويلة قبل أن يصلوا إلى مرحلة النضج. وكان موقف البريطانيين إزاء الأيرلنديين مماثلا، وكذلك موقف البولنديين إزاء الأوكرانيين. وتتشابك فى هذا الموقف المكانة والعزة القومية، والمصالح الاقتصادية والشعور بالتفوق الثقافى الذى يتضمن «رسالة» وهى تعيش اليوم فى العلاقة بالآسيويين والعرب والأفريقيين وفى سنة ١٩٥٦ انتشرت الشائعات بأن المصريين لن يكونوا قادرين على إدارة قنال السويس، وفى سنة ١٩٦٠ جرت نكات سمجة عن «آكلى لحوم البشر» الكونغوليين ولقد كانت وقائع «الوحشية» «والامتهان» التى ارتكبها الكونغوليون ضد حكامهم السابقين أقل كثيراً فى القسوة وفى العدد مما ارتكب منذ عدة عقود ضد الكونغوليين والأفريقيين الآخرين. ومعاملة الأفريقيين فى الكونغو البلجيكى «يجب أن تعتبر مسئولة عن انبعاث الكراهية الجنسية ضد البيض فى أنحاء المستعمرة وعن

موقف الإصرار الأخير على عدم الثقة بالبلجيكيين». ولم تكن مشكلة الكونغو هي منحه الاستقلال الوطني ولكنه كان متأخراً جداً ودون أي إعداد، وأن وعد البلجيكيين به كان بأمل استعادة العلاقة القديمة باستخفاء ضئيل. وعلى الرغم من الفوضى التي كان لابد أن تتبع الاستقلال نجح الكونغوليون، بمساعدة الأمم المتحدة، في إرساء أسس دولة جديدة تحت أكثر الظروف صعوبة، في وقت قصير جداً.

شهدت الأمم المتحدة بدخول الأعضاء الجدد الانتقال من صلابة الانقسام المحورى الثنائى إلى تعدد «الكتل» وانقسام كل منها بدوره (باستثناء الكتلة الشيوعية الصغيرة) إلى جماعات متعددة، كان كل عضو فيها يعطى صوته باستقلال، وكثيراً ما اختلفوا فيما بينهم، وفقاً لمصالحهم وللمسائل محل البحث.. ولم يكن إعطاء صوت ضد سياسة تؤيدها الولايات المتحدة يعنى تصويتاً للاتحاد السوفيتى وإنما يعنى خلافاً مع الولايات المتحدة فى موضوع معين. كما لم يكن تصويت الولايات المتحدة فى نفس جانب الاتحاد السوفيتى يتضمن أى اتفاق على الأمور الأساسية. وقد أحسن تعريف السياسة الاستقلالية التى اتبعتها الدول غير الشيوعية رئيس وزراء تانجانيقا «جوليوس نيريرى»، وقد أعلن أمام جمعية الأمم فى يونيو سنة ١٩٦١، مع تقديره لعلاقة بلاده التعليمية والثقافية ببريطانيا «إنه من الخطأ أن نصف سياسة تانجانيقا الاستقلالية بالحياد. لأن كلمة حياد كثيراً ما تحمل معنى عدم الاهتمام. نحن نهتم وبحماسة بنمو العدالة والرخاء والسلام فى العالم كله، نحن نهتم بحقوق الإنسان، وباستقلال الدول وحقها فى تقرير مصيرها. نحن نهتم بالحصول على السلام فى أفريقيا وفى الأجزاء الأخرى من العالم. ولا يمكن فى هذه الموضوعات الكبرى، أن نكون محايدين. ولكن على الرغم من أن سياستنا لن تكون الحياد الإيجابى فستكون سياسة مستقلة».

وقال مستر نيريرى وسط تصفيق عال.. إن تنجانيقا ترفض أن تكون «مخلب القط» لأية قوة «نحن ننبه من الآن إلى أن أحداً لن يستطيع أن يعتمد على تصويتنا له بطريقة آلية لأننا أصدقاء. كما أن أية دولة ليست صديقة لنا يجب ألا تفترض أننا سنصوت ضدها آلياً. ولن نؤثم آلياً سياسة لأنه يقال إنها مؤامرة شيوعية. كما أننا لن نعارض سياسة لأن معارضيها يصفونها بأنها خيانة رأسمالية. وسننظر إلى كل موضوع فى ضوء ما إذا كنا نؤمن بأنه يؤيد قضية الحرية، والعدالة، والسلام فى العالم».

وجاء بيان نيريرى أثناء بحث اقتراح بقصر التمثيل السياسى للدولة نظرًا لفقر مواردها على الأمم المتحدة، ولندن وواشنجطون. وقدم اقتراح بعدم إقامة أى بعثة ديبلوماسية عبر البحار إلا فى الأمم المتحدة, وتستطيع الدولة الجديدة خلال الأمم المتحدة أن تشارك فى التاريخ، ونحو الأمم المتحدة كانت تتجه آمالها. وكان الشيوعيون، وهم يمثلون مجتمعًا مغلقًا إنعزاليا، لا يأبهون بالأمم المتحدة على العموم، وكانت الدول الجديدة ترى فيها أقوى ضمان لاستقلالها.

وتتبع الدول الأقدم والأكبر سياسة استقلالية مماثلة وتحتفظ بالحق فى الحكم على كل حالة وفقًا لما تستأهله. وقد اختلف مستر «هوارد جرين» وزير خارجية كندا وهو يتحدث إلى البرلمان الكندى فى أوائل سنة ١٩٦١ اختلافًا شديداً مع بعض دول حلف الأطلنطى التى طالبت بأن يؤيد الأعضاء دائمًا بعضهم البعض، أو يمتنعوا عن التصويت على الأقل إذا رأوا أنهم لا يستطيعون تأييد موقف الأعضاء، خصوصًا فى مسائل المستعمرات وأعلن مستر جرين إصرار كندا على التصويت استقلالاً فى الأمم المتحدة واتخذ موقفا مماثلا من جانيوكوادروس رئيس جمهورية البرازيل المنتخب حديثًا، وهو معارض متحمس للشيوعية «والرئيس الجديد، بعيداً عن أن يكون متخبطًا أو غير مسئول، يشعر ببساطة أن الوقت قد حان لتلعب البرازيل دورًا أكثر أهمية واستقلالاً فى شئون العالم. ويمكن توقع أن تتخذ قرارات سياسية فى أى موضوع معين ملتزمًا ما يعتقد أنه الأحسن لمصالح بلاده... واستقلاله الجديد ينتظر أيضًا أن يحرم أشرعة المعارضة التى كانت تسمى كوادروس أداة أمريكية من كثير من رياحها. والمنتظر أن ينزع برنامجه عن الأرض من تحت أقدام الشيوعيين أمثال كاسترو من العناصر اليسارية». والجانب العجيب لرغبة البرازيل فى أن تكف عن أن تكون «موردًا لتغذية التصويت» كان الضرورة الظاهرة فى أن تفسر لشعب الولايات المتحدة أن هذه الخطوة من بطل وطنى حر محافظ ليست عملا من أعمال المعارضة الشيوعية للولايات المتحدة. وأنشأ كوادروس علاقات ديبلوماسية واقتصادية مع الدول الشيوعية، وقد أشار إلى أن الولايات المتحدة وكندا تحتفظان بعلاقات مماثلة، وكان مثل جواهر لال نهرو والرئيس ناصر والرئيس بورقيبة قليل الرغبة فى أن يكون إنشاء علاقات صداقة مع موسكو

سببًا فى أن تعتمد بلاده عليها. وقد أعلن بورقيبة بعد أن أرسل بعثة للتفاوض على تأييد موسكو ضد فرنسا: «أنا لا أقوم بعملية ابتزاز أموال. أنا أعتقد ببساطة أن الاتحاد السوفيتى يستطيع أن يساعدنا لأن أهدافنا متماثلة. لسنا أتباعًا ولا مخالب للغرب. وكل من يريد أن يساعدنا يستطيع أن يساعدنا. والذى يهمنا هو رخاء بلادنا» وواجه رجال الدولة فى البلاد غير النامية المهمة الصعبة لرفع شعوبهم إلى مستويات أعلى فى الرخاء والتعليم ومحو التعاون الاقتصادى والاجتماعى الذى يؤذى الأمم غير الحديثة اليوم، والذى كان منذ قرون قليلة يميز دول أوروبا الغربية والشمالية أيضًا.

وهناك صعوبة أخرى تواجه الدول الجديدة اليوم، كما كانت تواجه الدول المتقدمة فى الماضى، هى «الوحدة القومية»، وخلط جماعات مختلفة فى الجنس والدين والاجتماع والثقافة، فى مجتمع متوافق تمامًا. وهذه المشكلة لم تحل دائمًا بنجاح حتى فى الدول المتقدمة. وقد يعتمد على حلها، استقرار، وتقدم، وحتى بقاء دول كثيرة أسيوية وأفريقية وفى أمريكا اللاتينية. والمهمة صعبة فى الدول الجديدة كما كانت فى الدول القديمة. والاتحاد التعددى أو الجمعى قد يتخطى كثيراً من أسباب التوتر. وكانت صفوة مدربة تدريبًا بريطانيًا فى نيجيريا شبيهة بتلك التى كانت فى الهند مصممة على أن تحل المشكلة بالاتحاد الديموقراطى. وأعلن دكتور نامدى أزيكيوى الحاكم العام لنيجيريا فى لاجوس سنة ١٩٦١ «أن نيجيريا تفخر بأننا حصلنا على استقلالنا بأقل ما يكون من المرارة وبدون ثورة دموية. وستتفرغ لإنشاء دولة حرة قوية، غنية بتعدد اللغات والثقافة وبمجموعة النظم الاجتماعية والدينية فى بلادنا. ونحن نجاهد لكى يكون واضحا فى نشاطنا اليوم. الاحترام للكرامة الإنسانية، والاعتقاد الراسخ فى حكم القانون وفى مبدأ الإخاء الإنسانى».

وافتقار الدول الجديدة إلى الوحدة يفسر الصعوبة فى تقدم نظمهم الغربية الديموقراطية ونشوء نظم الحزب الواحد أو الرجل الواحد. وليست الدول الجديدة وحدها أيضا فى ذلك الموقف. وقد اعتصمت فرنسا، وقد فرقها النزاع الداخلى والتخبط على شفا الحرب الأهلية، بحكم الرجل الواحد الذى هو ترجمة حديثة لتقاليد حكم فرنسية سابقة على الديموقراطية، ملكية القرن السابع عشر والديكتاتورية العسكرية الشعبية

فى القرن التاسع عشر. وبينما يبعث دكتور «كونراد أديناور» الحياة فى أشكال الديموقراطية البرلمانية الغربية ويحتفظ بها، يمارس تأثيراً ديكتاتورياً لتوحيد الأجزاء المتخلفة عن الكارثة النازية فى جمهورية اتحادية قابلة للعمل ويقودها نحو تحالف مع الغرب. وكان حكم الرجل الواحد والتأثير الحاسم للقوات المسلحة على الحياة السياسية معروفاً منذ أكثر من قرن فى دول أمريكا اللاتينية.

وفى الدول غير النامية، قد يكفى نظام الرجل الواحد أو الحزب الواحد الحاجة إلى الشعارات التى يمكن أن تتوحد حولها الدولة وتبدأ فى السعى نحو أهداف مشتركة. وفى الانتخابات التى أجراها البريطانيون فى كينيا فى فبراير سنة ١٩٦١، خرج توم موبويا زعيم «الاتحاد القومى الأفريقى بكينيا» منتصراً. على الرغم من التأييد الديموقراطى الساحق الذى تلقاه حزبه، فقد أعلن موبويا فى ١٠ مارس أنه فى «المراحل الأولى» ستكون حكومة الحزب الواحد ضرورية لاستقرار الديموقراطية ونموها فى كينيا وسيكون الخطر من النزاع بين الأحزاب من أجل السلطة، لا من التقاليد أو القبلية. وسينتج عن ذلك حتما الضعف وعدم الاستقرار». وفى بعض البلاد مثل غانا وتونس، أصبح تقديس الشخصية تقليداً فى السياسة. وفى حديث فى أول يونيو سنة ١٩٥٩ . سمى بورقيبة نفسه: «الصوت المخلص الخالى من الغرض لضمير الأمة». الذى «حارب كثيراً وجيداً من أجل قضية الشعب حتى اختلطت حياة الرجل بحياة الشعب».

ومهما يكن من شىء فقد تكون هذه الديكتاتوريات الطريق الوحيد لبناء أساس للتطور فى الدول غير النامية للنظم الديموقراطية على قاعدة واسعة. ومن الواضح أن مثل هذا التطور يجرى فى المكسيك، التى استمرت بعد نصف قرن من الثورة دولة حزب واحد يحكمها حزب الثورة المنظم وقد لعب الجيش الدور الحاسم فى الحزب حتى وقت قريب والجنرال الأقوى أصبح الرئيس. ومنذ أن ترك الجنرال «مانويل أفيلا كاماشو» الحكم فى سنة ١٩٤٦، كان المدنيون ينتخبون رؤساء، وهى حقيقة تثبت النمو الناضج لطبقة وسطى قوية واستقرار المجتمع المكسيكى.

مالت الولايات المتحدة، وقد استغرقتها منذ أواخر سنة ١٩٤٠ الفكرة المبسطة فوق ما ينبغى وهى أن البشرية منقسمة فى نزاع بين محورين إلى قبول حكومات تتبع، لأغراض خاصة بها، سياسة معادية للشيوعية بوصفها حلفاء مرحبًا بهم، حتى ولو لم تبذل لهذه الحكومات إلا قليلاً لتحسين حال شعوبها أو تباهت بمبادئها غير الديموقراطية. وبهذه الطريقة قامت فى الخارج صورة مشوهة للطبيعة الحقيقية للولايات المتحدة وللديموقراطية وأضعفت قضية الغرب وأشكلتها.

وكثيراً ما لا تقترن الديموقراطية بالمشاركة الشعبية النشيطة وتقدم الحرية بل تقترن بالضغط وبعدم الاهتمام السياسى. ويوجد مثال لهذا الاختلاط فى عقول شبان كوريا بعد أكثر من عشر سنوات من الاتصال الوثيق بقوات الولايات المتحدة وحكم «سنجمان رى» هناك، الذى كان مؤيداً من الولايات المتحدة باسم معاداة الشيوعية، اتهم بانتشار الفساد والتحكم. وأسقطته ثورة الطلبة فى ٢٧ أبريل سنة ١٩٦٠ ونتيجة لانتخابات حرة أصبح «جون مون شانج» رئيساً للوزراء فى ١٢ أغسطس، وقام حكم برلمانى وقامت حرية الرأى، وبدأت الحكومة الجديدة فى علاج مشاكل كوريا الاقتصادية الحديثة، التى لم تنشأ عن الفساد وعدم الكفاءة فحسب، بل أيضا عن زيادة السكان، تلك الزيادة التى فاقت بسرعة موارد الغذاء المتاحة الناجمة عن نقص الإنتاج الزراعى وارتفاع الديون الزراعية، واستعجالاً للإصلاحات السريعة وتحقيقًا لمستوى أخلاقى أعلى فى الحياة الكورية العامة، أسقط انقلاب للضباط حكم شانج البرلمانى. القصير الأجل بعد أقل من سنة.

وقد سئل مراسل أمريكى المرة بعد المرة «ماهى الديموقراطية؟» من الكوريين. وقال عقيد شاب «إننا نعرف ما هى الديموقراطية. لقد عرضتموها علينا. لقد كانت هى حكم سنجمان رى». والتفت أمريكى يسأل العقيد فى دهشة عما إذا كان يعتقد حقًا أن النظام الاستبدادى للرئيس السابق سنجمان رى.. كان يمثل ترجمة الولايات المتحدة للديموقراطية، وكان العقيد فى مثل دهشته وأجاب: «طبعًا. إننا لم نكن نحب رى.. ولكنكم كنتم تؤيدونه

دائمًا وتدعونه ديموقراطيًا عظيمًا. كانت هذه هى ترجمتكم للديموقراطية». وكثيراً ما تكرر هذا الكلام فى سيول. وكان الأمريكيون فى المدينة يجدون، لدهشتهم، أن بعض شبان كوريا يصورون الديموقراطية لا كما يفكر فيها الأمريكيون، وإنما كانعكاس لحكومة مكروهة تؤيدها الولايات المتحدة.

ليست كوريا على استعداد للديموقراطية السياسية. «هناك الكثير الذى يجب عمله، والكثير من المعاناة فى البلاد. نحن فى حاجة إلى الكفاءة والأمانة، والتكريس، وستؤدى هذه يومًا ما إلى الحكم السياسى الحر. والحكومة التى توفر هذه الأشياء هى فى نفس الوقت، المؤيد الحقيقى للديموقراطية، الديموقراطية الحقيقية». وفى مجموعة أو أخرى من الكلمات، هذه هى فكرة ضباط الجيش الشبان الذين قامروا بمستقبلهم على نجاح الانقلاب. وهم يقولون: أعطونا وقتًا كافيًا، لعلنا نستطيع تقديم أبهة الديموقراطية. وضد هؤلاء يوجد شبان كوريا الذين يعتقدون أن ضباط الجيش يغلفون ببساطة اغتصاباً للسلطة بعبارات سارة عندما يتحدثون عن الديموقراطية. ولكن حتى الشباب الذين يعارضون الانقلاب والذين عاونوا على قيام ثورة الطلبة فى سنة ١٩٦٠ يحتقرون الديموقراطية البرلمانية التى جاءت بعد ذلك. وقليل من الخير ما يقال فى هذه الأيام عن حكم شانج بين شباب كوريا المؤيدين للانقلاب والمعارضين له. ولكن كثيراً من شباب كوريا الذين ذاقوا لأول مرة فى حياتهم لذة حرية البحث بعد ثورة تلك السنة يرفضون بإصرار وحماسة أن يعتقدوا أن الديموقراطية مستحيلة لكوريا الجنوبية.

وموقف آخر عميق الإزعاج للتأييد العسكرى الأمريكى لحكومة فاسدة غير ذات كفاءة. وضعتها وأبقتها فى السلطة القوات الأمريكية، كان قائمًا فى لاوس فى نهاية سنة ١٩٦٠ . وقد كتب مراسل أمريكى عن هذه «الحكومة اليمينية» أنها تعتمد على الولاء المشكوك فيه لمعظم الجيش المكون من ٢٩٠٠٠ رجل تقريبًا ولكن الجيش يمكن أن يستوعب عدداً أكبر من الكونج لى (الضباط الشبان الوطنيون المتحمسون للإصلاح) غداً صباحًا، لأن ضباطه الشبان يمثلون خير المتعلمين، وفى كثير من الأحيان، أكثر من فى الشعب كله إنكاراً للذات. لقد روعتهم آثار الفساد وعدم الكفاءة التى يرونها حولهم، وقد بدأ كثيرون، مثل كونج لى، فى التحول إلى اليسار لأن اليمين جعل من

المستحيل عليهم أن يحاربوا (مؤيد الشيوعية) باثيت لاو بفاعلية. وكما أبدى لى ديبلوماسى غربى ملاحظته: «لقد بدأ كونج لى عصراً جديداً على لاوس، متحدياً كل عواطف الساخطين غير الشيوعيين وآمالهم؛ ولأول مرة يسمع صوت غير المتمتعين بالامتياز فى لاوس. على الرغم من أن كثيراً من ألوان الحكم ستحاول هذا، فلن تستطيع العودة إلى الوضع السابق الذى كانت تحكم فى ظله اثنتا عشرة عائلة، ويخدم الباقون جميعا أسيادهم الإقطاعيين - وإن كان ذلك بأسلوب أهل لاوس اللين، والذى تخفف العاطفة من حدته».

ومرة أخرى تستفيد الشيوعية من سياسة أمريكية عسكرية يمينية، تتبع دون النظر إلى مبادئ الولايات المتحدة ومصالحها البعيدة المدى.

وهناك مثل آخر على إهدار قيم الغرب الحديث يعطيه الموقف الحديث لحكومة الولايات المتحدة من الحكم الديكتاتورى فى إسبانيا. ويجب ألا تكون معارضة أمريكا لهذا الحكم قائمة ببساطة على حقيقة أنه يمثل حكم الرجل الواحد. فإسبانيا إما أن تكون وإما ألا تكون إحدى الدول غير المتطورة اجتماعياً وسياسياً، حيث لا يمكن (حتى الآن) تطبيق طرق الحضارة الغربية الحديثة. ولكن حالة حكومة الجنرال «فرانكو» تختلف: إنها تجاهر باحتقار الغرب الحديث ورفضه. وفى ٢ يونيو سنة ١٩٦١، فى الافتتاح الرسمى للبرلمان الإسبانى، بدأ الجنرال فرانكو هجوماً وحشياً على التحررية الغربية، والرأسمالية والديموقراطية، التى أعلن أنها تقود إلى كارثة، بينما رحب بديموقراطية «العضوية» بوصفها موجة المستقبل. والحديث «الذى احتوى على كل المآخذ المعروفة ضد الغرب أيام أن أيد فرانكو ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشية، كان له معناه فيما تركه كما كان له معناه فيما احتوى عليه». فلم تتخذ إجراءات لرفع الحالة السيئة لعمال إسبانيا الزراعيين، ولم تعلن أى إصلاحات زراعية. وقد استمرت مشاكل إسبانيا الاجتماعية والاقتصادية، وسوء توزيع الثروة الواضح، ومنع دخول كل الأفكار الحديثة، على الرغم من المساعدة الاقتصادية الكبيرة التى بلغت أكثر من بليون دولار قدمتها الولايات المتحدة بالإضافة إلى القروض العسكرية. وقد أشار مراسل أمريكى

إلى الخطر الذى يتضمنه هذا الموقف على سمعة الولايات المتحدة وديموقراطيتها.

«تميل الكنيسة الكاثوليكية وهى أكثر رجعية هنا من أى مكان آخر، إلى عدم الثقة بالولايات المتحدة... ويرى المثقفون والطلبة أن واشنطون هى أهم مؤيد للكوديليو (الديكتاتور العسكرى) لقد بدأوا يقرنوننا بحكمه الذى لا قيمة له. وينتهى البعض دون تعقل إلى أننا نفضل أن تبقى إسبانيا متخلفة ومحكومة حكما ديكتاتورياً».

ليست مشاكل الوحدة القومية، وحكم الرجل الواحد أو الحزب الواحد، وأخذ البناء الاجتماعى بأسباب الحضارة فى اتجاه مساواة أكبر، مقصورة بأى شكل على الدول الجديدة أو التى كانت مستعمرة. فنموها نحو اكتساب صفة الدولة وسلوكها لا يعرض أى صعوبات لم تعرفها الدول القديمة. ولم يحدث على العموم أن تم نقل السلطة الصعب (باستثناء حالات قليلة مثل الجزائر) على مثل هذا المقياس الواسع بمثل هذا الاحتكاك القليل نسبياً كما حدث فى السنين الخمس عشرة الأخيرة فى آسيا وإفريقيا. وكان انحلال الإمبراطوريات فى أوروبا والأمريكتين مصحوباً بحرب وسفك للدماء أشد. والطريقة التى حصلت بها سيراليون - أقدم مستعمرات بريطانيا فى أفريقيا - على استقلالها فى سنة ١٩٦١، قد لا تكون نموذجية ولكنها ليست فريدة. فقد سلم «دوق كنت» ممثلا للملكة المستندات الملكية التى تعترف بسيراليون دولة مستقلة، إلى رئيس الوزراء «سير ميلتون مارجى»، فى فريتاون العاصمة. وفى الوقت نفسه كان يحتفل بالاستقلال بصلاة شكر خاصة فى كاتدرائية سانت بول فى لندن، حيث قرأ دكتور. ر.أ «كيلفا كولكا» القائم بأعمال المندوب السامى لسيراليون فى بريطانيا، الدرس من الإنجيل الإنجليزى الجديد فى حضور علية القوم من البريطانيين.

وفى كل الحالات عملياً، كان الانتقال إلى الاستقلال أهدأ مما كانت تسمح بتوقيعه التجربة التاريخية للمرات السابقة. وقد أظهرت الحضارة الغربية الحديثة غنى مواردها فى حل مشكلتها الاستعمارية، كما فعلت فى حل مشكلتها الاجتماعية، وعلاقة رأس المال بالعمل. وفى كلتا الحالتين علمت غير المتمتعين بالامتياز أن يأملوا فى المساواة والكرامة الإنسانية. ومن ثم عبدت الطريق لعلاقة فردية ودولية تقوم على الرسالة التحريرية التى ميزت الحضارة الغربية منذ القرن السابع عشر، فى الإطار القومى أولا ثم على المسرح العالمى.

وفى سنة ١٩٦٠ وصل كثير من التطورات الغربية إلى نقطة واحدة. ودخل الجنس البشرى عصر القومية العالمية، التى لها جذورها فى تطور الغرب الحديث

الاجتماعى والسياسى. وواجهت الإنسانية فى وقت واحد تهديد الأسلحة الذرية، التى كان علم الغرب الحديث أول من أدركها، والأمل فى إنسانية عالمية، لنظام عالمى قائم على القانون، وهو أمل نما خلال تاريخ الفكر الغربى الحديث. وعندما يسترجع الماضى يبدو نصف القرن القدرى من سنة ١٩١٠ إلى سنة ١٩٦٠ انتقالا من عالم مركزه أوروبا المتوازنة نسبيًا فى القرن التاسع عشر إلى نظام عالمى جديد. وكان الحادث المركزى فى هذه الفترة الانتقالية هو تفكك الإمبراطورية البريطانية وهجوم الجماعية على أسسها التحررية.

كان القرن التاسع عشر عصر (السلام البريطانى). «كانت زعامة بريطانيا تتميز بالحذر، والإصرار على أساس قانونى للتدخل، وتفضيل استعمال الإقناع على القوة، واللجوء إلى الضغط الاقتصادى إذا استخدمت القوة، وعدم الرغبة فى احتمال مسئوليات عامة. وعلى أى فإن الموقف إذا أخذ جملة، بدا أن القوة البريطانية، كانت كافية لتنظيم الإمبراطورية التى تشمل ربع سكان العالم على أنها اتحاد يزداد حرية لأقاليم فى مراحل مختلفة من التطور نحو الاستقلال بروح القانون العام؛ ولتنظيم أوروبا وهى تشمل ربعًا آخر من سكان العالم على أنها قوة متوازنة تحكمها السياسة البريطانية التى تعمل خلال المجلس الأوروبى بقدر من الفاعلية جعل السلم لا يتعرض للانكسار إلا أحيانًا بحروب محلية نسبيًا؛ ولتنظيم العالم خارج أوروبا والإمبراطورية على أنه كيان من الدول المستقلة تعتمد بدرجات مختلفة على التمويل البريطانى وحكم الأسطول الذى يكفى لبقاء الحروب محلية، ولتنظيم التجارة فى كل مكان وفقًا لنظام حرية الاستغلال، وحرية التجارة وحرية حركة رأس المال، رافعة بذلك الحدود السياسية التوتر الشديد التى كانت تخضع له لو أنها شكلت أيضًا حدودًا اقتصادية لا يمكن تعديها.

وضعفت الزعامة البريطانية عندما تغلب التكنيك على حواجز المسافة، وبدأ انتشار الديموقراطية والقومية فى مساواة المجتمع. وأشار عجز بريطانيا عن منع حرب سنة ١٩١٤ إلى ضرورة التغيير. وفشلت أكبر المحاولات التحررية التى دارت بالخلد لتنظيم العالم على قاعدة عدم المساواة. وكتب جان. س. سمطس فى سنة ١٩١٨

«يجب أن يعـاد صنع العـالم كلية من جـديد على أساس جـديد. وبمقياس ضـخم. إن أوروبا تجرى تصفيتها، ويجب أن تكون عصبة الأمم هى الوارث للقارة العظيمة.... ومنً المؤكد أن الطريق الوحيد لرجل الدولة هو أن يجعل عصبة الأمم البديل عن هذه الإمبراطوريات بأوسع ما فى ذلك من معنى. ولم تعد عصبة الأمم، فى هذا الانهيار لأوروبا القديمة، متطفلة أو غريبة، ولكنها سيد البيت الطبيعى. لقد أصبحت بشكل طبيعى وواضح صاحبة الحل لمشكلة لن تحلها طريقة أخرى».

وأعضاء مثل هذه العصبة، يجب أن يتفقوا على الإجراءات أكثر من اتفاقهم على مسائل الموضوع، ويجب أن يبدأوا فى مطابقة أمانيهم ووسائلهم لوسائل النظام العالمى. وقد كتب «كينزى رايت» فى سنة ١٩٤٢ «تتكون الحكومة الدستورية من تصميم المواطنين فى الدولة على أن التزام الإجراءات التى وضعت مقدمًا فى الدستور سيعامل على أنه أكثر أهمية من أى شكوى خاصة، أو طلب أو إصلاح. وحتى يصمم شعوب العالم بالمثل على أن يضعوا الإجراءات قبل الموضوع فلنتوقع... هدنة قصيرة من الحروب وشائعات الحروب». ومن المستطاع تأمين السلام بالإجراءات الدستورية فى تنظيم دولى. «ويجب اليوم أن يشمل العالم مثل هذا التنظيم ويجب أن يكون قادرًا على ضبط الأفكار والظروف السريعة التغير فيما بينها، إذا أريد للسلام أن يدوم».

وبدأ ينبثق مثل هذا النظام فى سنة ١٩٦٠ . ولم تعد تسوده قوة كبرى واحدة أو تسوده مواجهة القوة الكبرى. وفى كتاب أُلِّـف أثناء الحرب العالمية الثانية، جادل «روبرت شتراوس هوبيه» أن الاستقلال والاشتراك الحر للدول الصغيرة هى ملامح ضرورية لنظام عالمى له من قابلية التطبيق ما يسمح بالتغيير، ويفرض وجود الدول الصغيرة كبح النفس على القوى الكبيرة. «وكبح النفس هو خميرة التعاون الدولى كما هو خميرة المجتمع الحر» وهذا التعبير الذكى تلخيص جيد لروح الحضارة الغربية الحديثة. وكتب «شتراوس هوبيه» أنه يجب على الولايات المتحدة، لصالح نظام عالمى للحرية أن تضطلع بعد الحرب «ببقاء وتقوية الحضارة الغربية.... ليس المفهوم الغربى مفهومًا خاصًا... والوحدة الغربية والوحدة العالمية ليسا هدفين متنافرين».

يمكن أن تصبح الحضارة الغربية الحديثة القوية حجر الزاوية لنظام عالمى يقوم على الحرية، والتعدد، والتسامح، وقالبًا للقومية العالمية والإنسانية العالمية. ولا يستطيع حلف شمال الأطلنطى أن يخدم هذا الهدف إلا إذا أصر على ترك بقايا النظام الاستعمارى ورفض أن يكون مجرد اتحاد من المالكين الذين يفكرون فوق كل شىء فى حماية امتيازاتهم. وقد اهتم «أندريه فونتين» فى كتاب يعالج مشاكل حلف شمال الأطلنطى بتوضيح الحاجة إلى مراجعة نفسية لتقدير مواقفه وأهدافه. وكتب. «يجب أول كل شىء أن يكف الحلف عن الاعتقاد بأنه غاية فى ذاته وبأنه جدير بنوع من الخلود ويجب أن يكون هدفه السلام، أو على الأقل هدنة من الحرب الباردة التى لا يمكن لإنسان أن يحتملها والتى يجب ألا نكف عن إعلان سخفها».

«ويجب، لذلك، أن يرتفع الحلف إلى مستوى الموقف وأن يواجه مسئوليته.... ويجب أن يقوم بحملة لا تهدأ للصداقة العالمية فى كل مناسبة ممكنة - فى الأمم المتحدة، وفى المؤتمرات الدولية، وفى كل مكان - كما فعل مستر نيكسون أثناء زيارته للاتحاد السوفيتى. ويجب فى كل فرصة ممكنة أن يكرر أن مهمة الإنسان فى النصف الثانى من القرن العشرين هى أولاً وأهم من كل شىء، إنقاذ الجنس البشرى من الأشياء الكثيرة التى تهدده. الحرب، العبودية، الجوع والمرض، الفقر والجهل، ويجب على الحلف أن يداوم على دعوة الدول الأخرى وعلى الخصوص تلك التى تنتمى إلى «المعسكر الاشتراكى» أن تنضم إليه فى تنفيذ برنامج لا يمكن أن ينجح إلا إذا كان على المستوى العالمى. ويجب أن يؤكد رغبته فى تسليم المسئولية عن الأمن الجماعى إلى الأمم المتحدة بمجرد أن يصبح فى الإمكان إنهاء النزاع الحالى، الذى يتضمن، بطبيعة الحال، نزع السلاح العام تحت الإشراف، ومجلس أمن جديد بهذا الاسم وقوة بوليس دولية.. ويجب أن يدفع الحلف باستمرار إلى الخطط المتقدمة مستهدفًا هذه الأهداف».

وقد كادت الحضارة الغربية وأوروبا أن يهدما نفسيهما، بالسماح للفاشية وللقومية التقليدية المركزة على نفسها بأن تنتصر فى وسطها. وقد أنقذ انتصار سنة ١٩٤٥ الحضارة الغربية وجزءًا كبيرًا من أوروبا. لقد أظهر الانتقال الثورى الذى ظل غير

ملحوظ عدة عقود. وقد نشأت حقيقتان جديرتان من هذا الموقف. اختفى من الأفق تهديد الحرب بين الدول الأوروبية (فرنسا وألمانيا مثلاً). وفقدت ألوان الغيرة القومية القديمة كثافتها وأصبح التعاون فى حلف أوروبى ممكنًا. وفى نفس الوقت انبثقت شعوب آسيا وأفريقيا شركاء متساوين فى تاريخ العالم. والأمم المتحدة وحلف شمال الأطلنطى هما الرمزان غير الكاملين لهذين التحولين المعاصرين. وعقل الإنسان فى حاجة إلى وقت ليلائم نفسه مع مثل هذه التغيرات الأساسية، والمؤرخ الذى ينظر إلى الماضى غير البعيد يدهشه مجرد وجود حلف الأطلنطى والأمم المتحدة وأنهما قد حققا، فى وقت قصير، مثل هذا التقدم الكبير الذى حققاه.

فى العصر الأول للتاريخ العالمى، وهو عصر ملىء بالأخطار الكبيرة وبالآمال الأكبر، يجب أن تقود ثلاثة اعتبارات الدول التى هى بفضل أفكارها وقوتها مسئولة أولا عن سير التعاون الدولى. ويتعلق الاعتبار الأول بالعلاقة بين القوى الكبرى والدول الضعيفة، وقد أشار مؤرخ من أمريكا الشمالية، وهو يحدد العلاقة بين الدولة التى ولد فيها (كندا) والدولة التى اتخذها (الولايات المتحدة)، إلى أنه «لا يبدو أنه توجد قوة كبرى رفيقة، واسعة الأفق، مرنة، بالنسبة لأخرى أضعف؛ حتى لو كانت جارة لها. وحقيقة، من جهة أخرى، أن القوى الأضعف تكون على الدوام حساسة ومرنة وواسعة الأفق نحو جيرانها الأقوياء.... كانت كندا دائمًا تخشى الطاقات التوسعية للولايات المتحدة، سواء فى الأشكال الصريحة للغزو القومى، أو، فى وقت السلم، ضغط (السياسة الاقتصادية) وديبلوماسية الدولار... وتكون حساسية الدولة الصغيرة زائدة حين تتعاون مع قوة كبرى لخوفها من أن يفتح التعاون الطريق للسيطرة. وكما أن هذا صحيح عن كندا فهو صحيح أيضًا عن الدول الصغرى، والأقل تطوراً والتى هى لذلك أقل ثقة.

ويتعلق الاعتبار الثانى «بالحرب الباردة»، التى بدأتها الشوعية فى سنة ١٩١٧ والتى زادها بشكل كبير انقسام العالم فى سنة ١٩٤٥ إلى محورين. وسيبقى التوتر الذى يرقد تحت الحرب الباردة وقتًا طويلاً فى المستقبل، ولعله سيبقى حتى تقوم تجمعات جديدة للقوى خلال نمو الدول الأقل انحيازًا وتعاونها واختزالها بذلك الحرب الباردة إلى الجزء الذى كان قبل سنة ١٩٤٥ . وستكتشف الشيوعية، التى تنكر اتجاه القومية أصلا، أن القومية، إذا كانت مؤيدة بالرضا الواسع الحر لشعب متيقظ، وإذا كانت تعتمد على الأمم المتحدة فى أمنها، ستكون عقبة فى طريق حكم العالم. وسيكون على شعوب حلف شمال الأطلنطى، فى السنين التى يجب أن تمر قبل أن تتعلم الشيوعية درس تغاير الجنس البشرى وقوة التعلق بالحرية أن تتعلم العيش فى مشكلات الحرب الباردة التى لم تحل. أن عليهم أن يمارسوا الفضائل التى عرفها أفلاطون وقبلها أو جستين باعتبارها أساسية - الحكمة، وقوة الاحتمال، والاعتدال، والعدالة -

ويجب أن تضاف إليها ثلاث فضائل أخرى - الصبر، والقدرة على اتخاذ رأى بعيد المدى، ورفض الإحساس بالاستبداد بالرأى - والقتال والاعتداء عناصر أساسية فى المذهب الجماعى؛ والاعتدال والرغبة فى رؤية أكثر من جانب واحد فى المناقشة هى العناصر الأساسية للحضارة الغربية الحديثة. سيكون على الغرب أن يمارس هذه الفضائل التى هى ثابتة الجذور فى تقاليده. وعليها تتوقف قيادته للوحدة العالمية النامية.

والاعتبار الثالث هو الرثاء العطوف دون تحقير لتلك الشعوب التى تدخل عصر القومية العالمية والإنسانية العالمية، سواء اعترفوا بذلك أو أنكروا، تحت إيحاء الغرب الحديث. والأمر بالنسبة لهم هو ارتفاع لحالتهم يؤمنون به بحماسة بالرغم مما يتضمنه من مخاطر وهم يرفضون أن يحذرهم من تلك المخاطرات أوصياء أبويون عينوا أنفسهم. وسيرفضون بعمق اللغة التى تتضمن شعوراً بالاستعلاء أو رغبة فى جعل أمانيهم تابعة لاحتياجات نزاع القوى الكبرى ويتوقف المستقبل الأفضل للغرب وللبشرية على التزام الغرب مبادئه فى حياته. والملاحظة التى تتردد كثيراً من أن الشعوب الصغيرة أو غير المتطورة لا تحترم إلا القوة، ليست مما تنكره الحضارة الغربية فحسب، بل هى خاطئة بالطبيعة. ومثل سياسة القوة هذه قد تؤدى إلى نجاح مؤقت، ولكنها فى النهاية تهزم نفسها.

وفى عصور الاستنارة بدأ الغرب الحديث تلك التطورات التى أدت إلى نمو القومية فى كل مكان وإلى الاتصال العالمى للحضارات. وبدأ القرن الثامن عشر، بذهن متفتح، فى إنشاء اتصالات ثقافية بالصين والهند، وروسيا والإسلام. وفى القرن العشرين تحول عصر القومية العالمية إلى عصر الإنسانية العالمية. وبالرغم من أن المستقبل مجهول، فليس هناك سبب يدعو إلى النظر إليه بتشاؤم. والمشاكل القادمة جديدة وليس لها سوابق ترشدنا. ويميل الغربيون، وقد عاشوا فى جيل واحد خلال أهوال حربين عظميين، وأهوال الفاشية والشيوعية، إلى التشاؤم والأسف الحزين. إنهم يعرفون أن موقف السيطرة والأمان الظاهر الذى تمتنع به أسلافهم ينقضى. ولكن الأغلبية الكبيرة من الناس ينظرون اليوم أمامهم إلى حياة أكثر كرامة، وإلى وجود أكثر إنسانية مما عرفه آباؤهم أو أجدادهم فى أى وقت.

وليست ستينات القرن العشرين سنوات عقم ثقافى وروحى. وقد لا تكون أعمال فنية عظيمة قد أنشئت فى الوقت الحاضر، ولكن كنوز قرون كثيرة من الشعر، والموسيقى والتصوير هى الآن أقرب إلى متناول جماهير غفيرة مما كانت فى الماضى. والعلم، بما فيه الطب، يتقدم بسرعة أكبر من أى عصر سابق. وفى سنة ١٩٦٠ قال الدكتور آلان. ت واترمان. عالم الطبيعة الذى كان مديراً للمؤسسة القومية للعلوم فى واشنجطون منذ سنة ١٩٥١، للجمعية الأمريكية لتقدم العلوم.. " إن العلم يحقق الآن اكتشافات لها أهمية اجتماعية متزايدة، وسيستمر هذا الاتجاه، وفى الواقع سيزداد. وسواء اتخذت التطورات المستقبلية شكل التحكم الهائل فى مصادر الطبيعة، والتأثير والتحكم فى حياة الإنسان وعقله أو الاتصال بالكواكب الأخرى، فإنها ستنشئ فى كل الاحتمالات مشاكل من الأهمية للجنس البشرى بحيث يجب - وأعد يجب - أن يتعلم الجنس البشرى أن يتعاون فى حلها».

ولن يغير تقدم العلم السريع معرفتنا وسيادتنا للعالم الخارجى فحسب، بل سيهذب اهتمامنا بغيرنا من الناس ويوسع هذا الاهتمام؛ وسيغير ويحسن مجال الرخاء الإنسانى ووسائل وإدراكه النفسى. وفى سنة ١٩٦٠ اندفع الناس إلى الأمام إلى أبعد من التجارب السابقة، نحو أشكال أعلى من الوحدة الدولية - فى التحالف بين الأمريكيين للتقدم، ومؤتمرات الوحدة الأفريقية والآسيوية والسوق الأوروبية المشتركة، وحلف شمال الأطلنطى - وفى الأمم المتحدة. لم يتنبأ أحد بهذه التطورات فى سنة ١٩٤٠ إنها تجارب لبناء إطارات جديدة للتعايش والتعاون. وفى التغلب على مشاكل قد يتوقف على حلها بقاء أجزاء كبيرة من الجنس البشرى. إنها استجابة لحاجات حقيقية وحيوية وهى تأتى فى فرصة فريدة فى التاريخ. إنها تثبت الموارد الخلاقة لفعل الإنسان. وفيها يتخذ عصر الإنسانية العالمية - الذى أوجدته حركية الحضارة الغربية الحديثة - شكل عصر التاريخ العالمى لأول مرة.

التصحيح اللغوى : صلاح عيد
الإشراف الفنى : حسن كامل
التصميم الأساسى للغلاف : أسامة العبد

تختلف القوميات فيما بينها وفقًا للأفكار السياسية والتقاليد التى تتضمنها، وللذكريات والآمال التى تستحضرها، ولموقفها إزاء جيرانها وإزاء المجتمع الدولى، ودرجة تركيزها على نفسها ودعاواها فى التفرد. وقد حطمت القومية فى بدايتها أغلال التقاليد، كما حطمت نظامًا اجتماعيًا قديمًا مقيدًا، وملأت قلوب أتباعها بشعور الكرامة الإنسانية، وبالفخر والرضا بالمشاركة فى صنع التاريخ وإدارة الإنسان شئون نفسه.

ولكن قومية لا يخفف من غلوائها النظر إلى القيم الإنسانية العليا وإلى حقوق الشعوب الأخرى، تصبح عقيمًا من الناحية المعنوية، وخطرًا على الحرية المدنية والسلام من الناحية السياسية.

ومثل هذه القومية خصوصًا إذا كانت قائمة على وحدة الجنس أو الدين أو التفرد تنتج، إذا ملكت القوة العسكرية، تهديدًا خطيرًا لجيرانها، وتكون على كل حال مصدرًا للانحلال الروحى لأعضائها.